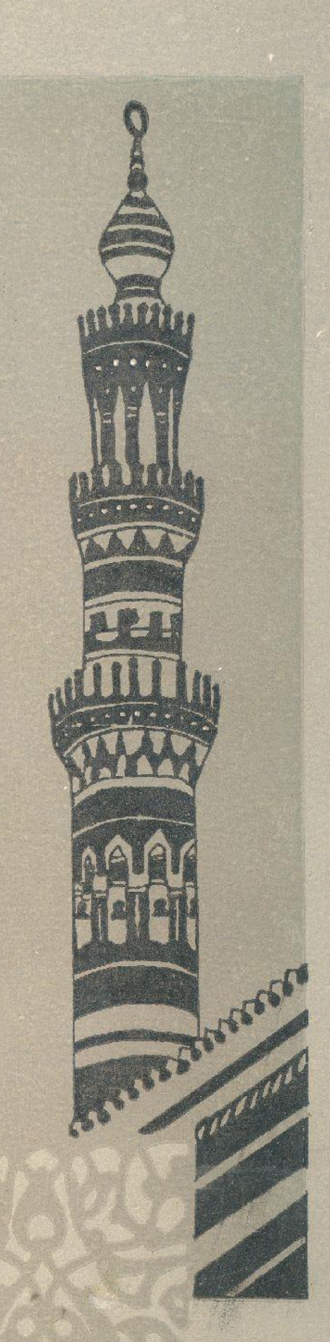
الحضارة العربية

تأليف

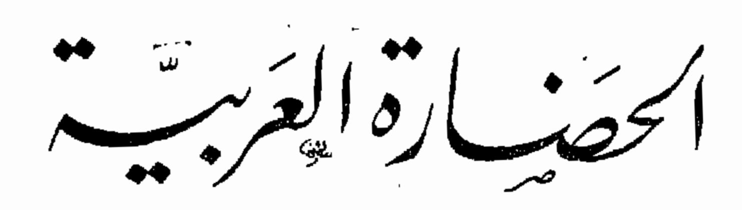
جاك . س . ريسلر

ترجمة : غنيم عبدون

مراجعة : د. أحمد فؤاد الأهوانى



الدار المصرية للتأليف والترجمة



الحضارة العربية

تأليف

جاك س. ريسلر

أستاذ بالمعهد الاسلامي بباريس

ترجمة

غنيم عبدون

مراجعة

الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

الدار المصرية للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا الـكـتاب

يتخذ المؤلف الحضارة العربية موضوعاً لكتابه ويلقى عليها كثيراً من الأضواء المنصفة ويؤكد أنها كانت صاحبة السبق بين حضارات العالم أجمع وأنها أم الحضارات جميعاً وعنها أخذت الحضارة الأوروبية وتأثرت بها وتفاعلت معها ، وما زال تأثيرها باقياً وخالداً فى شتى الحضارات .

وقد تناول المؤلف الحضارة العربية بكل ما تحتويه هذه الكلمة الكبيرة من معان ، بل وكل ما يتصل بها من قريب ومن بعيد لذلك فقد نقل المؤلف نصوصاً كثيرة متباينة عن مختلف أعلام العرب الذين كان لهم شرف إرساء أسس الحضارة الإسلامية .

وقد أفرد المؤلف فصولا قيمة عن الرسول عليه الصلاة والسلام بوصفه باعث هذه الحضارة وتناول حياته من مولده حتى مماته ، كما تحدث عن القرآن الكريم ونقل عنه كثيراً من النصوص الدينية .

والنصوص الكثيرة التى نقلها المؤلف من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأعلام العرب وقصائد الشعراء والأدباء وأهل الحكمة والفلسفة والمتصوفة والمؤرخين .. كل ذلك قد تطلب منا القيام بعملية تحقيق واسعة ومضنية . . واسعة لشمول نصوصها وتباينها من دين إلى طب إلى فن إلى صناعة إلى فلسفة . . الخ . . ومضنية للبحث عن الأسماء التى نقل عنها المؤلف والتى كثيراً ما كانت ترد محرفة تحريفاً شديداً ، أو النصوص التى لم يذكر أصحابها أو مصادرها ، أو نقله عن تراجم المستشرقين الذين كثيراً ما كانوا يترجمون الأسماء العربية بطريقة تبعدها عن أصلها الحقيقى . . هذا فضلا عن الأخطاء المطبعية الكثيرة والمتناثرة فى صفحات الكتاب . . كل هذا تطلب منا جهداً شاقاً ووقتاً كبيراً فى عملية البحث عن مصادر هذه النصوص وتحقيقها من مصادرها العربية وترجمتها

كما رجعنا إلى دواوين الشعراء وسيرهم للتنقيب فى قصائدهم عن الأبيات التى استشهد بها المؤلف وكذلك الحال مع رجال الدين وأهل الحكمة والفلاسفة والعلماء وغيرهم .

والذى دفعنا إلى ذلك هو تقديرنا للحضارة العربية بخاصة ، وتقديراً منا لقيمة هذا الكتاب وما تضمنه من معلومات تشرف العرب وتعلى من شأن حضارتهم . .

هذا ، ونجد لزاماً علينا إحقاقاً للحق ، وإنصافاً لمؤلف الكتاب، أن نزن ما تضمنه الكتاب من معلومات طريفة وشائقة بميزان العدل والمنطق . وقد لاحظنا أن المؤلف لم يكن موفقاً فى بعض نقاط قليلة بادرنا بالرد عليها فى حاشية الكتاب ، وإن كانت هذه النقاط التى لم يحالفه التوفيق فيها لم تقلل من قيمة الكتاب لما فيه من حقائق وأدلة ساطعة أوردها المؤلف فى هذا العرض الجميل البديع عن بلوغ العرب لحضارتهم مبلغاً لم يدانهم فيه أى شعب آخر، والذى أثبت فيه حججاً قوية كانت ولا تزال مصدر إلهام روحى لكل شعب يبغى التقدم والرقى .

ولا ريب فى أن المؤلف قد أنصف الحضارة العربية وأبرز مكانتها ودورها الكبير فى تاريخ الإنسانية وكيف تأثرت شتى الحضارات بها نظراً لأصالتها وعمقها وشمولها وسعة آفاقها الرحبة وذلك كله بطريقة موضوعية وتحليل دقيق وتركيز رائع على الجوانب المضيئة فيها . .

وكنا نعتقد أن المؤلف بنزاهته وحيدته وموضوعيته سيستمر فى مؤلفه حتى نهايته إلا أنه فى خاتمة الكتاب تطرق بالحديث إلى الدول العربية ووصفها بأن الضعف قد دب فى كيانها فى القرن التاسع عشر وأصابتها حال من الركود والاضمحلال كما أنها وقعت فريسة للفقر والكساد الأمر الذى جعلها عاجزة عن اللحاق بركب الحضارات الحديثة . .

ولا شك أن هذا الرأى إنما يصدر عن نزعة استعمارية وتعصب أوربى كما أنه مردود عليه بأن ما أصابها لم يكن ليصيبها لولا الاستعمار نفسه الذى كان جل هدفه وغاية مسعاه أن يقبض على زمام الأمور فيها ويخمد أنفاسها ويثبط همتها ويضعف من

قدراتها الإنتاجية حتى تكون له السيادة والمنعة وليطمئن جانبه . . ومن الواضح أن جذوة القوة والقدرة والكفاية لم تنطفىء تماماً وإنما اشتعلت ثانية فى أوائل هذا القرن وعند ما اندلعت الثورات الانتفاضية البطولية والحركات التحررية لتزيح عن نفسها هذا الكابوس الثقيل ولتبعث من جديد عوامل الحيوية والخلق والبناء حتى أصبحنا ندرك — وكذلك المؤلف نفسه — تلك النهضة المباركة التى أخذت تعم سائر الدول العربية من المحيط حتى الخليج وأشرقت شمس حضارتها بعد ليل قصير واستطاعت أن تكون كما كانت قوة عظيمة لها ثقلها ومكانتها التى يحسب حسابها فى الميدان الدولى

المترجم

مقدمة

إن أمنيتنا المخلصة أشد الإخلاص تقوم على أن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه ما الروح الإسلامية ، وكيف صيغت هذه الروح على مر العصور . لقد وقف الرجل الغربي تجاه العالم العربي في حيرة وكأنه أمام سر غامض ، فلم يك مألوفاً له رد أي فعل من ردود الفعل الإسلامية ، ولم يدرك كل نهج في وجود هذه الروح وفي الاحساس بها وفي قوتها الدافقة .

وثمة هوة عميقة في الحقيقة تفرق بين هذين النمطين من الأفراد ، إذ يتميز النمط الأول منهما بالفطرة والصوفية[1] ، والآخر بالعقل المنطقي . وبينما يحاول الغربي أن يدرك الحقيقة عن طريق القياس الديكارتي ، إذا بالعربي يترقبها من الله وحده . ويلتزم أحدهما ، دون التشكك في ذلك ، بما ينتهي إليه حكمه الذي قد يخطيء فيه أحياناً ، وينقاد الآخر دون مناقشة لأوامر القرآن والسنة[2] .

ويتيح هذا التقرير البسيط معرفة مدى المسافة الشاسعة التي تفصل بين الشرقي والغربي . الحق أن الشرقي لا يخلو من الافتتان بتقدم أية حضارة مشرقة ، ولكنه يعرف أن مستقبل المعرفة محدود وأن مصير الإنسان قائم بين يدي الله .

---

(١) . . . وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادي ، فإن الإسلام لا يقف عند ذلك ، وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، هو القلب أو هو الروح والبصيرة . إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشراقية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية ، ويجمع الإسلام الاتجاه العلمي الحديث إلى الاتجاه البصيري في قوله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . [عن المكتبة الثقافية — الرسول صلى الله عليه وسلم — لمحات من حياته ، ونفحات من هديه — تأليف الدكتور عبد الحليم محمود — ص ٨٠] . (المترجم)

(٢) . . دون مناقشة . . لأنها أوامر موحى بها من عند الله ، وتنزيل من رب العالمين ، ثم كان الرسول بسنته مبيناً لهذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى في سورة النحل : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . (المترجم)

(٣)

إن هذا الكتاب الذى يحكى تطور العالم العربى نسجت معالمه . ودقائقه مع صديق العقيد بيير كالفيه (Pierre Calvet) إذ أن تبحره فى الثقافة ومعرفته الوثيقة بالأمكنة التى قامت فيها مواطن الحضارة العربية كانا ضروريين لإحضار هذا المؤلف ، ضرورة المواجهة الدقيقة لأفكارنا .

ونترك الآن سطور هذا الكتاب لتقدير القارىء . .

وأرجو أن يكون فيما أدرجته من بعض قصائد من أجمل القصائد العربية المقتبسة من كتاب أميل درمنجم (Emile Dermenghem) سبيل إلى إضفاء شىء من الطلاوة والإيضاح على عرض جاف للغاية فى بعض الأحيان .

ج . رينلر

الباب الأول

الأسس

(١)

فى عصور ما قبل الاسلام

إطار الشرق الجغرافى

الشرق منطقة مترامية الأطراف من السهوب ومن الصحارى تمتد إلى جنوب البحر المتوسط وإلى شرقه ، فالبلاد التى جرت العادة أن ندل عليها بتلك التسمية العامة ، والمتأثرة فى الوقت الحاضر أشد التأثر بالحضارة الإسلامية وبالدين الإسلامى ، قد اشتهرت عادة باسم «الدول الإسلامية» ، وعلى امتداد هذه الرقعة من الأرض يتحدث الناس باللغة العربية ويكتبونها ، هذه اللغة التى ظلت منذ ظهور النبى (ﷺ) الدعامة الأساسية لحضارة مشرقة .

إن ما يثيره العالم الإسلامى فى خيال الرجل الغربى ، صور شتى لأراض مشمسة ، واتساع مهوش جاف لاحدود له ، وقحل تحت سماء لازوردية ذات ضوء وضاء متلألىء بنجوم لا حصر لها أثناء ليال شفة وغامضة . ويشاهد هنا وهناك واحات ذات نسيم ، وخضرة وسط طبيعة رملية وصحراوية وكأنها جزر مبعثرة على مساحة واسعة رملية .

هذا العالم الذى قدر له أن يكون معبر الوصول من الغرب إلى الشرق يحتل وضعاً جغرافياً خاصاً ، كانت نتيجته الأولى تقسيم المواطن الرئيسية للجنس البشرى فى الشرق . ولقد شطرت طبيعة التربة وطبيعة الجو شعوب الشرق إلى بدو وحضر ، محددة بلا قصد مصير هؤلاء الحضر فى الواحات دائمة — على العكس — البدو للبحث عن سهوب ذات أعشاب ومراع .

والجزيرة العربية التى يبدو أن أسلاف جميع الشعوب السامية تنتسب إليها هى أكبر

شبه جزيرة فى الكرة الأرضية وتمتد على مساحة ٢٨٠٠ كيلو مترطولا و٢٠٠٠ كيلومتر عرضاً فى جزئها الجنوبى . وهى جيولوجيا السلسلة الطبيعية للصحراء التى تمتد من وسط هضبة إيران حتى صحراء جوبى . فهى إذن جزء من « المنطقة الحرام » الهائلة تلك التى كانت تشكل قديما سداً يصعب اختراقه بين المجموعات البشرية الكبرى الثلاث ، الجنس الأبيض والجنس الأسود والجنس الأصفر . وفى وسط الجزيرة العربية ، ترتفع الهضبة فجأة إلى ارتفاع ٣٠٠٠ متر بمحاذاة البحر الأحمر وتهبط بعد ذلك فى منحدرات سهلة تجاه الخليج الفارسى .

تشتهر الجزيرة العربية بجفافها ودرجة حرارتها الشديدة ، ولم يساعد البحران المحيطان بها من الشرق ومن الغرب ، على تلطيف الجو (المناخ) الاستوائى لهذه الرقعة الشاسعة المتصلة من الصحراء ، بل إن الرياح الموسمية لا تكاد تبلغ الشاطىء حتى تفقد كل قوتها . وفى داخل الهضبة إلى الشمال ، تسود السهب مع صحراء كبيرة تسمى النفود ، وفى الجزء الجنوبى تمتد صحراء أخرى هى الربع الخالى ، والشريط الساحلى هو الوحيد الملائم للسكنى على عرض رفيع ، وتتخلله واحات منثورة متباعدة بمئات كثيرة من الكيلومترات .

وفى الحقيقة لا ينبت فى هذه الأرض الجدباء إلا أشجار النخيل ، والكروم ، وبعض الحبوب ، وبعض أشجار الفواكه . ومن عجائب الأمور أن الإسلام نشأ على ضفاف البحر الأحمر ، وشواطئه ، وفى الحجاز وسط الهضاب الصخرية التى تعبرها وديان ضيقة ، والتى تشرف عليها جبال جرداء ، على حين أنه فى أقصى الجنوب توجد اليمن وهى إقليم خصب نسبياً وحظه من الثروة أعظم فهى بلاد البن والبخور ، والصبر ، ونباتات ذات رائحة ذكية ، وزيوت لاغنى عنها . ومع أن هذه الثروة المتواضعة جعلت من اليمن موطن الممالك القديمة للعرب ، فكانت بذلك مهداً أكثر استعداداً لتلقى الدين الجديد ، إلا أن القدر أراد أن تقوم المدن المقدسة فى الحجاز على الرغم من معاربة الطبيعة لها .

ونلاحظ بنفس الدهشة أن نقطة الانطلاق الجغرافية لأعظم الانقلابات الدينية لا تبعد كثيراً فى هذا الجزء المختار من الجزيرة العربية التى ثبتت فى الشمال كأنها رقعة مستديرة فى بلد الحضارات القديمة إلا أن هناك تحت شكل قوس دائرى يطلق عليه

الهلال الخصيب تنبسط من الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر بلاد الكلدانيين ، وبلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين ، ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلى ضفاف البحر المتوسط ، يمتد الشاطىء الفينيق . وبموازاة هذا الشاطىء تمتد مجموعة من الجبال يبلغ بعض قممها ٢٠٠٠ متر ، وتفصل البحر عن بقية هـذا القطر . وتشق وديان طرابلس والناصرة هذه المجموعةمن الجبال التى تحيط بلبنان . ويؤدى منفذ طرابلس إلى منعطف الفرات وإلى ما بين النهرين وإلى بلاد الكلدانيين التى تربط أوروبا بآسيا ، وهذا هو الطريق الكبير للهجرات كما أنهفى الوقت نفسه طريق الغزوات ، ويؤدى منفذ الناصرة من الجنوب ذو الأهمية القليلة الاستراتيجية ، إلى فلسطين وإلى سوريا وإلى الصحراء . وبين هذين البابين الوحيدين المطلين على مؤخرة الإقليم ،كانت تتدرج قديماً كبريات الموانى الفينيقية مثل صور وصيدا وجُبَيْل وأرجوس وقد زال بعضها فى الوقت الحاضر .

ومن الجانب الآخر من الهـلال الخصيب بين صحراء سوريا ومدرجات إيران فى سهل طوله ٢٠٠٠ كيلومتر وعرضه ٤٠٠ كيلومتر ، يجرى فى نفس الاتجاه نهرا دجلة والفرات اللذان ينحدران بشدة من سلسلة جبال طوروس ثم يأخذان فى الانسياب عند وصولهما إلى السهل الذى يحق لنا أن نصفه بأنه « هبة هذين النهرين» فعلى غرار نهر النيل تغمر مياه هذين النهرين القرى المجاورة فى فصل الربيع . وكانت تمنح فيضاناتهما التى كانت تتجمع مياهها — قديماً — بطريقة منتظمة إلى البلد ، خصباً لا مثيل له . كما كانت تصنع من بلاد ما بين النهرين إقليماً من أراض زراعية فريدة فى نوعهـا . وعلى نهر دجلة ، تقوم بالتوالى : سلوقيا والمدائن — التى تقع مكانها اليـوم بغداد — ثم نينوى بالقرب من الموقع الحالى للموصل . وكان النهران فى سالف الزمان يصبان منفصلين فى الخليج الفارسى[1] ، وعند ما تراجع البحر رويداً رويداً على مر العصور ، تجمعا تحت اسم شط العرب فى هذا الفضاء الجديد الذى يشكل إقليم البصرة الذى لم يكن له وجود فى العصور القديمة .

كانت بلاد الأشوريين الشمالية وبلدان الكلدانيين الجنوبية تتدرج تماماً بين النهرين ، وعلى الشاطىء الأيسر عند منتصف نهر دجلة كانت تتنافس بلاد عيلام فى ثروتها مع

---

(١) يطلق عليه اليوم الخليج العربى . (المترجم)

بلاد ما بين النهرين . وهناك عند مصب هذين النهرين وفى باطن سهول من الطمى ، ازدهرت الحضارات القديمة ، التى صعدت بعد ذلك إلى منابع النهرين ، لحضارات أوروسيرتلا على شاطىء البحر ، وبابل ثم نينوى تشير إلى مراحل هذه الحضارات القديمة المتعاقبة . وفى وسط قطر غنى ، كانت بابل على اتصال مع آسيا العليا والمحيط الهندى عن طريق نهرى دجلة والفرات ، ومع الفرس والعالم العربى من الشرق والغرب بوساطة طرق القوافل . وكان المرء يلاقى فى هذا المركز من الأسواق المهمة ، ملاحين وتجاراً قادمين من أفريقية ، ومن الجزيرة العربية ، أو من الصين النائية . وهناك ، كانت القوافل التى تزيد القافلة منها على أكثر من ألف جمل ، تتوالى الواحدة بعد الأخرى رابطة الهند وفارس مع آسيا الصغرى والبحر الأسود من جهة ، ومع سوريا وفينيقية ومصر من جهة أخرى .

كل ذلك فى سالف العصور ، أما اليوم فمن الصعب علينا أن نتصور أن هذه البلاد المليئة بالمستنقعات[1] والتى تلفها الصحراء والأخاديد كانت أكثر الأقطار خصباً فى العالم ، وفردوس العصور الماضية ، كما أن فيها النهر ذا الشواطىء الغنية التى حشد لديها الرومان — يوما ما — أسطولا من ألف سفينة محملة بالرجال المستعدين للانقضاض على فارس .

ولعلنا لا نستطيع البحث فى مشكلة الشرق المتشعبة دون التحدث عن مصر .

تملك مصر القديمة كثيراً من الخصائص التى تقربها من بلاد الكلدانيين وبلاد الأشوريين ، فكما أن هذين القطرين الأخيرين يتمتعان بثمرات الأنهار التى ترويهما ، فإن مصر هى كذلك «هبة النيل» . وجملة القول عن هذا القطر الصحراوى من شمال أفريقية أنه واحة طولها ألف من الكيلومترات وعرضها ١٢٠ كيلومتر . وهناك أيضاً نشأت الحضارة فى دلتا النهر وصعدت بعد ذلك نحو منابعه . لكن ، مطاوعة إلى

---

(١) من الانصاف أن نبادر فنقرر أن هذه البلاد بعد أن رحل عنها الاستعمار ، أخذت تسترجع ماضيها الزاهر وحضارتها القديمة، واستخدمت أساليب التقدم والعمران الحديثة فردمت المستنقعات وعمرت صحاريها . (المترجم)

الاتجاه الذى قدرته الطبيعة فى هذه البلاد التى تعد معجزة النهر ، قد امتدت الحضارة من الشمال إلى الجنوب . ونشأت منفيس واتسع نطاقهـا أولا ، ثم ظهرت بعد ذلك حضارة طيبة . ثم شيئاً فشيئاً أخذت التربة العضوية الغزيرة الممنوحة من العناية الإلهية والتى جلبتهـا فيضانات النيل ، تملأ أرض مصر بثرواتها ، وتحيلها بلداً يثير الإعجاب لا يضارعهـا فى خصبها إلا بلاد الـكلدانيين . ولمـا كانت أقل تعرضاً من الأخيرة للأخطار ، ومحمية من كل جانب بوساطة البحر والصحارى التى تحيط بها فقد أمكنها أن تتطور فى مأمن من الغزوات الأجنبية .

مهد الديانات وأصلها ومبدؤها

إن التاريخ الأساسى للشرق إنما يتجلى قبل كل شىء فى تطور الأديان التى بزغت فى هـذا الجزء الفريد من الـكوكب الأرضى . وقد انتشر الإسلام على الأرض التى سبق لها أن مهدت لنشأة اليهودية والمسيحية . ومن ثم فإن الديانات الثـلاث الـكبار التى قدر أن تتقاسم العـالم المتحضر فيما بينها ، قد ازدهرت بالتوالى على نفس التربة القاحلة . إذ يقع بيت المقدس على مسيرة بضعة أيام من جبل سيناء ، والمسافة من هذا الجبل المقدس حتى مكة لاتكاد تكون أكثر طولا . ويزداد عجبنا فى بيت المقدس حيث تختلط آثار الأماكن المقدسة فعلى بضع خطوات من قبر السيد المسيح أقيم جامع عمرو فوق آساس معبد سليمان ، قدس أقداس الإسرائيليين . وفى وسط هذا الجامع المحـاط بسور من حديد أقامه الجنود الصليبيون ، توجد الصخرة التى استعد إبراهيم أن يذبح إسحاق(١) عليها . وقد استخدمت هذه الصخرة كمذبح للقرابين خلال ألف من السنوات ، وهنالك وهب للعذراء الابن يسوع ، ومن هذا الحجر ذاته عرج محمد عليـه السلام فى رحلته الروحانية . ولقد قدر لهذا الركن الركين للوحدانية الذى نشأ مع داود وسليمان ، أن تلبعث منه آلام المسيح وأنوار محمد ﷺ ، وهكذا تتجلى أعظم الذكريات لتاريخ البشر فى بقعة لاتزيد مساحتها عن بضع أقدام مربعة .

ومهما يكن الإطار الجغرافى للأماكن المقدسـة الوارد ذكرها فى « القرآن »

---

(١) الذى يعتقده المسلمون — كما جاء فى القرآن — أن الذبيح هو إسماعيل لا اسحاق . (المترجم)

مثيراً للدهشة ، فإننا ندهش أكثر من تبيان أن ظهور الأديان المنزلة فى تلك الأماكن المقدسة كان متأخراً جداً . والحق أننا أمطنا اللثام عن البوادر الأولى لما أضحى فيما بعد مجموعة الأفكار الدينية قبل ظهور الديانات المنزلة بكثير ، خلال أكثر عصور تاريخ البشرية إيغالا فى القدم .

وقد ارتبطت رويداً رويداً هذه الفكرة البدائية والغامضة لأى دين بقوى خفية خيرة أو شريرة . وبآلهة من الواجب خشيتها أو تمجيدها والتى لعلها اقترنت لدى الإنسان بفكرة أخرى ، فكرة بعث الإنسان بعد الموت . وكانت فكرة بعث الإنسان بعد الموت تقتضى سلامة جسم الإنسان فى الدنيا ، وكانت هذه الفكرة منشأ الطقوس الدينية الأولى والشعائر التى كان هدفها حفظ الأجساد بعد الموت . ولما كان القرين هو الذى يبعث المرء ويمد فى عمره ، فلا جرم أن يحافظ على هذا القرين فى حالة جثمانية كاملة . ومن أجل ذلك أعدت الأديان القديمة القبر أو التابوت لكى تتوفر جميع فرص بقاء الصور البشرية القابلة للفناء .

أخذت فكرة عالم أفضل وفقاً للعدالة ترتبط فى ذهن البشر رويداً رويداً بفكرة البعث بعد الموت . وفى « كتاب[1] الموتى » وهو كتاب طقوس مصرية ينظر إليه على أنه من أصل إلهى ، يدافع الميت عن قضيته أمام المحكمة التى تقف بباب الجنة قائلا . « يارب الصدق والعدالة إنى لم أغش الناس ، ولم أعذب الأرملة ، ولم أكذب قط » . . ومن أجل هذا فقد ظهر رويداً رويداً بالنسبة للإنسان ضرورة الامتثال لقانون إلهى أو إنسانى ، ولنظام مرضى عنه إلى حد الرضا بالجزاء ، أعنى الرضا بالعقاب أو الثواب

---

(١) ذلك اسم حديث أطلقه لبسيوس على نحو ألفى ملف من ورق البردى وجدت فى عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغا لإرشاد الموتى . واسمها المصرى هو : الخروج (من الموت) بالنهار . ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم منها . ويعتقد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله . وقد جاء فى الفصل الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه فى عين شمس وأنه كان « بخط الإله نفسه » . [عن قصر الحضارة . الشرق الأدنى ــ تأليف ول ديورانت ــ ترجمة محمد بدران ص ١٦٣] . (المترجم)

وفقاً لنوع الأفعال التي أديت عن طريق الفرد في أثناء حياته الدنيوية . وهكذا فإن الإنسانية سبقت إلى تصور ما ستكون عليه الديانات بعد نزولها ، وما سيكون عليه القانون ، هذا القانون الإلهي الذي كانت تنتظره الإنسانية بحماسة وشوق شديدين .

إن الكتابات المسطورة في أوراق البردي القديمة وفي النحت والرسم المعاصرين للحضارات التي اختفت ، تشير إلى جهود الإنسانية في الشرق وهي تحمل في أحشائها فلسفة ميتافيزيقية لاغنى للانسان عنها كي تمنحه قوة الحياة . ويشير تصوير بدن الميت ، والتماثيل المجنحة أو ذات الريش إلى أن الإنسان قد تخلص من نقائصه الفانية ، على حين أن وفرة تصوير محكمة توزن أمامها الأعمال الخيرة أو الشريرة في كفتي ميزان ، تؤكد عقيدة خلود الروح التي يمكن أن تكون سعيدة أو شقية تبعاً لدرجة سمو الأخلاق للفرد .

وفي الحقيقة ، لقد كشف المستشرقون معتقدات وشعائر هي علامات على طريق مذاهب ستظهر فيما بعد ، قبل ظهور الأديان الثلاثة المنزلة ديناً بعد آخر . وتعرض الآثار وأوراق البردي قضايا العدل الإلهي ، والجنة ، والنار ، وشجرة الحياة والمعرفة ، والمرأة والأفعى ، والطوفان . ويؤكد « كتاب الموتى » أنه بعد العصيان والقصاص يتحمل الإنسان وذريته وزر خطيئة حياتهم تكفيراً عنها وفي كل لحظة ، يمكن أن نلاحظ أن الفن المصري والأشوري والكلداني ، وكذلك الأدب العبري أو الأدب الفارسي في « زندافستا » كان مشبعاً بالاهتمام الدائم لبقاء الإنسان المستمر بعد الموت .

أجل ، لقد قيل كل شيء منذ وقت طويل . فهذا أفلاطون في محاورة طيماوس يلقي على لسان المتحاور المصري هذا القول المدهش : « أنتم أيها الاغريق الآخرون ، أنتم لستم إلا أطفالا ، ولا شيء لديكم يحمل طابع حضارة موغلة في القدم » .

لكن ، يجب الاعتراف بأن أية عشيرة من المشائر الدينية في أي وقت من العصور القديمة لم تكن قد أكدت إيمانها بالدستور الأخلاقي للعالم نحو نهاية عادلة ونبيلة على يد إله متعال ، مما يعد نقصاً كبيراً أخذت الديانات المنزلة تتلافاه .

وفي سعي الإسلام إلى « المطلق » ، نبذ لشدة عنايته بوحدة الله ووحدانيته ، عقيدة

الثالوث المقدس، مبتعداً فى ذلك عن المسيحية التى كان يتهمها بنوع من الشرك لاعتقادها فى ألوهية ثلاثة أشخاص . ولقد احترم الإسلام احتراماً نادر المثال تاريخ الأديان فاعترف بأن الكتب المقدسة لليهود والنصارى منزلة ، وسلم[1] بما جاء فى الكتاب المقدس من روايات يهودية نصرانية . وقد أشار النبي عليه السلام للدلالة على صدق رسالته إلى مابين القرآن والكتاب المقدس من توافق ، وكان على غرار المسيحية يحفل بالعقيدة أكثر من اهتمامه بالسلوك ذاته للفرد .

وإذا بحثنا عن رأى عام فيما يختص بأصل الأديان المنزلة ، نلاحظ أن الأديان الثلاثة قد تأثرت بمفاهيم معينة كانت موجودة من قبل فى الشرق عن طريق مفاهيم أكثر شرقية ، خذ مثالا لذلك فكرة حساب الأرواح بعد الموت تجد أنها تمت بصلة إلى المذاهب الفارسية لزرادشت تلك التى أسهمت من وجهة أخرى إسهاماً معيناً فى الأديان الأخوية الثلاثة . وفيما يختص بتلك الأديان الثلاث ، وبصرف النظر عن بعض الخلافات بينها ، يجدر بنا أن ننبه إلى أن التشابه بينهما جوهرى متعدد الجوانب . وقد حث محمد (صلى الله عليه وسلم) ـ بكل تسامح وقوة إدراك فى الوقت نفسه ـ اليهود على إطاعة شريعتهم ، والمسيحيين على إطاعة أناجيلهم ؛ وعلى أن يرتضوا القرآن خاتم الكتب المقدسة والدين الإسلامى خاتم الأديان المنزلة .

وصفوة القول : تلك هى على الجملة المظهر العام لنشأة الأديان وأول مبدأ للحضارة . ستحاول هذه القوى الروحانية الثلاث ، التوراة ، والتلمود ، والقرآن ، وبعد انهيار الأمبراطورية الرومانية فى العالم الذى أصبح بربريا ، ستحاول إعادة تنظيم الشعوب والنفوس ، وغزوها كذلك . وتتركز مأساة التاريخ الغربى للعصر الوسيط فى الصراع الدامى غالباً بين هذه الأديان الاخوية الثلاثة

---

(١) القرآن لم يسلم بالتوراة والإنجيل تسليما مطلقاً ، بل قرر أنهما محرفان .
(المترجم)

شعوب الشرق

(٢)

نشأت المواطن الحضارية العربية الأولى على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية في المناطق الخصبة نسبياً من الحجاز وبخاصة من اليمن ، وفي هذا القطر الأخير يصادف المرء آثار مملكة سبأ التي اتصلت ملكتها بسليمان قبل الميلاد بألف سنة . وكان لزاماً على الحيريين — وهم شعب اليمن الذي كان يهيمن على العلاقات التجارية البحرية بين الهند ومصر — أن يغزوا سكان سبأ قبل العصر الميلادي بقليل .

وبصرف النظر عن هذه التجمعات البشرية التي نشأت في موقع جغرافي لا مثيل له على أطراف مساحة شاسعة من الصحراء ، كان العرب لا يرتضون أية تبعية ولا إجبار على الإخلاص والخضوع ، اللهم إلا أن يكون ذلك لقبيلتهم .

العرب البدو :

وكان الجزء الأكبر من السكان في الجزيرة العربية لا يزال بدواً . فإن رعاة الغنم من البدو الذين يشكلون حتى اليوم هذه الأقوام الرحل من أفريقية الشمالية ومن الجزيرة العربية ذاتها يعيشون في الخيام كأسلافهم منذ عصور موغلة في القدم ، ويتجولون بقطعانهم بحثاً عن مراع تبعاً لفصول السنة والأمطار . ويداوتهم أو بعبارة أخرى ، هذه الخاصية للانتجاع هي التكييف الوحيد الممكن للانسان وفقاً لطبيعة جدباء تحت شمس لا تخمد أوارها .

في عصر ما قبل الإسلام ، كانت كل أسرة عربية تملك خيامها ، ويشكل مجموع هذه الخيام ، عشيرة ، وبتجمع العشائر ذوى القربى تتآلف القبيلة . وكان التضامن مطلقاً بين أعضاء القبيلة الواحدة ، بينما نجد موقفها مع القبيلة المجاورة مختلفاً تمام الاختلاف إذ تصبح الأخيرة فريسة تترصدها للهجوم عليها ونهبها . ويتولى الرئيس (السيد ، القائد) قيادة التشكيل القبلي ، وينتخبه مجلس القبيلة (الجماعة) مراعاة لثروته أو لصفاته الحربية .

والجمل والحصان هما عنصران لا غنى عنهما للبداوة القبلية ، ذلك أن الجمل فى حياة الصحراء يلعب دوراً رئيسياً لأن صبره واحتماله يتجاوزان الخيال ، وليست هاتان الصفتان الوحيدتين لهذا الحيوان الخارق للعادة لأنه ليس « سفينة الصحراء » فقط ولكنه ضرورى أيضاً للاقتصاد المنزلى : يشرب لبنه ، ويستخدم « بوله » كدواء مقو عجيب ، وروثة السليلوزى يكون قابلا للاحتراق بشدة ، وأخيراً ، يذبح بعد أن يذرع المساحات الشاسعة من الصحراء حلا وترحالا دون ضعف ولا وهن ، ويؤكل لحمه ، وتصنع من وبره وجلده الملابس والخيام .

وينافسه الحصان ، وهو حيوان كريم جافل ، وقد اشتهر من أجل ذلك لكن العناية به أصعب . ويتخذه البدوى صديقاً له ، وقد سجل الشعراء فى قصائدهم كثيراً من القصص التى تروى عنه ، وتربو الكلمات التى تشير إلى الحصان فى مفردات اللغة العربية على الألف ، ولا عجب فقد كان لسرعته ونشاطه أعظم الفضل فى كسب غارات لا تحصى كانت القبائل تنهض بها حفظاً لحياتها .

يستطيع البدوى المولع بالخلاء الفسيح والآفاق الشاسعة ، الصبور كجمله ، النشيط كحصانه ، أن يعيش على تمر ولبن ، وأن يقضى شطراً من حياته فى حرب ، وهجوم ، وغزوات . وهذه هى الشواغل الوحيدة الخليقة به ، لكن غريزته كرجل صيد ، كثير السلب والنهب ، محب للقتال ، مفتون بالنساء عاشق لهن ، عشقه لحصانه . هذه الغريزة يعوضها إلى حد ما كرمه ونبل خلقه وإحساسه السامى بكرم الضيافة والشرف .

هذه الصورة تمثل الشخصية الرئيسية للعربى بطل صحراء الجزيرة العربية قبل محمد صلى الله عليه وسلم بكثير ، ومنذ العصور القديمة حتى أيامنا هذه ، ودون أن يعرف المرء من أى مكان تقبل هذه الشخصية يراها تنقض فجأة وهى تعدو على ظهر حصانها تجاه أماكن مختارة من الهلال الخصيب ، وعلى قوافل تسلبها أو تفرض عليها فدية ، ثم تعود إلى نجعها الذى يصعب الوصول إليه حاملة غنيمتها وهى تركض فى أقصى سرعة .

وكانت المنطقة الأكثر تعرضاً على الدوام لضربات قطاع الطرق فى الصحراء هى بلاد الكلدانيين وسوريا .

الكلدانيون والأشوريون

يعد الكلدانيون من الساميين الذين نجهل ماضيهم السحيق على الرغم من أحدث الكشوف ، ذلك أن سفر التكوين قد وضع مهد الإنسانية فى بلاد الكلدانيين فيما بين نهرى دجلة والفرات ، والأساطير الكلدانية غنية بالأحداث التى تسترجع بطريقة عجيبة قصة الطوفان ، وبرج بابل ، ومغامرات نوح وتشتت اليهود .

لم تكن هناك فروق رئيسية بين الشعبين الأشورى والكلدانى اللذين كانا يعيشان جنباً إلى جنب . وتكشف النصوص المسمارية أنه إذا كانت السيادة تراوحت طيلة ١٠٠٠ عام بين بابل ونينوى ، فإن الحضارة والطبائع واللغة والمعتقدات ظلت مشتركة بين الشعبين .

ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، اشتغل الذين استقروا فى بلاد الكلدانيين بالزراعة وبناء المدن . ومن أجل هذا أنشئوا أوروسيرتلا وبابل . وإذ كانوا يمتازون بالنشاط والمهارة فقد شقوا قنوات وأقاموا سدوداً على طول الأنهار وأصلحوا الأرض وأعدوها للرى . وبمجرد أن أنجز الكلدانيون هذا العمل التمهيدى باشروا بعد ذلك استعمار المنطقة الجبلية ، وأسسوا مدن آشور ، وسنجسار ، وكلخ ، ونينوى ، وبعد أن أخضع المصريون فيما بعد بلادالكلدانيين إخضاعاً مؤقتاً ، هب الأشوريون ، وهم سكان الجبل الذين تدفقوا على الأقطار المجاورة ، يشددون من سيطرتهم على بقية الشرق .

وتتابعت خلال ألف سنة على هذه المنطقة الغزوات والخراب والمذابح بين كر المنتصرين وفر المغلوبين.هكذا بدأت الشعوب الشرقية تلك السلسلةالطويلة من الحروب التى يقتتل فيها الأخ مع أخيه والتى انقضت دون هوادة على هذا الجزء من العالم . وقد ظهر الميديون والأسكيذيون[1] والفرس بدورهم على مسرح هذه الأحداث . وكان

---

(١) قبائل همجية قديمة ؛ كان أكثرهم بدواً يقطنون الشمال الشرقى من أوربا ، والشمال الغربى من آسيا ، لقد جاء ذكرهم على لسان المؤرخ اليونانى هيرودوت، =

هـذا إذ ذاك سباقا إلى الأعمـال الوحشية . وكانت قد سيطرت سلفاً البراعة والتفنن والمبالغـة في التدمير على إنسانية يافعة . فـلم يبق من سوسا ونينوى وبابل التي غرقت في الدم والنار عـدة مرات ثم أعيد بناؤها ودمرت من جديد ، لم يبق منها غير أطـلال لا تدل على شيء .

وصفوة القول أن لاشيء يستحق الذكر أو يستوقف النظر من ذلك العصر ، غير اسم بختنصر الذى دمر دون شك أورشليم ، لـكن اسمه سيظل مع ذلك دليلا على أنه ملشيء عظيم ، وسيخلف وراءه آثاراً من نشاطه العمرانى .

بقى أن نتحدث في بضعة أسطر عن منزلة هذه الحضارة الناشئة .

كان الجيش والطبقة الـكهنوتية يشغلان مكاناً مرموقاً في هـذه الأمم التى كانت لا تزال في مرحلة التنظيم ، ثم يأتى بعد ذلك الـكتّـاب الذين كان يعهد إليهم بالمناصب الإدارية . وكان الاشتغال بالزراعة والتجارة يعد شرفا في منطقة تجود عليهـا الطبيعة وتمتاز بموقعها الجغرافى . وكان لا بد أن تنشأ في هذه المنطقة كذلك صناعـة الأقشة والسجاد والأثاث ، والجلود ، والأسلحة التى بلغت في مدة وجيزة ، درجة عظيمة من الترف . وانتشر التعليم بدرجة سريعة عند الـكلدانيين والأشوريين الذين كانوا بعامة يعرفون القراءة والـكتابة . وقد وجدت النصوص المـكشوفة مكتوبة على ألواح من الخشب والجلد والآجر ، كما نسخت قبل ذلك على ورق البردى .

ولقد درست هذه الشعوب ، وهى شعوب تواقة لاستكناه أمور السماء والعالم العلوى ، علم الفلك . واخترعوا وهم حسبة مهرة نظاماً للقياس ونحن مدينون لهـؤلاء المبتـكرين بتقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وتقسيم السنة إلى أشهر وأسابيع وأيام وساعات ودقائق وثوان .

= غزوا بلاد ما بين النهرين في القرن السابع قبل الميـلاد ، وانتصروا على قورش ، وقهروا دارا في عام ٥١٣ ق م ، ثم اختفوا من التاريخ حوالى القرن الأول الميلادى ، ولقد عثر الحفارون منذ سنوات قريبة على أثر لأحد الملوك الاسكيذيين على مقربة من مدينة « سا كيز » في جنوبى بحيرة أورميا في الـكردستان . (المترجم)

كانت الفكرة الدينية عند هذه الشعوب القديمة لا تزال مبهمة . ففي الوقت الذي كان السلطان فيه في يد الملوك ، كان أيضاً في يد كبار رجال الدين ، وكانت آلهتهم لا يحصيها العد . وكانت العقول مضطربة بسبب ما توحي به خرافة القوى الخفية الشريرة من رعب وفزع . كما أنه كان للساحر والراقي قدرة على إدخال الذعر على أشد الناس قوة. ومهما يكن من غرابة في انتشار هذه الخرافات ؛ فإن الأكثر غرابة أن تحيا هذه الخرافات على مر الأيام وتلتقل حتى تصل إلينا . وفي الحق أن سر الطبيعة وقواها الخفية مازالا يستميلان الفكر البشري .

ومهما يكن من أمر ذلك ، وعلى الرغم من تقلبات مصير الكلدانيين والأشوريين ، فقد شغلوا مكاناً مرموقاً في أصول الحضارة . وقد وضعوا أسس المبادىء الأولى للتنظيم الاجتماعي ، ولكن ظهر أن هذه المحاولة كانت شاقة وعسيرة .

صحيح أنه لم يبق شيء بعد من حضارتهم الأولية ، لكن عناصرها التي نشرتها هذه الشعوب تفرقت في أنحاء العالم ، حتى ليحق للمرء أن يقول إن «الرياح حملت بذوراً أخرى كثيرة غير الحبة المقدسة من القمح لتنثرها على أراضي الغرب» من هذه القرى الخصبة التي ذهب العرف إلى أنها مكان جنة عدن . ولا نتجاوز الواقع إذا أضفنا إلى ذلك أن « هذين الشعبين بذرا في الأمم الخاملة أيضاً بذور جميع الفنون المفيدة وبواعث الفكر » .

الفرس

كان أثر الفرس أعمق في هذه المجموعة من الشعوب وهذه البدايات من الحضارات. وكانت الأمبراطورية الفارسية تمتد من نهر دجلة إلى الهند ، ومن بحر قزوين إلى المحيط الهندي على هضبة شاسعة منفصلة عن البلاد المجاورة بوساطة مدرجات عالية ، ووسط الهضبة التي يوجد فيها بعض الواحات القليلة المنتشرة التي تتميز بطبيعة صحراوية بينما يهبط جنوبيها على شاطىء شديد الحرارة غير صحي .

وهناك عدد وافر من القرى والمدن المنشأة على شواطىء عدد كبير من الأنهار التي تروي ودياناً خصبة كانت تتوارى حول الهضبة وفي متعرجات منطقة التلال . وظلت الحياة ووفرة الأقوات مركزتين في هذا الموضع الذي كانت ترعى فيه قطعان الغنم ،

والذى استطاعت الحبوب فيه أن تنمو بسرعة فائقة ، على حين كانت هناك حدائق غناء تثمر فواكه لذيذة الطعم . وكانت الضرائب فى هذه الأرض الخصبة أقل عبئاً منها فى الامبراطورية الرومانية ، ومع ذلك كانت الخزانة الفارسية أكثر ثراء من خزانة الأباطرة . ومن أجل ذلك أفضى كمال هذا الجهاز الإدارى إلى أن يأخذ به العرب منذ انتصارهم على الفرس دون تغيير .

وتاريخ بلاد فارس خاضع كذلك لموقعها الجغرافى الذى حملها على الدفاع عن نفسها دفاعاً مستمراً . فمن جهة آسيا ضد العصابات البربرية ، ومن جهة أوروبا ضد الاغريق والرومان . وفى القرن السادس قبل الميلاد كان ملكها قورش[1] قد فتح العالم القديم وفى القرن التالى اجتاز دارا[2] سيد الشرق فى ذلك الزمان البوسفور وتوغل غرباً حتى عبر الدانوب . لكن بعد موت دارا انهزم ابنه اكسركسيس فى سلامين ، وفى مدينة بلاتيه[3] ، وسقط خلفاؤه تحت ضربات الاسكندر فى سنة ٣٣٠ . ثم إن ماقامت به فارس من حروب مستمرة ، ومعارك وجب أن تخوضها مع الرومان ، إلى جانب ألوان النزاع الداخلى فى بلادها ، كل ذلك أسرع بها إلى الفوضى .

لهذا السبب ، استطاع الحاكم العربى فى سوريا سنة ٦٣٤ أن يشير على الخليفة عمر بأن هذه الامبراطورية ثمرة يسهل غزوها . هذا وقد خلف الفرس تراثاً عظيما للحضارات المتتابعة .

---

(١) مؤسس الامبراطورية الفارسية (٥٦٠ — ٥٢٩ ق . م) ، هزم ملك الميديين ، واستولى على ليديا فى آسيا الصغرى ، وبابل ، وبذلك أصبح حاكم آسيا الغربية كلها ، واستمرت امبراطوريته قرنين من الزمان . (المترجم)

(٢) ملك الفرس من عام ٥٢١ إلى عام ٤٨٦ ق . م ، غزا الهند ، وأخضع تحت سلطانه إقليمى طراقيا ومقدونيا ، لكنه هزم على أيدى اليونانيين . (المترجم)

(٣) مدينة قديمة من مدن مقاطعة بثوسى فى بلاد اليونان القديمة ، تقع على المنحدر الشمالى لجبل سيتيرون ، شهيرة بالموقعة التى انهزم فيها الفرس على أيدى اليونانيين . (المترجم)

كان دين الفرس من أنقى الأديان فى العصور القديمة ، بشر به زرادشت فى الأفستا قبل الميلاد بزمن طويل ، وجاء فى ذلك الكتاب أن العالم من خلق إله قادر وحكيم خيّر ، ولكن روح الشر نازعت باستمرار ملكوته وقامت على أساس هذا الدين أخلاق تستحق الإعجاب لسموها ، أخلاق تأمر الإنسان أن يفعل الخير فى كل مناسبة ، كما تمجد العمل وتكرم الأسرة ، وتنادى بالمساواة بين الناس .

وقد ترعرعت الفنون والآداب والعلوم فى ظل الساسانيين الذين تولوا رعايتها رعاية مستنيرة وكانوا سعداء بنشر الفنون . وفى ظل حكمهم بنيت فى برسبوليس وسوسا قصور لا مثيل لها فى الترف لا تزال آثارها شاهدة عليها . وتدل الرسوم والنقوش البارزة المنحوتة فى الصخور على عبقرية ملحوظة فى الفن كما تدل على الأصالة ، ومن بين الفنون التكنيكية التى بلغت درجة عالية من الكمال صناعة الخزف . وقد احتفظت الأوانى الفارسية على الرغم من مرور زمن طويل عليها بألوان وبهاء يفوقان الخيال . وكذلك تعد الأقمشة والسجاجيد الساسانية أثمن المنسوجات فى العالم . ثم نشأت بعد الفتح الإسلامى نهضة فارسية بارعة بتأثير العرب القوى :

المصريون

فى غرب العالم القديم ، كانت الحضارة المصرية تتطور بانتظام وبدون جهد بفضل عزلة هذا القطر . وعلى حين ظلت بقية سكان الكرة الأرضية غارقة فى البربرية ، كانت شواطىء النيل ترعى « ملكية قوية مستندة إلى تنظيم رائع » . وعلى رأس المراتب الاجتماعية كان يحكم فرعون وهو ظل الله فى الأرض ، ويتلو فرعون الكهنة والجيش ويشكلان الصفوة الحاكمة . ثم يأتى بعد ذلك الكتّاب وموظفو الدولة المكلفون شغل الوظائف الإدارية . وأخيراً نجد الشعب الذى يضم التجار والعمال مقسمين طوائف والفلاحين المرتبطين بالأرض الزراعية .

كانت طبائع المصريين حميدة وحياتهم يملؤها الود والبهجة والتسامح حتى مع الأرقاء . وكانت قوانينهم المدنية حكيمة تخضع العلاقات بين الأفراد إلى قانون العقود . وكانت تمتد آثار لاحصر لها غرباً على طول السلسلة الليبية من أجل الحياة الآخرة . هذه الآثار ربعة الشكل منخفضة متكتلة على غرار هذه السلسلة . وأمكن الفن الدينى

وكذلك الفنون الزخرفية والصناعة المليئة بالواقعية والصدق أن تبلغ رشاقة وكمالا يتيح للفن الحديث أن يستلهم فى هذه الآثار رشاقته وكماله .

وانتهت الغزوات النادرة التى اقتحمت برزخ السويس مثل غزو الهكسوس وغزوة الأشوريين إلى الامتصاص والذوبان . وكتب لمصر تحت حكم البطالسة ، وبخاصة الاسكندرية أن تظفر بحياة فكرية قوية . وعلى الرغم من الفتح الرومانى الذى حمل إلى مصر ضربات شديدة الوقع ، فإن تقدم مصر كان مقدراً عليه فى مجموعه ، أن يهيىء هذا البلد لدور قيادى فى العالم الإسلامى .

الفينيقيون

على حين كانت بلاد فارس وبلاد الكلدانيين ومصر دولا تقع فى الغرب من آسيا ، فإن فينيقية — وهى شريط ضيق من الأرض يقع بين لبنان والبحر — كانت امبراطورية بحرية . ومع ذلك فإن شاطئها ردىء وغير متعرج وخال من مصبات الأنهار ، ومن المرافىء ، ومن الموانى الطبيعية . وفى الحق أن الوسائل الضرورية لأية حياة بحرية لا وجود لها فى فينيقية ، وقد يكون فى خلق مثل هذه الوسائل بطريقة مصنوعة ما يتنافى مع العقل السليم لولا أنها نشأت عن حاجة ملحة .

هذا ولأن المنفذين المحيطين بفينيقية من الشمال والجنوب — وهما الطريقان الوحيدان لدخول آسيا — لم تكن فينيقية مستقلة عن الأقاليم الداخلية من ورائها وكان لها من مرافئها الحصينة وأسطولها البحرى ما أمكنها أن تفرض نفسها على مدخل هذه المضايق وعلى طول هذا الشاطىء وعلى الطريق الذى تتبعه الجيوش دائماً فى اتجاه أو فى آخر . هذا الطريق الذى ظل حتى أيامنا هذه أكبر طريق دولى . وهناك عند مصب نهر الكلب ، قريباً من طرابلس كتابات هيروغليفية وأخرى منقوشة على المبانى ، ونصوص لاتينية وإغريقية محفورة فى صخور على الشاطىء تحكى أبداً ذلك العبور الظافر لرمسيس الثانى ولستة ملوك أشوريين ولجيوش إغريقية وكتائب رومانية .

ولعل الفينيقيين كانوا بحارة لأنهم لم يكن لديهم منفذ آخر غير البحر ، عندما كانوا محاصرون فى الجبال وسواء أكان هذا بحكم الضرورة أم على سبيل الهواية فإن المعروف عنهم أنهم كانوا بحارة مهرة ومفاوضين من الطراز الأول . ومن ثم ، فقد أسسوا أضخم

قوة بحرية وتجارية فى العصور القديمة فسقط حوض البحر المتوسط ، والبحر الأسود ، والبحر الأحمر بين أيديهم . ولما كانوا أول من مارسوا الملاحة البحرية بين الشعوب ، فقد داروا حول إفريقيا ورأوا « الشمس عن يمينهم » وهذا ما بدا لهيرودوت وهو غير معقول ، لكنه يؤكد صحة الرحلة . واختفت مع ذلك امبراطوريتهم بعد تدمير طروادة[1] وصيدا ، وصور وقرطاجنة التى لم يبق منها غير أطلال مشوهة .

لم يكن عند الفينيقيين فن أصيل . فقد كانت نزعات مواهبهم تجارية ، ومما كان مثار دهشة كبيرة لحرفائهم البرابرة معرفتهم المحافظة على عرض أمين لجميع أعمالهم التجارية بوساطة توالبف من الرموز تمثل مخارج الصوت . وكان هذا هو النواة الأولى للحروف الأبجدية .

ويقتضينا الانصاف أن نعترف للفينيقيين باستحداث طريقة ماهرة فى تبسيط الأعمال التجارية بوساطة اختراع قطع معدنية تحمل علامة كبار التجار وذلك فى عصر كان الانسان لا يمارس فيه غير المقايضة ولا يتبادل بضاعة إلا ببضاعة أخرى . وقد خطت حضارتهم خطوة حاسمة بفضل عبقريتهم التجارية ، واختراع النقد (العملة)

الاغريق والرومان

قد لا يكون هذا السرد المختصر لشعوب الشرق مكتملا ، لو أغفل هذا السرد ذكر ما قام به على التوالى الاغريق والرومان الذين كان عليهم القيام بعبء إنشاء الروابط الأولى بين الشرق والغرب .

فى سنة ٣١٢ قبل الميلاد أسس الاغريق فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة العربية مملكة سلوقيا ، ونشروا فيها الثقافة والحضارة اليونانيتين وخضعوا بدورهم لتأثير الفكر

---

(١) لم يفرق هيرودوت فى كتابه « التاريخ » بين الطرواديين والفينيقيين .

والتقاليد وعبقرية الحضارات السابقة من سومرية ومصرية وإيجية وحيثية وكلدانية ، كما تشهد بذلك الأشياء التي يجدها المرء في أثناء التنقيب عن الآثار . وذلك أنه قد ظهر بوضوح في سوريا إلى أقصى حد اندماج جميع هذه الظواهر لعبقرية شعوب الشرق . وتقدم انطاكية والسويداء واللاذقية يوماً بعد يوم الى أيدى الباحثين ، عجائب هي في نهاية الأمر ذات طابع سوري . . هـذا النمط أخذ ينضم بعد زمن قليـل إلى تراث الحضارة العربية .

لقد رحل الاسكندر الأكبر (٣٥٦ — ٣٢٣ قبل الميلاد) الذي عين قائداً عاماً لقوات الجيوش الاغريقية لغزو الشرق وتحت قيـادته ٣٥٠٠٠ ألف جنـدى منهم ٥٠٠٠ فارس ، وقد استطاع الانتصار على قوات تفوق عـدد قواته بعشرين أو ثلاثين مرة في نهر جرانيك وفى مدينة اكسوس وفى مدينة اربل ، وأخضعت بسرعة هـذه العبقرية المحاربة آسيا كلها حتى تركستان والسند فيما بين عامى ٣٣٥ ، ٣٢٣ ، ولكن في اللحظة التي كان يحـلم فيها بجمع الفرس والاغريق وهما الخصمان اللدودان في وطن واحد ، فاجأه الموت في الثالثة والثلاثين من عمره .

كان الاسكندر بالنسبة للشرق بداية المرحـلة الهلنستية التي مارست تأثيرها العميق طيلة ألف سنـة وأكثر . وكانت اليونانية حينئذ هي اللغة الرسمية ، ثم صبغت المدن الشرقية بالصبغة اليونانية . واصبحت الاسـكندرية وانطاكية وسلوقيا أمصاراً عظيمة ومراكز لحركة تجـارية شديدة . وامتد الفـكر المتسامح والشـكى للحضارة اليونانية حتى بلغ الأرض المقدسة في مملـكة يهوذا .

بيد أن الاندماج الذى حـلم به الاسـكندر يوماً ما لم يكتمل ، ولم تستطع الحضارة اليونانية المحصورة في المـدن أن تستقر في القرى . وظلت هاتان الحضارتان متقابلتين وجهاً لوجه ، ثابتتين ومتميزتين ، ففي سوريا كانت سلوقيا وانطاكية تـكونان ولايتين منعزلتين ومتعـاديتين . وفى مصر كان مواطنو وادى النيـل يعارضون يونانى الاسـكندرية . وارتأى الرومان أن الساعـة قد حانت للتدخـل في الشرق من جانبهم .

إن الفتـح الذى بدأه سيبيو الأفريقي سـنة ١٨٩ قد أكمله بومبي في سنة ٦٣ .

وقد كان نصيب الامبراطورية الرومانية فى التأثير على الشرق ضعيفاً لأن كل ما حظيت به واجهة إدارية سطحية ، وظلت الأفكار مقتبسة من الثقافة اليونانية . وقد غالت روما فى احتفاظها بغربيتها أكثر من اليونان فلم تستطع أن تتفهم الشرق ويفهمها الشرق . ولعل الامبراطورية الرومانية نجحت فقط فى إمهال تطور الحضارة اليونانية وبذلك تكون قد ساعدت على إخفاقها الذى سيكون إخفاقاً تاماً أمام ظهور الإسلام .

(٣)

المصادر المادية والأدبية

كان العبرانيون أقرب الجيران للعرب كما كانوا أقرب أقربائهم من ناحية الجنس ، وقد روى تاريخهم فى سفر التكوين واندمج مع التاريخ الأسطورى للانسانية .

وعند ما أقبلت القبائل العبرانية من الجزيرة العربية — مثل جميع الطوائف السامية — أقامت أولا فى بلاد الكلدانيين حول أور التى كانت ترعى فيها قطعانهم ثم صعدوا تحت قيادة ابراهيم ، مجرى الفرات حتى منعطفه ، وساروا حتى وصلوا شواطىء نهر الأردن وهم متجهون على الدوام نحو الغرب. هذا الطريق هو الذى يدور حول صحراء سوريا ، وهو أقصر طريق يؤدى من بلاد الكلدانيين إلى مصر ، وهو الطريق الذى اتبعته الهجرات والجيوش الفاتحة . وحوض نهر الأردن هو الأرض « الموعودة » أكثر من مرة وهى بلاد كنعان التى أصبحت فيما بعد مملكة يهودا ثم فلسطين . وكان هذا البلد أرضاً جدباء بالنسبة لشعب راع . وقد ترك عليها ابراهيم ابن أخيه لوط ، ثم تابع السير حتى بلغ مصر .

ووفقاً لما ورد فى التوراة ، كان لابراهيم ولدان : اسحق الذى خرجت منه الاثنتا عشرة قبيلة لاسرائيل ، واسماعيل أبو الأرومة العربية التى جعلها محمد صلى الله عليه وسلم أصلا لنسب العرب .

عند ما تكاثر عدد اليهود بمصر أخذوا فى الخروج نحو « الأرض الموعودة » وسار الشعب العبرانى بقيادة موسى تائهاً زمناً طويلا عبر المناطق الصحراوية للجزيرة العربية من صحراء النفود تصادفهم فى أثناء ذلك معارك مع القبائل البدوية المستوطنة . وفى سفح جبل سيناء ، منح موسى اليهود «ألواح العهد» ثم الشريعة التى حكمتهم قروناً عدة . ولم تستطع القبائل اليهودية والقبائل البدوية فى المناطق الصحراوية أن تتجنب الصدام بعضها ببعض . ويقال إن موسى كان سيتزوج ابنة كاهن من نسل الأرباب فى أرض مدين ، وهذا الرب المسمى يعقوب لم يكن سوى الذى أطلق عليه العبرانيون اسم يَهْوَه ، بيد أن مدين تحاذى الحجاز التى كانت قد جمعت فيها القبائل البدوية أوثانها.

وهكذا ، تمت المبادلات بين قوم رحل وبين بدو من أصل واحد ومن بلاد مجاورة .

ومن جهة أخرى خرج العبرانيون مع ابراهيم من بلاد الكلدانيين ، ومع موسى من مصر . ولم يكن هذا الخروج هذه المرة بين جيران مارسوا التأثيرات المتبادلة فيما بينهم فحسب ، بل كانت كذلك من أقصى طرف فى العالم الشرقى إلى الطرف الآخر .

إن مفهوم الإله الواحد الذى أشاعه اليهود ، وتبادل الأفكار ، كان لهما الفضل شيئاً فشيئاً فى تغلغل اليهود ، حتى إن العرب أنفسهم — على الرغم من عزلتهم وانطلاقتهم الجامحة لم يستطيعوا أن يفلتوا من هذا التأثير . وعند ما أقبلوا فيما بعد على توحيد الشرق فى ظل إيمانهم الدينى والسياسى ، وجدوا الأرض ممهدة .

وكانت ثمة أمجاد أخرى تنتظرهم . .

وإذا تذكرنا أن الفينيقيين وهؤلاء الكنعانيين سكان الشاطىء كانوا قد أخضعوا مع قرطاجنة شمال أفريقية وأسبانيا اتضح لنا سرعة غزوهم لهذه البلاد .

إن التغلغل الحتمى الذى هو ثمرة للموقع الجغرافى ، والعنصر العربى والعنصر اليهودي من قبل الإسلام بوقت طويل إنما هو نتيجة عنصرية . وهذا التغلغل يجلو كثيراً من الحقائق التاريخية القليلة الأهمية إن لم تكن أسطورية . فالملوك الذين تحدث عنهم ارميا(١) ربما كانوا بعض شيوخ الجزيرة العربية الشمالية ، وسالومى التى خلدها كتاب « نشيد الأناشيد » أميرة عربية من قبيلة خيضر ، وأيوب ، مؤلف أجمل شعر سامى عربى . بل لعل « حكماء الشرق » الذين اهتدوا بالنجم حتى أورشليم ، لم يكونوا غير رؤساء بدو لا كهنة قادمين من فارس البعيدة . وهكذا نرى أنه من اليسير تتبع مثل هذه الموافقات مع تلك الواردة فى التوراة .

---

(١) أحد أربعة أنبياء من بنى اسرائيل ظهروا فيما بين سنتى ٦٥٠ ، ٩٣٠ تقريباً قبل الميلاد . (المترجم)

لقد وحدت الديانة اليهودية فلسطين فى « دولة كهنوتية » ، وكانت قد اصطبغت الارستقراطية الدينية بعض الشىء بالصبغة اليونانية تدريجاً تحت ظل حكام متسامحين كالبطالة وبعض السلوقيين ، وزعم بعض المؤرخين أن تيتوس[1] قضى فيما بعد على الشكل القديم لليهودية بتدميره أورشليم ، وخلق بذلك شكلها الجديد على الرغم منه بغير شك . لكن هجرات الماضى التى لم يكن الإكراه باعثاً عليها دائماً كانت قد رسمت الخطوط الكبرى لمصير اليهودية المشتتة .

بيد أنه عند ما تفرق اليهود ، لم تعد الديانة اليهودية شرقية خالصة لأن روما قد استبعدت هذا المثال الشرقى للفكر الدينى .

لقد تساءل الناس عن كراهية اليهود للرومان ألا تشكل الانعكاس العميق لشعور الشرق تجاه الامبراطورية . ومن الواضح أن ضمائر الشرقيين وكذلك ضمائر اليهود لم يكن فى الاستطاعة أن تناصر عقيدة الامبراطور أو الوثنية ولم تجد تلك الضمائر كذلك ما يشبع تطلعاتها الغامضة فى المسيحية التى لم تستطع أن تظل حبيسة مهدها فى الشرق . وعند ما انطلقت المسيحية إلى غزو الجموع الشعبية للامبراطورية ، وبعد أن صبغت نفسها بقوة بالصبغة الغربية ، هزت الأمبراطورية من أساسها . وعند ما أصبحت المسيحية فى نهاية تطورها العقيدة الرسمية للرومان ، لم يعد فى استطاعة الشرق معرفة نفسه فى هذا الدين الذى كان قد رحل من وطنه ، ويلاحظ ذلك بوضوح عند ما أمر الملك شابور الساسانى فى سنة ٣٤١ بذبح مسيحيى مملكته فى نفس الوقت الذى كانت فيه المسيحية معترفاً بها على أنها عقيدة رسمية لبلاد اليونان وروما . وهما عدوتان من قديم الزمان لبلاد فارس ، وهكذا فإن كلا من اليهودية والمسيحية قد طردتا بصورة من الصور من الشرق . وإذا كان رينان قد استطاع حقاً أن يسخر من « عدم كفاية رجال الغرب الدينية » فإن المدافعين عن الأديان الجديدة فى هذا القطر لم يستكينوا إلى اليأس طيلة القرون الأولى من عصرنا الميلادى ، ومن جهة أخرى فإن الغريزة الدينية فى الشرق لا يمكن إنكارها .

---

(١) ابن الامبراطور فيسباسيان ، تولى حكم روما بعد أبيه من سنة ٧٩ إلى ٨١ م . (المترجم)

هذه الحال الذهنية وهذا الاستعداد للتأمل الميتافيزيقى لا يمكن تصورهما بغير حدود أو بغير إفراط ، ذلك أن انطواء نفوس الشرقيين على القلق ظل تربة صالحة لهرطقات فى وسعها أن تثمر علماء روحانيين كباراً على غرار صانعى المعجزات المتعصبين الذين يستميلون معهم جموعاً من المرتدين ومن طلاب التعميد . أنه لإغراء لا يدوم طويلا : فالمانوية التى هى مثال على ذلك ، كان لها شهداء لم ينبت دمهم أى فوز مثمر . ومانى الذى أعلن أنه رسول إلهى ومحب للسلام وتابع لمذهب التصوف ، صلبه المجوسيون المجاهدون والقوميون . وفى فورة الهرطقات ، من ذا الذى لا يتذكر دين مترا وهو يمثل النور الإلهى ، وإله الشمس الشمسى عند البارتيين[1] وفى القرن الثالث ، انتصر دين مترا على الامبراطورية ، وبلاد اليونان الآسيوية ، ثم انهار أخيراً أمام المسيحية .

من الضرورى بلا شك أن نهيىء مكاناً على حدة لجوليان المرتد[2] الذى وضع الجيش الرومانى فى خدمة نزعاته الصوفية . وعند ما غلب على أمره كذلك ، أورد مؤرخو حياته أنه عند ما سقط تحت أسوار المدائن ، لم تكن كلماته الأخيرة موجهة ضد الفرس — خصومه — بل كانت موجهة إلى المسيح : « إنك انتصرت ، أيها السيد المسيح » .

إذن ، لقد جاء اليوم الذى لم يعد فيه الشرق الذى كان يحكم حكماً إلهياً يملك روحانية على طريقته . وفى ربوع الشرق التى فيها العاطفة المسيطرة هى الدين الذى يملأ الروح

---

(١) قبائل الاسكندين القدماء ، أقاموا فى الجنوب من مقاطعة هيركانيا التى تقع فى الجنوب والجنوب الشرقى من بحر قزوين ، قد أخذوا عن الفرس لغتهم وحضارتهم ، فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وشنوا حرباً ضد السلوقيين ، وأقاموا أحد حكامهم ويطلق عليه ارسكيس فى عام ٢٥٥ ق . م مملكة قوية استمرت حتى عام ٢٢٦ بعد الميلاد . وبعد عام ٢٢٦ ، ضمت هذه المملكة إلى امبراطورية الساسانيين الفارسية الجديدة ، وكان يطلق على عاصمتهم اسم بارتيا وهى الاسم القديم لمدينة خوراسان . (المترجم)

(٢) امبراطور رومانى حكم من ٣٣١ إلى ٣٦٣ ، ابن أخت قسطنطين ، نشأ مسيحياً ثم ألحد ، ومن هنا جاء اسمه المرتد . (المترجم)

ولا شيء غير الروح ، والذى لا يدع اهتمامه خارج شريعته الخاصة . . في هذا الشرق وجدت النفوس نفسها فجأة دون مثل أعلى "، ودون إيمان ، ودون قانون أخلاقى ، ودون وازع دينى أى أنها وجدت نفسها ضالة ، وهو موضوع لا بد من الإشارة إليه . لذا كانت الحياة العامة بأكملها غير منظمة . ولم يستطع أصحاب الإيمـان من الأولياء إعفاء أنفسهم من إيمان خاص بهم يستجيب للحاجات العميقة للروح الشعبية .

وفى الجزيرة العربية ، يبدو أن وثنية القبائل الموروثة عن الأجداد لم تعد تحقق ميول البدو التى كانت شديدة الغموض . وكانت الانتجاعات والقوافل بل الغزوات ، مناسبات للاتصال والتبادل مع أصحاب الأديان المنزلة . وكانت هذه المناسبات تسير بالعقول رويداً رويداً إلى وحدانية غامضة أيضاً ، من غير شك . لـكن كان لزاماً على هذه الوحدانية أن تتخذ شكلاً فى يوم ما . ومن الوجهة السياسية كانت الجزيرة العربية دائماً لا حياة فيها ومن غير قوانين . وظل الشرق غارقاً فى الفوضى بسبب انهيار الامبراطورية الرومانية ولم يعد هناك شيء يستطيع أن يسد الطريق أمام رئيس وطنى ودينى . وقد تحقق الجو المثالى لظهور دين جديد وامبراطورية جديدة .

أجل ، لقد دقت الساعة معلنة ظهور الإسلام . .

(٤)

محمـــد والقرآن

فى منتصف الطريق بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، كانت المحطة الرئيسية للقوافل التى كانت تحقق العلاقات التجارية بين الهند ومصر . كما كانت بداية ونهاية للحركة التجارية مع فلسطين وسوريا وكلديا . وكان التجار الأغنياء فى مكة أصحاب الكلمة العليا على سوق عكاظ مجتمع التجار والخطباء والشعراء والكهان كل عام . وكان من اختصاص هؤلاء التجار كذلك الاشراف على رسوم شعائر الحج التى كانت تدر دخولا كبيرة والتى كانت تمارس فى نفس المناسبة . وتتوقف المشاحنات والسرقات والحروب طوال أربعة أشهر حتى تتمكن القبائل والقوافل فى شبه الجزيرة العربية كلها من المشاركة فى هذه الأعياد . وكانت تعقد فى هذه الأسواق مباريات شعرية ، يتنافس فيها كبار شعراء القبائل ، ومن ثم كانت مسابقات عكاظ تتابع بكثير من الاهتمام ، وكان الشاعر الفائز يتردد اسمه فى جنبات الجزيرة كلها ، مما يرفع من قدر قبيلته . ولا يوجد قوم يحبون الشعر كما يحبه البدوى ، لأنه يتغنى فيه بالجمال والشجاعه والمتعة . وكان الأميون أنفسهم — كان الشعراء كلهم تقريبا على هذه الحال — ينتشون بالفصاحة وباللغة الجميلة . ولذا ، كانت القافية والوزن تحدث فيهم سحراً صادقاً .

ومن وجهة النظر الدينية ، كان البدو لا يحترمون إلا بعض شعائر متعارف عليها أملاها استعداد غامض للتطبع بتقاليد القبيلة . وهذا يفسر لنا عبادتهم لعدد كبير من الآلهة أقاموها فى الكواكب كما أقاموها فى الأرض . فكان هناك الإله بعل الذى يمثل الشمس ، وعشتروت وهى فيض إلهى عن القمر ، وأدونيس لوتاموس إله كلديا ، أو حورس إله مصر أو مولوخ مردوك إله كلديا ، أو آمون إله مصر ، وكان خيالهم يملأ الصحراء بعوالم من الجن ، وهى كائنات بعضها يمت بصلة إلى الملائكة وبعضها إلى الشياطين بحسب مودتها أو عداوتها . ولم يكن يعنيهم إلا قليلا أمر الحياة الآخرة لأنها عندهم غير مؤكدة ، ولذلك كانوا يترددون عن خرافة أكثر مما كانوا يترددون عن إيمان على معابد شتى أرفعها مكانة معبد الكعبة فى مكة على بعد ثلاث مراحل قصيرة من سوق عكاظ الكبير .

اشتهرت الكعبة ، وهى معبد صغير ذو شكل تكعيبى ، بأن ابراهيم وولده اسماعيل ـ جدى جميع العرب ـ قاما ببنائها ، ويقال إن جبريل أحضر إلى اسماعيل وإلى أمه هاجر حين بقيا وحدهما ، حجراً ناصع البياض يسندان رأسيهما إليه ، ولما اسود لونه على مر الزمن بسبب آثام البشر أصبح « الحجر الأسود » . وقد ثبت فى أحد جدران هذا المبنى على ارتفاع ييسر تقبيله . وعلى بعد بضع خطوات من هناك ، فجر جبريل نبعاً عجيباً هو بئر زمزم الذى تشفى مياهه جميع المرضى .

وفى هذا المكان أيضاً حوالى منتصف القرن الخامس ، أسست قبيلة قريش وهى سادنة الكعبة [1] حول المعبد الأصلى مدينة مكة المكرمة . وكان الحجاز الذى بنيت فيه مكة يقر بوجود إله أكبر يتشفع به المرء فى الأخطار الشديدة . وهذا الإله المسيطر الأعلى لأصنام الوثنيين والجان ثم لهذه الأصنام الستين بعد الثلثمائة التى كان قد جمعها العرب فى صحن الكعبة هو الله تعالى ، إله اسماعيل وابراهيم وبنوع من التوفيق بين هذه العقيدة الخاصة بوحدانية غامضة وبين العقائد القديمة الخاصة بالوثنية التى كانت تعظم اللات والعزى ومناة ، أصبحت الكعبة مقر الآلهة وبيت الله . لذلك كانت قريش تقوم بخدمة الكعبة والإشراف على مواردها فى الوقت نفسه .

ولد محمد ﷺ بمكة فى الثلاثين من أبريل عام ٥٧١ ، وهو ينتمى إلى بنى هاشم من قبيلة قريش . وقد مات أبوه قبل أن يولد وماتت أمه وهو فى السادسة . وترك له والداه قطيعاً من الماعز وخمسة جمال ، وبيتاً وجارية اهتمت به ، وقامت على تربيته عند جده عبد المطلب ، ثم عند عمه أبى طالب وعلى الرغم من آلاف المؤلفات التى كتبت حول هذا الموضوع ، لا نملك كثيراً من الشواهد المؤكدة عن حياته طفلا أو شاباً . وكانت قبيلته تطلق عليه لقب الأمين ، ويطلق عليها القرآن لقب محمد الذى يعنى عظم الحمد والثناء عليه ، وتزوج محمد راعى الإبل وقائد قوافل التجارة وهو فى الخامسة والعشرين من خديجة ، الأرملة الذكية والثرية . فكانت زوجته الأولى . وكان محمد ربعة لا بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ، أدعج العينين ، سبط الشعر ، كث اللحية . وكان أمياً كمعظم رجال قبيلته ، لكنه كان متين البنيان ، ذكياً نشيطاً ،

---

(١) سادنة الكعبة = خادمتها (المترجم)

وكان فصيحاً فى التعبير عما فى نفسه ، وكانت شخصيته تأخذ بمجامع القلوب ، لما اشتهر عنه من أمانة ووفاء كما كان ذا إحساس نادر رفيع وهو الذى قدر له أن يكون فيما بعد النبي ﷺ . كان فى شبابه فتى حاد المزاج ، سريع التأثر والانفعال ، نهباً لشواغل[1] غامضة ، ذا ميل طبيعى للأحلام والنزعات الروحية . وعندما بلغ النبى ﷺ سن الرشد عرف كيف يكبح جماح نفسه وأن يستمر مسيطراً عليها وقد هيأه هذا التأمل الروحى وكلفه بالمثل العليا منذ صباه للاهتمام بالقضايا الدينية ، فكان يحلو له محادثة المسيحيين واليهود ، والحنفاء الذين كانوا يرفضون عبادة الأصنام وينكرون الخرافات التى لا سند لها . وقد أخذ الميل لدراسة القضايا الأزلية التى ملكت دائماً عليه فكره ولبه ينمو أيضاً حتى أصبح الإنسان المصطفى .

راح محمد ﷺ قبل الأمر بالبعثة يخلو بنفسه أكثر فأكثر باحثاً متأملا ولما يبلغ الأربعين ، فكان يعتكف كل عام فى أثناء شهر رمضان[2] فى غار حراء بالقرب من مكة لكى يفرغ للصيام والتأمل . وهناك ذات ليلة من سنة ٦١٠ نزل عليه جبريل قائلا له إنه « رسول الله » شدت هذه الدعوة من عزيمته فأعلن عن نفسه جهاراً فى السنوات التالية أنه نبى الله ، رب العرب[3] ، وكان اعتقاده خالصاً بأن عليه واجب قيادة الشعب العربى إلى الدين الحق وإلى أخلاق جديدة .

لكن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان يعيش فى جماعة تشتغل بالتجارة ، يعتمد

---

(١) الذى يعرف عنه أنه لم يكن حاد المزاج ولا سريع التأثير والانفعال وخاصة والله يصفه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، ويقول الله فى كتابه العزيز : إنك لعلى خلق عظيم » « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . (المترجم) .

(٢) الذى فى سيرة ابن هشام (جـ ١ ص ١٥٣) أنه كان « يجاور فى حراء من كل سنة شهراً » دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان فى السنة (التى بعث فيها ﷺ) (المترجم) .

(٣) هذا ما لا نوافق عليه المؤلف ولا يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم حيث يقول : « إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين » (المترجم) .

مدخلها الأساسي على النذور التي كانت تؤدى إلى أصنام الكعبة في أثناء الحج ، لذلك لم يلبث أصحاب السلطان القائم على الثروة أو الطبقة أن أخذوا ينظرون إليه على أنه منافس خطير يجب الوقوف في وجهه ، وكانوا لا يجسرون على محاسبته خوفاً من مشاحنات دامية لأن أفراد عشيرته حتى الثائرين على دعوته سيجدون أنفسهم ملزمين بالدفاع عنه وفاء لعاداتهم القديمة ، ولكنهم لم يكفوا عن اضطهاد أتباعه الأولين ، الذين نفد صبرهم وهاجروا إلى الحبشة ، البلد المسيحي .

بيد أنه على الرغم من الاضطهاد المستمر المؤلم ، وعلى الرغم من فقده خديجة زوجه التي كانت أول من ساندته وأخلصت له والتي فاضت روحها في سنة ٦١٩ ، وعلى الرغم من موت عمه أبي طالب الذي كان معيناً له أيضاً ، فإن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم ينكل ، بل مضى عبر الجزيرة العربية يدعو إلى الدين الجديد وكان كل يوم يضيف رواداً جدداً اعتنقوا الإسلام متأثرين بقوة اقتناع النبي وبلاغة عباراته . ومع هذا فقد كان موقفه يتهدد أكثر فأكثر . فعند ما رحل إلى الطائف وهي مدينة لاتهتم بإرضاء الطبقة الاستقراطية في مكة أو عدم رضائها ، طرد منها مشيعاً بقذف الأحجار . ولما شعر بالكراهية تعظم وتحيط به ، وعند ما علم من ناحية أخرى أن سيد قريش الجديد ، أبا سفيان قرر التخلص منه ، أدرك أنه لم يعد أمامه غير الهرب من مكة إذ أراد أن يتجنب أسوأ العواقب .

اتجه يومئذ إلى يثرب ، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ٤٠٫٠٠٠ نسمة ، وعلى بعد ٤٠٠ كيلومتر من شمال مكة ، والتي كان قد سبقه إليها بعض صحابته ، وكانت هذه المدينة تبدو بتوفيق من الله مهيأة لتفهمه واستقباله . وقد حدد هذا الحادث التاريخي الذي عرف باسم الهجرة بداية التاريخ الإسلامي (١٦ يوليو ٦٢٢) ويثرب التي استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يدعو فيها إلى دينه الجديد بكامل حريته ، سُمِّيَتْ بـ « المدينة » أي مدينة النبي .

لكن الصعاب لم تنقطع . .

وأمام اهتمامه والتزامه بإطعام سكان المدينة التي كانت فريسة للقحط ، أدرك محمد وقتئذ ضرورة العمل ، ودون تردد ، أخضع قافلة تتجه من سوريا صوب مكة ، ثم مضى

بعد ذلك إلى غزو قريش ، وألحق بهم هزيمة دامية فى بدر ورجع إلى المدينة محملا بالزاد والغنائم .

قد كان هذا العمل بمثابة نقطة انطلاق لسلطانه الزمنى . فقد قاتل الإسلام وكسب معركته الأولى بطليعة من ثلثمائة رجل ، كلهم نشاط بسبب جرأتهم وثقتهم فى مقدرات الدين الجديد . ولقد أدرك محمد (صلى الله عليه وسلم) الضرورة الملحة فى نشر الإسلام والدفاع عنه عن طريق سيادة السلاح ، وسيادة العقيدة متشجعاً بسبب نجاح تلك المظاهرة من القوة . ومن الآن فصاعدا أصبح الرسول رجل دولة ، ويجمع كل أسباب السيطرة داخل جماعة المسلمين .

ولما استمد النبى (صلى الله عليه وسلم) من المضايقات التى كانت تدبر ضده حقائق انسانية ، طرد وقتئذ من المدينة دون شفقة اليهود الذين كانوا يكيدون له ، وأعلن أن الإسلام سيبقى الدين الوحيد للدولة التى أقام أسسها ، وكانت قوة رد الفعل قاسية النتائج. فقد تشكلت ضده متحالفة القبائل اليهودية والعربية وزحفت لمحاصرة المدينة (سنة ٦٢٧) ، فحشد النبى (صلى الله عليه وسلم) كل أنصاره وأمرهم بحفر خندق حول المدينة المحاصرة ، وأكره أعداءه المقهورين على رفع الحصار ومضى بعزم يرد هجمات الأعداء ، وأحرز انتصاراً جديداً على يهود بنى قريظة الذين كانوا قد ساعدوا قريشاً . وقد سلك معهم مسلكا يدل مرة أخرى على عظيم خلقه ، ذلك أنه منحهم حق الاختيار بين الإسلام أو السيف . وانتهت المرحلة الحرجة ، وبعد عدة معارك انتصر فى غضونها محمد صلى الله عليه وسلم دون صعاب على أعدائه ، توقفت الحروب .

وعرف النبى (صلى الله عليه وسلم) عندئذ كيف يفاوض ببراعة ومن ثم ، عند ما توجه إلى مكة سنة ٦٢٨ على رأس ألفى جندى مدججين بالسلاح ، كف المشركون عن الاقدام على مهاجمته . وبعد ذلك بسنتين حطم أصنام الكعبة ، وعند ما تغلب نهائياً على جميع سكان مكة أذعنوا له بالولاء . ووصلت وفود من كل فج تقدم فروض الطاعة لسيد الأنبياء الذى أصبح فيما بعد سيد مكة المكرمة . وهكذا ، دانت الجزيرة العربية لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فى عام ٦٣١ ، ولم تكن قد خضعت أبداً لرجل واحد . وزالت دولة الوثنية فى الشرق على يد الإسلام الذى أصبح هو نفسه دولة .

فاضت روح النبي (صلى الله عليه وسلم) وعمره واحد وستون عاماً فى ٨ يونيه من سنة ٦٣٢ ، دون أن يدون بنفسه نصوص رسالته . وعند ما كان ينزل عليه الوحى كان يتلو أقوالا يسجلها صحابته المتيقظون على لفافات من الورق والرق وعلى صحائف من الحجر أو من العظم ، وسعف النخيل ، وغالباً ما كانوا يحفرونها فى ذاكرتهم ولقد مات ستمائة من هؤلاء الحفاظ فى معركة واحدة بعد سنة من وفاته . ولكن الباقين منهم جمعوا النصوص والروايات .

ثم عهد إلى زيد كاتب النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يدون مصحفاً رسمياً مجمعاً عليه ، وذلك بعد وفاة النبي بتسعة عشر عاماً . وقد راجع هذه النسخة التى حررها زيد ثلاثة من الثقات ، وأصبحت هذه النسخة « القرآن » أى « الكتاب » .

وقد أرسلت ثلاث نسخ من هذه المصاحف إلى دمشق والكوفة والبصرة التى حفظت فيها بعناية ، وليست شرعية هذا المصحف موضع شك حتى فى الأجزاء المروية من الذاكرة ، على الرغم من أن هذا الجمع هو فى الحق مجهود رجل واحد .

« والقرآن » مقسم إلى سور ، والسور إلى آيات ، وأقدم الآيات — وهى آيات مكة — قصيرة ، مثيرة ، ونبوية ، شعرية ، وروحانية . فهى تعالج القول بوحدانية الله وصفاته وما فرض من عقائد . أما الجزء المنزل فى المدينة فى وقت الانتصار فهو على العكس أكثر طولا وتفصيلا وذكراً للأحداث العملية . وموضوعات هذا الجزء هى العبادات والمعاملات من علم وطب . وفى بعض الآيات من العظمة والبلاغة ما يأخذ بالألباب ويستهوى القلوب . والذى يهمنا أن نسجله هنا هو أن « القرآن » بالنسبة للمسلمين « غير مخلوق » فهو كلام الله ، والهادى الذى لا يحيد عن القصد ، ودعامة الدين ، وخلاصة كل معرفة ، ومصدر كل سلطان ، ومبدأ كل إدارة والأساس الوحيد للحياة الشرعية .

لم يوجد مؤلف فى النثر باللغة العربية قبل « القرآن » فهو أقدم كتاب عربى نثراً ، ولا نزاع أنه أروع الأدب العربى . ولما كانت روعة « القرآن » فى أسلوبه

فقد كتب ليقرأ ويتلى بصوت عال . ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية . ويجب أن تقرأه فى لغته التى كتب بهـا لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته . ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سـحراً مؤثراً فى النفس حيث تزخر الأفـكار قوة وتتوهج الصور نضارة . فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحرى وسموه الروحى يسهمان فى إشعارنا بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان ملهماً بجلال الله وعظمته .

(٥)

الدين والفكر الاسلامى

الحديث :

القرآن يكمله الحديث الذى يعد سلسلة من الأقوال تتعلق بأعمال النبى وإرشاداته وفى الحديث ، يجد المرء ما كان يدور بخلد النبى صلى الله عليه وسلم ، العنصر الأساسى من سلوكه أمام الحقائق المتغيرة فى الحياة . هذه الأقوال أو هذه الأحاديث التى يشكل مجموعها السنة دونت مما روى عن « الصحابة » أو نقل عنهم مع التمحيص الشديد فى اختيارها وهكذا جمع عدد كثير من الأحاديث . والبخارى الذى يعد إماماً فى الحديث لم يصح عنده سوى عشرة آلاف من ثلثمائة ألف حديث . ولا تزال السنة هى التتمة التى لا غنى عنها للقرآن والتى يلجأ إليها المرء على مر الأيام عندما يواجه بمشكلة لم يقل فيها القرآن برأى قاطع ، فإذا لم يستطع القرآن أو السنة أن يقدما الإجابة المطلوبة ، يرجع حين ذاك إلى القياس أو اتفاق الجماعة ويسمى هذا الاتفاق « الاجماع » .

والكثرة الكاثرة من المسلمين سنيون . ومع ذلك فإن عدداً صغيراً منهم لا يقبل غير « الأحاديث » المروية عن آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهم الشيعة ، ولكى تطبق أحكام القرآن والسنة لا بد من شروح دقيقة . وهذا هو ما قامت به المذاهب والجماعات الدينية التى انتظمت علماء دينيين لهم مكانة مرموقة .

العقيدة :

تتلخص العقيدة الإسلامية فى إقامة البرهان على ثلاث : إثبات وجود إله واحد ، خالق العالم ، قادر على كل شىء ورحيم — ، ورسالة محمد والطابع الإلهى للقرآن — ، والبعث فى الآخرة والحساب فالواجب على المسلم أن يشهد بوحدانية الله فى كل مناسبة حتى الموت ، هذه الشهادة عقيدة أساسية ولا يجوز مساسها ، وتقابل هذه الوحدانية المنزهة الشرك بالله ، بل كذلك الثالوث المقدس . والقول برسالة الرسول جزء لا بد منه

فى بناء العقيدة عندما يقصد بها رسالة النبى صلى الله عليه وسلم المرسل من الله ، وكذلك القرآن وأنه كلام الله غير مخلوق وأن كل آية منه أوحى بها الله ، وهذه عقيدة لا تقبل المناقشة ، ويتضمن البعث ويوم الحساب أن تكون الأنفس خالدة ، وأنها إما سعيدة أو شقية وفقاً لأعمالها . وترتكز العقيدةالإسلامية وهى تتشابه فىذلك معالعهد الجديد فى الخوف من العقاب والأمل فى الثواب .

وكما فرض القرآن الإيمان بالملائكة والجن فرض أيضاً الإيمان بالأنبياء ، ومن بينهم المسيح عيسى بن مريم . الحق أن الفكرة العامة للدين الإسلامى تتلخص فى تعريف كلمة « إسلام » التى تعنى « إنكار الذات » كما تعنى كلمة « مسلم » أى « المطيع » ، وتدل هاتان الكلمتان على مدى ما توصف به من امتثال للارادة الإلهية ، وإيمان بقضاء الله .

العبادة :

العبادة فى الدين الإسلامى هى قبل كل شىء عبادة عملية خالصة من التعقيدات اللاهوتية أو الصوفية . والعبادات المفروضة خمس أطلق عليها «أركان الإسلام الخمس» « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا » .

ويتلخص الإيمان فى التأكيد بوحدانية الله ورسالة محمد فى قوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » وتسمى « الشهادة » وعندما تنطق بالعربية أمام شاهد فإنها تكفى للاعتراف بالانضواء تحت راية الإسلام . وهذه الصيغة يستشهد بها المسلم فى كل مرة تجعلها المناسبة ضرورية ، على المهود ، وعلى القبور ، وأمام المحن ، وفى مواجهة الخطر ، وكذلك فى وقت الدعوة إلى الصلاة .

والصلاة التى تؤدى خمس مرات فى اليوم هى أمر بالعبادة يمارس بحسب أحكام محددة حيث يولى المسلم وجهه تجاه مكة ، ثم يقرأ بعد وضوئه — أى لابد من أن يكون فى

حال طهارة — الشعائر الدينية باللغة العربية مهما تكن لغته الأصلية . وصلاة الجمعة في المسجد إجبارية بالنسبة لكل البالغين من الذكور ، وهي تقتضي تجمع « المسلمين » في صلاة يلقى الإمام قبلها خطبة مع دعاء باسم « رئيس الدولة » . وتشكل هذه الصلاة الجامعة نظاماً هاماً للبدوي الذي لا يقيم وزناً لشيء قدر ما يقيمه لحريته . وهذه الصلاة الجامعة هي في الامتثال لشريعة النبي (ﷺ) التي ارتضتها القبائل عن تضامن لم يكن معروفاً حتى ذلك الوقت وهو التضامن الذي أصبح مصدر قوتهم . من أجل ذلك فإنه قبل نشوب معركة القادسية التي انهزم فيها جيش الفرس قال القائد الفارسي الذي كان يرى — عن بعد — العرب يسجدون جماعة وقت الصلاة ، لحاشيته : « هذا عمر يعلم النظام » . .

كانت الزكاة قبل كل شيء عملا تعاونياً حراً وإدارياً ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى . وفي تنظيم جماعة « المدينة » اعتمد النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا العمل الخير كأنه ضريبة شرعية وإجبارية ربع[1] العشر لصالح الفقراء والمعوزين . وسيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين ، وبيت مال ، وخراج حاد عن هدفه . لكن إذا كانت الدولة قد صنعت من هذا العمل الخير مصدراً لمواردها ، فإن مبدأ الزكاة ظل — بفضل القرآن — فضيلة مارسها المسلمون تلقائياً بوصفه واجباً دينياً . وينبغي أن نزجي الثناء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان أول من شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء .

هكذا أوجد القرآن الرحمة الإجبارية[2] . .

---

(١) في الأصل الفرنسي العشر . (المترجم)

(٢) عبثاً يحاول المفكرون ، وعبثاً يحاول أصحاب الدراسات والنظريات إيجاد طريقة تؤمن للانسان حياة كريمة شريفة فلا يجدون سوى شريعة محمد عليه السلام لو نفذت بروحها ونصها وبواقعها لما بقي فقير على وجه الأرض أو محتاج . (المترجم)

الصيام

يحتفل الصائم بذكرى «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن،هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ...» ويجب على المسلم أن يمتنع عن الطعام والشراب أثناء شهر رمضان من الفجر حتى الغروب . ويمكن أن ينظر إلى هـذا التقشف الشديد على أنه عمل يقصد به وجه الله ونوع من التكفير عن الخطايا ، وبذلك يكون عمـلا توسلياً شاقاً أمام الله ، لكنه يهدف كذلك إلى تقوية الإلزام الاجتماعى وإلى إشعار المسلمين بتضامنهم وتماسكهم . وكثيراً ما يلجأ العـامة من المسلمين إلى تجريح أولئك الذين لا يحترمون هذه العادة .

وبالإضافة إلى الصلاة والصيام والزكاة ، شرع محمد (صلى الله عليه وسـلم) الحج إلى مكة على أنه واجب دينى . فيجب على كل مسلم ولو مرة واحدة على الأقل فى حيـاته إذا استطاع صحياً ومالياً أن يتوجه لزيارة الأماكن المقدسة وهـذا بلا شك بقية من عادات قديمة سامية . وكانت الكعبة والحجر الأسود يمثلان مكانة كبيرة بالنسبة للبدو ، وقد أبقت مناسك الحج على عادات الماضى . لذلك كان علينا أن ندرك مبلغ التأثير المتزايد لهذه التجمعات البشرية الضخمة التى يأتى إليها المسلمون من كل صوب وحدب ، للتآخى فى دين واحد .

الحرب المقدسة

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول فى بداية دعوته إنه لا إكراه فى الدين ... وأمهل الكافرين رويدا .. وفى ذلك الوقت ، أقر النبي (صلى الله عليه وسـلم) إلقاء السلام على اليهود والمسيحيين الذين كانوا يؤمنون بالله وكان لا ينبذ إلا عابدى الأصنام .. لكن ، هذه الطريقة التى يبدو فيها التسامح الجميل والمسالمة العظيمة لم تجتذب إلا قليلا من الأنصار ولم تستمر وقتاً طويلا . وفى الحق كان الاضطهاد كفيلا بأن يملأ روح محمد (صلى الله عليـه وسلم) بالمرارة ، لذا يتضح العنف الذى راح يلعن به المشركين « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » .

وهكذا وبالضرورة ، حدد هذا الرأى مشروعية الجهاد :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » .

وفسر كثير من المؤمنين هذا الكلام على أنه دعوة إلى الحرب وإلى أعمال السلب . ولكن النبى حرص على أن يحدد لهم أن « الله لايحب المعتدين »

بيد أن الخليفة القائم على أمر الدين والمدافع عنه فيما بعد ، كان عليه أن يوسع رقعة الاسلام ، كما جاء فى الكتاب والسنة من أن ذلك أول الواجبات . وسيصوغ هذا المفهوم الحركى للدين من الحرب المقدسة (الجهاد) الركن السادس من الاسلام

الدعائم الدينية

كان فى استطاعة الإسلام أن يستغنى عن أماكن العبادة ، وعن رجال الدين ، لأن الدين الإسلامى ليست له قرابين مقدسة ولا طقوس ، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين ، ومع ذلك فهو مزود بوفرة من المساجد ومن رجال الدين . ففى « المسجد » ينبض قلب الإسلام . وفى صحنه المغطى بالبسط الفاخرة وأحياناً بالحصر المتآكلة ، وفى أرجائه التى تضيئها بنورها الخافت مصابيح زجاجية متعددة الألوان ، يحس المرء إحساساً حياً أنه بحضرة الله . « الحق أنه لا شىء فى المسجد إلا البساطة » ويشير على وجه الدقة بتجويف بسيط جداً فى الحائط مزين بالفسيفساء ذى نمط فنى إلى المحراب وإلى الباب الرمزى فى اتجاه مكة ، ويترقب منبر متواضع من الخشب المنقوش ، الإمام وخطبته البليغة . ولكن كل شىء كذلك ذو جمال ، وبساطة وتجانس ، وتنطلق تجاه السماء أعمدة الأروقة الرشيقة من المآذن .

هكذا ، يبدو المسجد فكل المساجد خالية من العظمة المتشامخة للكاتدرائيات القوطية ومن فخامتها الصارخة .

وعلى الرغم من أن الإسلام لم يقر نظام الدرجات والمراتب الدينية ، فإن سلالة النبى (صلى الله عليه وسلم) الأشراف يمثلون قبل كل شىء فى أعلى ذروته ، وهذه السلالة التى تتمتع بتأثير سياسى ودينى ضخم ، هم أولياء عهد ، وذوو قداسة لهم مكانة مرموقة ، ويتلوهم العلماء ، وهم علماء مفسرون للشريعة ويدرسون فى الجامعات ، والمفتى المكلف المحافظة على أحكام القرآن والقاضى المدنى والدينى والإمام الذى يؤم الصلاة ويعظ الناس فى الجامع ، والشيوخ الذين ينظمون إدارة الجمعيات الخيرية الدينية .

إن أكبر الأعياد فى السنة وفقاً للقرآن ، هو العيد الكبير الذى يحتفل فيه بذكرى تضحية إبراهيم ، أبى جميع العرب ، ويشتمل على أربعة أيام من الطهارة ، ومن الصلوات، ومن الأفراح . أما العيد الصغير فإنه يختتم شهر رمضان ، ويستمر كذلك أربعة أيام[١] ويوم الجمعة الأول الذى يأتى بعد الاحتفال بهذا العيد يكرس لتكريم الموتى . ويحتفل أخيراً « المولد » بذكرى مولد النبى (صلى الله عليه وسلم) ويوم عاشوراء[٢] بقدمه إلى المدينة .

وقد استطاع محمد عليه الصلاة والسلام أن يحقق آماله العريضة بسبب قوة مثله الأعلى الدينى . فكانت القبائل العربية تعيش منطوية على نفسها ، مستقلة ، متنافسة ، تعبد الأصنام ، وتعتقد فى الخرافات ، فلما جاء الإسلام وطد قوائم الكامنة ، وناشد خيال رجل الصحراء ، ومخاوفه ، وآماله ، ولقنه النظام الفردى والجماعى الذى كان يفتقر إليه عن طريق أحكام ثابتة ، وفى الحقيقة ، شكل هذا الدين النواة لشعب متماسك ومنظم أخذ يتكشف عن شعب لا يغلب .

من أجل هذا ، كان لزاماً على محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يحقق طيلة بضعة قرون تفوق الشعب العربى بالانعام عليه بدين سام فى بساطته ووضوحه وكذلك بمذهبه الصارم فى التوحيد فى مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية . وإذا ماعرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق فى أقصر أجل أعظم أمل لحياة إنسانية فإنه يجب أن نعترف أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يظل فى عداد[٣] أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان .

---

(١) العيد الصغير ثلاثة أيام فقط . (المترجم)

(٢) الاحتفال بيوم عاشوراء لذكرى مقتل الحسين فى كربلاء لا لمقدم النبى عليه السلام إلى المدينة . (المترجم)

(٣) . . وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس قلنا أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى والأخلاقى لشعب ألقت به فى دياجير الهمجية حرارة الجو ، وجدب الصحراء ، وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله [عن قصة الحضارة عصر الإيمان. تأليف ول ديورانت. ترجمة محمد بدران ص ٤٧] . (المترجم)

(٦)

انتشار الاسلام

الخلافة :

عندما توفى محمد ﷺ لم يكن قد عين خليفة له ، فمن يقع عليه الاختيار ؟ لقد حدث ما يحدث عادة ، حينما يناط حكم بالموافقة الشعبية أن تشكل أحزاب مختلفة يعارض بعنف بعضها بعضاً .

كان حزب الصحابة المشكل من المهاجرين من قبيلته ، وحزب أوفيائه الأول أنصاره بالمدينة ، يعلن أن له الحق فى تعيين خليفة من بينهم ، وكان المدافعون عن الحقوق الشرعيية الثائرون على مبدأ التعيين بالانتخاب وأنصار الحق الإلهى ، يتمسكون — على العكس — بعلى ، ابن عم النبى ، وأحد السابقين إلى الإسلام ، وزوج فاطمة بنت النبى الوحيدة . وكانت الأسرة الارستقراطية من قريش ، وهى أسرة الأمويين التى كانت آخر من اعترف بالإسلام ، والتى كانت تقبض على السلطان قبل النبى ، تتواطأ كذلك على السعى حثيثاً إلى الخلافة .

ولم توجد قضية سياسية أراقت كثيراً من الدم الإسلامى ، مثل مشكلة الخلافة هذه ، وهى المشكلة الأولى التى طرحت أمام الاسلام ، ولم تحل بعد قانوناً . وادعى عدد من القبائل والأسرات الحق فى السلطان واللقب ، ومنذ إلغاء الخلافة العثمانية فى تركيا فى عهد كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤ عقدت فى القاهرة أو فى مكة مؤتمرات متنوعة من جميع الشعوب الاسلامية ، لكنها لم تستطع أن تعين الخليفة الشرعى للنبى .

وطيلة القرن الأول ، وقعت أزمة الحكم فى أيدى بدو الجزيرة العربية . والخلفاء الراشدين الذين يمتد حكمهم من عام الهجرة حتى عام ٦٦١ ميلادية كانوا صحابة النبى : أبو بكر ، عمر ، عثمان ، على . وقد نجح عمر فى المحافظة على الوثبة الحربية للقبائل وحقق استمرار الاسلام وتقدمه . وفى سنة ٦٦١ نشأت الخلافة الأموية . وهى الطبقة

الأرستقراطية التقليدية لرؤساء القبائل العربية التي كان لا بد لها أن تستمر حتى سنة ٧٥٠ .

كانت هذه الفترة مرحلة الفتوح .

فتوح عسكرية وسياسية :

قامت الانتصارات المدوية للعرب على أسباب متنوعة يتجلى أهمها فى الخلق السامى الذى كان قد تشربه العرب عن الدين الجديد ، فقد طبعهم هذا الخلق على جرأة ، واحتقار للموت ، جعلهما لا يغلبون ، ويجدر بنا أن نضيف إلى هذه المزايا الخلقية الطريقة الفنية الحربية التى كانت تحترم تشكيل القبيلة ووحدتها ، وكانت تتوائم بشكل عجيب مع اتساع السهب الذى لا نهاية له : وكانت هذه الطريقة الفنية الحربية تتمثل فى سهولة الحركة الفائقة للفرسان ، وبساطة التسليح الذى يتكون من الرمح والقوس ، وتقتصر عدتهم على العباءة والعمامة . وكانت العباءة الصوفية التى يختال بها البدوى نهارا ، ويلتحف بها ليلا ، والعمامة ذات الأهداب التى تقى الرأس الشمس وضربات السيف يمنحان طمأنينة كافية لهؤلاء المحاربين الصحراويين الأشداء الذين كانوا يترقبون من المعارك الواقع المباشر لنصيب ثمين من غنيمة كما ينتظرون صدق وعود بنعيم الحياة الآخرة .

لم تكن الشجاعة الحربية للعرب هى التفسير الوحيد لفتوحهم الهائلة فقد ظاهر هذه الشجاعة ضعف أعدائهم ، وهما امبراطوريتا الساسانيين والبيزنطيين المتنافستان . ولم تكن هاتان الامبراطوريتان الغازيتان للشرق الأدنى قد حققتا نفوذا بعيد الغور فى هذه الربوع : وظل كل شىء — النظام الاقتصادى والأخلاق والعادات — ذا طابع شرقى . وكان الفتح العربى يملك الرضا الضمنى من السكان الذين كانوا يكرهون الإغريق والفرس ويكرهون استبدادهم الدينى والسياسى ، ونظام ضرائبهم الفادحة . ولم يعد الوطنيون قادرين على أن يتحملوا أخيراً هذا الاستبداد المتغطرس من حكام أصبح تفوقهم ضرباً من الذكريات . تلك هى الأسباب التى من أجلها استقبلت هذه الشعوب المتاخمة جيرانها ذوى التاريخ الطويل كأنهم ذوو قربى قد أتوا لتحريرهم

من ظلم الغاصبين الأجانب المقوت . وناداتهم بعض القبائل العربية من سوريا لنجدتهم . وكان كل شيء يمهد لفتح الطريق للشعب العربي الذي لم يدهش حين وجد لغته وعنصريته الخالصة راسختين كل الرسوخ ، كما أنه عندما نهكت الحروب المستمرة والخلافات الخفية ، الجيش البيزنطي في سوريا ، فقد مقاومته . وكانت الامبراطورية الفارسية من جهة أخرى في انحلال تام .

بدأ الفتح العربي بسوريا ، ففي سنة ٦٣٦ ، أحرز خالد ، سيف الله الانتصار على قوى متفرقة في وادي اليرموك ، واستولى بسرعة على مدن سوريا ولم يتوقف إلا عند جبال طوروس . وأشاد هذا الانتصار الباهر السريع على حساب بيزنطة بذكر الكبرياء العربي . وقد غزت القبائل العربية التي استغلت سوريا كنقطة انطلاق ، غزت بعد ذلك أرمينية ، واندفعت حتى القوقاز . وفي العام التالي أباد سعد بن أبي وقاص جيشاً فارسياً كبيراً في القادسية . واستولى على العراق . وبعد ذلك بقليل فتح العرب المدائن عاصمة العدو وأحرزوا نصراً ساحقاً . وكانت مصر القريبة من سوريا والحجاز في وقت واحد ، وقاعدة الأسطول البيزنطي تشكل تهديداً مستمرا في الغرب ، وفي سنة ٦٣٩ فتح عمرو بن العاص الاسكندرية عاصمة مصر ، واندفع حتى طرابلس الغرب . وفي أقل من عشر سنوات كان العرب قد دمروا الامبراطورية الفارسية وزعزعوا امبراطورية بيزنطة ، وهما أكبر قوتين في ذلك الوقت .

لكن تقلبات سياسات العرب الداخلية ، راحت تقف من وثبتهم ، فقد نشأ شقاق في صفوفهم . وكان أهل السنة والجماعة والشيعيون الموالون لعلي ، والخوارج أصحاب الاتجاه الديمقراطي يواجه بعنف بعضهم بعضاً ، ولقد مات ثلاثة خلفاء اغتيالا من بين الخلفاء الراشدين . وأضحت المدينة ومكة نهباً للسلب ، وحرقت الكعبة ، ولذلك لم يكن بد من الالتجاء إلى القوة فاستولى معاوية الداهية (٦١٠—٦٨٠) حاكم سوريا ، وابن أبي سفيان ، وحفيد أمية ، وابن عم عبد المطلب جد محمد ، على الحكم وحسم نهائياً موضوع الخلافة .

ومنذ ذلك التاريخ ، ظلت السيادة المطلقة لأسرة الأمويين ، ثم بدأت مرحلة ثانية من الفتوح . فقد شيد معاوية من خشب أرز لبنان أسطولا قوياً في غضون السنوات التي كان في أثنائها حاكم سوريا . واستولى هذا الأسطول بعد مناورات بحرية على قبرص

وكريت ورودس ، وأحرز فى سنة ٦٣٥ ضد القوى البيزنطية على شواطىء ليقيا ، أول انتصار بحرى عظيم للاسلام ، وحاول الأسطول العربى متشجعاً بانتصاراته القديمة — أن يستولى فى سنة ٧١٦ على القسطنطينية ، لكنه تخلى عن هذا المشروع بعد عام من الجهود غير المجدية . وعند ما انحسر المد الإسلامى فى الشمال ، أخذ فى مداومة إحراز انتصارات باهرة على الخطوط ذات المقاومة الضعيفة من الشرق ومن الغرب .

فى الشرق ، كان العرب قد وضعوا أقدامهم ، فى غزوة خاطفة ، فى وديان نهر السند ونهر أموداريا ، واندفعوا تجاه آسيا الوسطى . وفى الشمال استولوا على تركستان مع مدن بخارى وطشقند وسمرقند ، وبلغوا حدود منغوليا . وفى الجنوب ، بعد أن عبروا نهر السند ، احتلوا دلتاه ، واستولوا على مولتان الواقعة إلى جنوب البنجاب فى بلاد بوذية ، وفى سنة ٧١٢ استقر الإسلام فى الأقاليم المتاخمة للهند .

فى الغرب كان الزحف أكثر نصراً . فى سنة ٧٠٠ نجح العرب فى طرد البيزنطيين من الأراضى التى كانت باقية فى أيديهم فى أفريقية ، واستولوا على قرطاجنة وبعد أن هزموا البربر ، تابعوا تقدمهم حتى المحيط الأطلنطى . وأشهد عقبة بن نافع الذى كان يقودهم وهو يتقدم بحصانه وسط هذه الحشود من المحاربين ، أشهد الله على أنه كان لا يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك .

وفى سنة ٧٠٨ كانت كل إفريقية الشمالية قد فتحت ، وقد أخذ الفتح الإسلامى فى محو الآثار الطفيفة من سيطرة رومانية لم تكن لها دراية بتوطين نفسها إلى أبعد الآماد داخل البلاد ، ولا فى الهضاب العالية التى يقطنها البربر ، وهم بدو أو أنصاف بدو . أما الإسلام فقد تواءم إلى أقصى حد مع هؤلاء السكان الذين كانت أخلاقهم شبيهة جداً بأخلاق القبائل البدوية ، ووجد العرب فى البربر معاونين لهم ذوى عزمة مبدئية فى وقت الفتح الأسبانى . وفى ذلك العصر ، كانت أسبانيا تحكم حكماً استبدادياً على يد بعض أمراء القوط الغربيين الذين كان السكان الأسبانيون — الرومانيون ينظرون إليهم بكراهية شديدة . وكان العرب بدون شك لهم مكانتهم كمحررين كما حدث فى الشرق . ففى سنة ٧١١ ، أطلق موسى بن نصير فى أوروبا ١٢٫٠٠٠ بربرى تحت قيادة طارق بن زياد ، ونزلوا بالقرب من صخرة ضخمة أطلق عليها اسم هذا القائد البربرى « جبل طارق » وتقدم لوذريق ملك القوط لمقابلتهم وتقابل الجيشان فى بحيرة لاينده ، بالقرب

من شريش . فقد تخلى عن لونزيق أتباعه ، وقهر فى سيجوفيا (قشتالة القديمة) (٧١١) ، وسار طارق الذى استغل نجاحه إلى طليطلة عاصمة المملكة ، واستولى فى أثناء الطريق على أرشذونة وغرناطة . وانتزعت قرطبة على حين فجأة وعندما انتصر أيضاً فى أثيجا ، سلم إليه اليهود طليطلة ، وهكذا ، فإن هذه الحملة التى كان مقدراً لها أن تكون غزوة للاستطلاع ، انتهت فى بضعة شهور بفتح مملكة .

وفى سنة ٧١٢ ، بادر موسى بنفسه ومعه ١٠,٠٠٠ عربى، وهاجم المواضع الحصينة من ماردة ومن أشبيلية التى كان قائده قد تحاشاها من قبل عن رأى صائب وانتظمت المقاومة ، ودافعت أشبيلية وماردة عن نفسيهما بعنف طيلة أكثر من عام . والتقى موسى بطارق فى طيطلة وأمره بجلده لأنه لم يتبع تعليماته ، ولكنه تابع مع ذلك الفتح ، وبلغ سرقسطة واندفع حتى جبال البرانس . وفى سنة ٧١٣ لم يبق فى أيدى المسيحيين الأسبانيين غير الجبال فى الشمال الغربى من أسبانيا ، وموسى نفسه الذى كان قد تخطى أوامر الخليفة ، استدعى إلى دمشق بسبب تحول تام فى الأمور . ودخل دمشق فى أبهة كبيرة بموكب مؤلف من « ٤٠٠ أمير قوطى حاملين تيجاناً وأحزمة من الذهب ، هذا إلى فرقة ضخمة من العبيد وأسرى الحرب المحملين بغنائم عينة » . ولم يشفع هذا كله لدى الخليفة إذ انتهى فاتح أفريقية وأسبانيا إلى قضاء أيامه الأخيرة فى فقر وحاجة مثله فى ذلك مثل بيليزاريوس(١) .

ولم تفتر جرأة خلفاء موسى عن المضى فى ذلك . فكانت تتغلب روح المغامرة على الفطنة ، وفى سنة ٧١٨ عبر الحر الثقفى جبال البرانس .

وبعد ذلك بعامين ، على الطريق الذى يصل إلى فرنسا ، وإلى ألمانيا وإيطاليا ، استولى السمح بن مالك على مقاطعة سبتمانيا ، وانتزع ناربون التى حولها إلى قلعة ذات مكانة استراتيجية فائقة . لكن فى سنة ٧٢١ هزم فى حملة أمام تولوز على يد إيد ، دوق أكيتانيا ، وفى سنة ٧٣٢ انتزع الأمير عبد الرحمن مدينة بوردو ، وسار فى اتجاه

---

(١) قائد بيزنطى (من ٤٩٤ إلى ٥٦٥) فى حكم جستينيان ، انتصر على الفرس والوندال والقوط الشرقيين ، ورغم هذا فقد غضب عليه الامبراطور ، وقد ذكرت بعض القصص عنه أن حياته قد انتهت بفقد بصره ومد يده . (المترجم)

تور ، وهناك بالقرب من بواتييه ، عند ملتقى نهرى فين ، وكلان كان عليه أن يلتقى بالفرنج شارل(١) مارتلس وبعد بضعة أيام من الانتظار ، بادر الأمور بالهجوم . ويروى المؤرخ أن الجموع الحاشدة من الفرسان المسلمين انقضوا كأنهم عاصفة شديدة على خطوط الافرنج التى ظلت « كأنها حاجز من الجليد . . وقد عاد المسلمون إلى الهجوم على هذا الحاجز عشرين مرة . . والحائط من الحديد لاينثنى أبداً » . . ووضع الليل نهاية المعركة . وفى فجر اليوم التالى ، كان العرب قد عادوا من حيث أتوا تاركين خيامهم وأمتعتهم .

وقيل عن يوم بواتييه أنه كان توقيتاً لإحدى المعارك الحاسمة فى التاريخ . فقد أنقذت هذه المعركة ، حسب رأى العدد الأكبر من المؤرخين ، العالم المسيحى ، وحسمت مستقبل أوروبا .

حقاً ، كان المد الإسلامى الذى ابتعد كثيراً عن قواعد انطلاقه قد بلغ « نقطة توقفه الطبيعى . . لقد كان ينتشر — إذا جاز القول — على أسس غير ثابتة » . . وكانت وثبة القبائل حقاً لا تبارى فى السبق ، ولكن كانت هناك أسباب أخرى أيضاً تقف دون العودة إلى مهاجمة الافرنج ، فالحرب الأهلية فى أسبانيا والتنافس بين العرب والبربر والاختلافات فى المشاعر والمشاحنات الخفية . . كل أولئك كان قد قوض من تماسك الجيش وقوته .

ويمكن دائماً أن نتساءل ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن المسلمين لم يقفهم « حاجز بواتييه الجليدى » لقد كان رؤساؤهم يظهرون من العجلة فى قراراتهم ، ومن المبادأة ومن الجرأة فى المعارك ، ومن المهارة الدقيقة فى طرائق معالجة الأمور حداً يجعل تقديراتهم أخطر . فموسى وطارق فى اسبانيا ، وعمرو فى مصر ، وسعد فى فارس ، ومعاوية فى سوريا ، وخالد نفسه على استعداد ليطيع الأوامر ، إذا أراد الخليفة ذلك . . كل هؤلاء القواد العرب كانوا قد تخطوا الأهداف التى كانت تحدد لهم ، واظهروا أنهم أساتذة فى فن استغلال الانتصارات . وقد لمس دون شك حلم عبور أوروبا وضرب بيزنطة من طرف وإزالة الارتباط مع خليفة دمشق ، لما خفيفا روح هؤلاء الذين كانت معارفهم الجغرافية لاتسمو سمو خصائصهم المميزة .

---

(١) أى شارل المطرقه . (المترجم)

ومع ذلك فإن فتوحهم كانت تبدأ عادة على أنها غزوات سريعة ، وغزوات لا يسبقها تخطيط ما ، ولا تبحث بحثاً آمناً أنياً . ولكن هذه الغزوات المذهلة والمترامية الأطراف تذكرنا بسير آلة عظيمة تركت قيادتها لهؤلاء الذين أداروا محركاتها عندما أطلقوها عند ذاك .

فتوح لغوية :

إن أعظم ما كان يتمناه الاسكندر، تحقيق إدماج الإغريق والشرقيين معا على قدم المساواة : ومن ثم ، فقد أغرق في سبيل هذا الهدف آسيا الصغرى بالمزارعين الاغريق، وأسس سبعين مدينة « أكثر مما لم يدمره جميع المنتصرين الآخرين في الشرق » .. وجمع نظامه شمل المهزومين ، وأفضى إلى رخاء عظيم ، لكن خلفاءه فشلوا في سياسة جمع الشعوب وإعادة بناء الامبراطورية ، ولم يكن في استطاعة هذا الإدماج أن يؤتي ثمره على الرغم من أن المشروع الاقتصادي والاجتماعي كلل بالنجاح .

وبقي المجتمع والثقافة اليونانيتان على حالها في ظل الإدارة الرومانية التي كانت ظاهرية فقط وظلت اللغة اليونانية لغة رسمية طيلة أكثر من ألف عام وعند قدوم العرب كان لابد أن ينهار كل شيء دفعة واحدة ، ابتداء من اللغة والفكر اليونانيين وكانت الثقافة اليونانية قد غزت من غير شك المدن والأوساط الحاكمة ، لكنها لم تكن قد عرفت طريقها إلى قلوب سكان القرى ، لذلك كانت الإدارة والقانون والتجارة إغريقية في المدن ، وذات عرف تقليدي يختلف اختلافاً أساسياً عنه في الأقاليم ولم يكن في استطاعة الثقافة اليونانية على الرغم من احتلالها الطويل أن تأخذ في مجموعها مكانة الحضارات الشرقية القديمة . أما الإسلام الذي كان يمت بصلة أقوى إلى هذه الحضارات، فقد رأى نفسه أنه في موطنه من أول الأمر .

والحق أنه منذ بدء الفتح ، أثر العرب تأثيراً عميقاً وسريعا في البلاد التي كان الساميون قد تركوا فيها آثاراً من لغتهم ومن عاداتهم ، ففي أراضي الهلال الخصيب وفلسطين وسوريا وكلديا ، ظلت اللغة العربية واللغة الأرامية ـ قريبة اللغة العربية ـ لهجتين من لهجات الولايات المترامية الأطراف . كما أن العرب عند ما نفذوا إلى فينيقية ،

لم يجدوا أية صعوبة فى أن يفهم عنهم سكانهما الذين كانوا قد هاجروا من الجزيرة العربية منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

وفى أفريقية الشمالية ، مهدت أيضاً صلات لغوية إلى استقرارهم بسبب تقارب اللهجات البربرية من اللغات السامية نتيجة التأثير الشديد لقرطاجنة مدة عشرة قرون فى أفريقية الشمالية . وكانت اللهجات البونية قد حافظت على نفسها فى الريف حتى عصر الوندال ، وكانت الأندلس — وهى قاعدة يونانية — تتحدث نفس اللغة على الرغم من عدة قرون صبغتها بالصبغة الرومانية ، ولقد توقف الفتح العربى عند الحد الأقصى لذكريات لغوية ؛ وعند خط انفصال تأثير قرطاجنة وتأثير الغرب الذى استند فى الواقع إلى الميدان الشرقى القديم .

ويشير التاريخ إلى أن الشعوب التى افتتحت كانت تفضل اختيار أى نظام سياسى جديد على تغيير لغتها . وقد أيد هذه الحقيقة فشل الإغريق والرومان فى الشرق مرة بعد مرة . فما الذى تكون عليه لغة الشعوب التى ستخضع للاسلام من الآن فصاعداً ؟ لم يكن فى استطاعة أية لغة أخرى غير اللغة العربية التى كان لديها المزية القاهرة وهى لغة المنتصر . وفوق ذلك لم تكن هناك أية لهجة قادرة على أن تحدث فى الأفكار تأثيراً أكثر سمواً من اللغة العربية . وكان للعامل الدينى أثره الهام فى تعزيز مكانة اللغة ولما كانت اللغة والدين يساند بعضهما بعضاً ، فإن الشعوب التى آمنت بالدين ، انضمت إلى العالم الإسلامى جسماً وروحاً .

كان فى « القرآن » فوق أنه كتاب دينى خلاصة جميع المعارف . وكان يطلق عليه فى البلاد الإسلامية « الكتاب » وكانت تعنى كلتا « القراءة والكتابة » قراءة وكتابة القرآن ، وظل « القرآن » زمناً طويلا أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذى شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية . ولا يزال حتى اليوم النص الذى تقوم عليه أسس التعليم فى الجامعات الإسلامية . ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية « إذ يذبل جمال اللغة فى الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها » ولذلك يجب أن يقرأ « القرآن » فى نصه الأصلى .

ابتدأ العرب إذن بقصد تعليم الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام فى إعطائهم دروساً

منظمة فى اللغة العربية ونشأ البحث الأول لقواعد اللغة من هذه الحاجة . ثم اتضحت ضرورة هذه البحوث فيما بعد وبخاصة لهؤلاء الذين كانوا يسعون حثيثاً وراء الوظائف العامة . ولما كانت اللغة العربية لغة دواوين الحكومة والتشريع والدبلوماسية ، فقد أصبحت لذلك فى وقت قصير جداً لغة العلاقات الاجتماعية والتجارة والأدب .

كانت الشعوب التى اعتنقت الإسلام تملك فى الأغلب ثقافة فكرية تفوق ثقافة العرب . فلم يكن البدوى ، الولوع بركوب الخيل وبالخلوات الطليقة ، صاحب آداب . وإذا كان يملك ناصية لغته بالفطرة ، فإن كل معرفته كانت تتلخص فى بضع آيات من « القرآن » . بيد أن الكتابة العربية الخالية من الحروف المتحركة والتى اقتصرت على حروف ساكنة رئيسية كانت تستخدم كسند للذاكرة وكانت تتطلب قواعد مضبوطة ومتماثلة ، ومجموعة قواعد نحوية لا تعلم إلا فى المدرسة ، لكن البدوى الارستقراطى كان لا يذهب إلى المدرسة ولم يكن لديه إلا صياغة مجموعات لقواعد نحوية . وحسب هذا العربى المعتز بعنصريته أن يكون فى قمة المرتبة الاجتماعية ، مزوداً بدخل طيب فكان من واجب الشعوب الجديدة التى اعتنقت الإسلام أن تنهض بوضع قواعد اللغة العربية المكتوبة . وقد بدأ العلماء والمتبحرون فى العلم من تلك الشعوب والمزودون من قبل بحضارة سابقة ، عملهم مستندين إلى أساس راسخ من « القرآن » ، وقد اكتسبوا مع طول الزمن ملكة الجدل البيزنطى فكان عليهم أن يضعوا قواعد البلاغة التى تمثلها اللغة العربية فى متانة الأسلوب وقوته ، وأن يبينوا عما فيها من وضوح ، ونظام ودقة ، وأن يهذبوا مفرداتها ، وأن يمنحوها قواعد ومنطقاً وإعراباً ونحواً . وجندت صفوة مخلصة من رجال الفكر نفسها لهذا العمل الضخم . وعند ماتشبعت هذه الصفوة بمفهوم اللغة وروحها الحية ، جمعت منتخبات من النصوص لولا هذا الجمع لضلت طريقها ، وألفت معاجم وأنشأت موسوعات . ومما لاريب فيه أن نصيب هؤلاء الطلاب من الصفوة كان مهماً فى إعداد فقه اللغة ، هذا الفقه الذى طبع فى غضون ذلك الوقت بطابع الفجاءة والتوسع ، اللذين هما من غير شك طابع العرب أنفسهم

عن هذه اللهجة التى استخدمها قديماً شعراء الجاهلية ليشيدوا بذكر رفاقهم فى القتال وليساندوهم فى المعركة تولدت أخيراً أكمل لغة فى العالم ، وأكثرها صلاحية من اللهجات الوطنية المسايرة لجميع المقتضيات . ومن ثم ظلت هذه اللغة لامنافس لها

من بين جميع لغات البلاد المحتلة . وهنا نلاحظ أن غزارتها ودقتها يسرتا لها أن تعبر عن جميع الفروق الدقيقة للفكر ، وعن جميع دقائق روح العصر الوسيط المدرسية . وهذه اللغة الشعرية التى سحرت الأعراب الجفاة ، أصبحت من الآن فصاعدا لغة البلاط ، والمجالس والعلماء . وأصبحت سرعة البديهة وطلاوة اللسان صفتين لا بد منهما فى المجتمع الراقى أكثر مما كان المجتمع يتطلبه من رقة الحاشية وحسن الذوق.

ولا نزاع فى أن اللغة والدين اللذين انتشرا معاً قاما بدور خطير فى هذا العمل الضخم لتقريب هذه الامبراطورية الشاسعة وتحويل أبنائهما إلى الإسلام . وحطمت هاتان القوتان الحواجز التى كانت تفرق بين الفاتحين وأهل البلاد وحولوا بعض الأجانب إلى عقيدتهم أكثر مما كان لروما فى العصر القديم فى هذا الميدان والأنجلوسا كسون فى الفترة المعاصرة . فالذى كان يدين بالإسلام وكان يتحدث ويكتب اللغة ، يسمح له أن يعد عربياً ، وهذا حدث خطير فى تاريخ الحضارة الاسلامية . وقد ألفت تلك القوة الموحدة بهذا الأسلوب الحدود السياسية ومنحت بنحو ما شكلا موحدا لبلاد مشتتة مترامية الأطراف فى ثلاث قارات ، وأصبحت فيما بعد خالية من القيود . وكان المسلم يجد فى كل مكان نفس الدين ونفس الصلوات ، ونفس الشرائع . وبمساعدة هذه المؤثرات العجيبة ، كان يشعر فى كل مكان بأنه فى بلده ، سواء أكان فى رحلاته خارج الحدود أم فى معاملاته مع تجار البلاد الأجنبية .

وطيلة قرون عدة ، كتب العلماء المسلمون ، أياكانت جنسيتهم جميع مؤلفاتهم باللغة العربية . وأثرت اللغة كما أثرى الفكر أيضاً من هذا الواقع ويعزز ذلك ويعمل على انتشاره تعليم مجانى للجميع . وآزرت أيضاً الترجمات العربية للعلم وللفلسفة اليونانيتين وكذلك للشرق الأدنى وللشرق الأوسط فى انتشار هائل للأفكار واللغة . ثم إن منطق » أرسطو الذى كان يحتوى فى ترجمته العربية على كتابى البلاغة والشعر ، وكذلك « أيساغوجى » لفورفوريوس الصورى قد احتل منزلة متعادلة بجانب النحو العربى ، بوصفه أساس الدراسات الإنسانية فى الإسلام .

وقد حدث نتيجة لذلك أن اللغة العربية حققت نوعاً من نزعة دولية للاداب والعلوم فى مختلف الشعوب التى كانت تؤثر فيها . وقد فرضت اللغة نفسها وتسلطت بطريقة محكمة إذ أن العرب كانوا من بين المفكرين والعلماء الذين ساعدوا على ازدهارها .

هذا إلى أن الفرس بعد خضوعهم بقليل منحوا الأدب العربى مؤلفات مبتكرة متساوية متناسقة حتى إن التأثير العربى بات لا يحس به فى هذه المؤلفات . وهذا الانتصار العالمى الذى كان يتجاوز نفسه بنحو ما كان ينطلق من كتاب لا ريب فيه ، الا وهو « القرآن » . وكان لتداول لغة واحدة مزايا أخرى تحققت عملياً عن طريق كثرة المبادلات الثقافية التى أمكنها لذلك أن تنظم نفسها عبر الامبراطورية كلها وحتى عبر حدودها . وقد أربى تأثير ابن سينا ، وهو مواطن من إقليم ما وراء النهر ، على مؤلفات ابن رشد فيلسوف قرطبة . وكذلك ، فإن الأدريسى الذى كان يعلم ويدرس فى أسبانيا يطبع بطابعه العميق مؤلفات ياقوت الحموى الذى كان يتلقى تعليمه بالقرب من بحر أورال .

كما أنه عبر الامتداد الشاسع للعالم الإسلامى ، ساعدت كذلك البلاغة الحية والمؤثرات الباهرة للغة العربية على نفاذها إلى اللغات الغربية أسبانية أو لاتينيه ظلت مليئة بألفاظ من أصل عربى . ومع ذلك لم يكن هذا النفاذ سهلا .

لقد قيل إن قصة الكتابة واللغة العربية لم يكن شيئاً آخر غير قصة الحضارة العربية . ومما لا جدال فيه أن هذه القصة مهدت بشكل لا نظير له إلى الانطلاق والتطور . وراحت هذه الرسوم ، وهذه النقوش الفنية التى اقتبست من الأرض القديمة لآسيا والهند إنشاءاتها الأولية الخطية المتفرعة من حروف هيروغليفية ، راحت هذه الرسوم تصبح شيئاً فشيئاً لغة وكتابة كاملتين .

ونظرا إلى الصعوبة التى كانت تمثلها قبل كل شيء الكتابة الخطية العربية بالنسبة للغربيين ، فقد نسى عصر الحضارة الأوربية القديمة بسرعة ذكرى الحضارة العربية . واتجه الأوروبيون تجاه العصور القديمة الكلاسيكية الاغريقية والرومانية للحصول على المعارف التى كانوا يفتقرون إليها . وهذا الاختيار ولو أنه ينطوى على نكران الجميل يمكن فهمه وتصوره فى ضوء هذه التحليلات . فقد كانت الحضارة الغربية لليونان وروما أكثر سهولة فى طابعها على الفهم بالنسبة للغربيين إذا قيست بالحضارة العربية . وإنه لأمر رهيب فى أن يكون الغرب هو الوارث لهذا الماضى الضخم ، والممثل لتلك الحضارة إلا رسخ قدما فى الكرة الأرضية (أ. جوتيه) عندما يكون الأمر بصدد تلقين أصول

مبادىء تلك الحضارة فى شعوب فتية (١) .

(١) لا شك أن هذه إحدى المغالطات التى يلجأ إليها المؤلف فى كثير من المواضع . والواقع أن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه عن الشرق الأدنى أكثر مما ابتدعوه . ويقول ول ديورانت فى كتابه قصة الحضارة — الشرق الأدنى — ترجمة محمد بدران ص ١٠ : وكان اليونانيون الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاث آلاف من السنين ، ولما جاء إلى مدائنهم من مغانم التجارة والحرب . فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظمنا شأنه فإنا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدى من زمن بعيد . (المترجم)

(٧)
أخلاق وعادات

السيكولوجية الاسلامية

فى عصر الأمويين ، فى القرن السابع والثامن الميلاديين ، وعلى الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التى تشكل الإسلام ، كان المسلمون يبينون سلما عن خصائص متشابهة ، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرق بين حضر وبدو ، اغنياء وفقراء ، كانوا يسلكون تقريبا مسلكا وحدا . ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة . وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس ، وخلق الجو المعنوى للحياة ، حتى تغلغل شيئاً فشيئاً فى الأفكار فانتهى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق . كما كان تأثير الدين عظيما بسبب انتشار اللغة ، وبسبب تآلف السياسة الخارجية المشتركة ، وكذلك بسبب تآلف نظام اجتماعى معمم .

ويقال إن عشر درجات من خط العرض تغير من القوانين ، ولكن الملاحظ فى هذا الصدد أن الإسلام انتشر نحو الشرق ونحو الغرب ، وأنه يكون شريطا مترامى الأطراف لايحيد عن خطى عرض ٣٠ ، ولكن ، إذا كان هذا الشريط يمتد بطريقة طوليه ، فإنه ينحصر من جهة أخرى فى حدود ضيقة نسبيا عرضا ولا يتقدم كثيراً نحو الشمال أو الجنوب أعنى نحو البرد الشديد ، أو نحو الحرارة القصوى ، فيظل المناخ تقريبا نفس المناخ فى الأقطار المختلفة التى يسود فيها الإسلام . وينشأ أيضاً عن هذا الاعتدال المناخى حال صالحة لاستعداد معين للتوافق السيكولوجى .

كانت رسالة محمد (صلعم) تستهدف رفع المستوى الأخلاقى والثقافى لأتباعه . ولم يوجد من بينهم من لم يؤمنوا بتفوق دينهم مهما يكن اعتقادهم ساذجا . فليس لحرية التفكير ، والنضج السياسى والبراعة الفنية عند الغربيين قيمة أمام التفوق الروحى عند الشرقيين فهو فى نظرهم واضح وضوح النور . إن القول الذى يوحى به إلهم التقدم العلمى الغربى : « لم يعسد يعوزكم الا القضاء على الموت » فيه من التهكم أكثر مما فيه من إعجاب وهو يعني أن جهود الإنسان سوف تكون عاجزة أمام قضايا الآخرة التى

حسمها المؤمن دفعة واحدة : فقد وضحوها لنا بكلام صريح : كل الصراحة « إذا كانت الدنيا لكم ، فالآخرة لنا » . وقد يوجد كثير من التعليق على هـذا المفهوم الحاسم لمشكلة الإنسان . ومما لا شك فيه ، أن الدين الإسلامى ينطوى على نوع من التقشف ، ولكنه ينتهى إلى بذل أقل جهد فروح الكفاح للرجل الغربى التى أصبحت غاية فى حد ذاتها ، لاتبصر الأمور الروحانية وتؤدى من الضعف إلى الألم النفسى المبرح . فمن هو على صواب ؟ إن يقين المسلم يبلغ من التمام الحد الذى يجعله كلما واجه تفاقم الأخطار تحرك رد فعل دفاعى بطريقة آلية فى كل مرة توضع عقيدته فيها موضع جدل : وهذا الإيمان القوى الراسخ الرسوخ كله لاجرم يزداد رسوخا عند محاولة القضاء عليه .

ذلك أن القرآن يتنبأ بكل شىء ، ويجد الحلول مقدما لجميع القضايا ويربط مابين القانون الدينى والقانون الأخلاقى ، ويسعى إلى خلق النظام ، والوحدة الاجتماعية ، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات . إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين ، ويوصى بالبر ويأمر بالرحمة ، كما جاء فى قوله تعالى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البـأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وفى مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومى ، ونظم العقود ، والمواريث ، وفى ميدان الأسرة ، حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس ، الخ ...

ويجدر بنا أن نراجع الآن باختصار شديد أخلاق المجتمع الإسلامى وعاداته ، ثم البيئة التى كان يعيش فيهـا المسلمون الأول ، وأن ندرس بعـد ذلك كيف تضافرت مختلف العوامل الجثمانية والسيكولوجية لمولد حضارة جديدة .

الأسرة الاسـلامية — الزواج — الاطفال

قبل وفاة محمد (صلعم) وبفضله كانت قد بنيت الأسرة المسلمة بنساء يشد بعضه بعضاً ، وهي مدينة له بالولاية التى زود بها رب الأسرة ، والتي تبدو في نظر رجال

الغرب متجاوزة الحـد . فالمرأة ملتزمة بطاعة الرجل ، وإذا عصت فعليه تأديبها ، إلا أن القرآن يذكر الناس فأن أمهاتهم حملتهم فى ألم وولدتهم فى وهن على وهن ، وأرضعتهم فى أكثر من عام ويقول النبي « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

هـذا وقد فرض على المسلم أن يتزوج ، ويدين له أبناؤه بالطاعة والاحترام ، وتراعى هذه القاعدة شكلا وموضوعا فى المدينة . أما فى الريف فـلا يدخن طفل أمام أبيه . ولاتسأل فتاة أباها . ولـما كان الاب مطلق الحرية فى ممارسة حقوقه تجـاه امرأته ، لأنه سيدها المطلق ، فهو كذلك رب أولاده يتصرف فى مستقبلهم وفقـاً لصالحهم كما يتراءى له . ويستطيع من حيث المبدأ تزوجهم دون موافقتهم ، ولاتستشار البنات أبدا من جهة اختيار أزواجهن .

ووضع المرأة فى الزواج هو وضع خضوع مصون يخفف بقـدر معين من السلطان الذى تستمده طبيعيا من مفاتنها . لـكن حياتها الحقيقية قبل الإسلام كانت تتجاوز بسرعة بضع لحظات من هيام عاشق إلى حيـاة طويلة ذات عمل كادح . لذلك كانت رفيقة متعة لفترة قصيرة ، وخادمة على مدى الأيام . وهـكذا ، آمن محمد بوجوب تحسين وضعها الاجتماعى .

لقـد وضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى القضايا الخـاصة بالمصلحة ، فأصبح فى استطاعتها أن ترث ، وأن تورث ، وأن تشتغل بمهنة مشروعة . لـكن مكانها الصحيح هو البيت . كما أن مهمتها الأساسية هى أن تنجب أطفالا . إنهـا « حرث لـكم » وكثيرا ما كان ينظر إلى المرأة الولود نظرة تقدير . ولا غرابة فى ذلك لدى مجتمع زراعى قبلى . وعلى ذلك ، رسم لها النبي واجبها : « أيمـا إمرأة مات زوجها ، وهو راض عنها ، دخلت الجنة » . . واستنادا إلى هذا التشريع كان عـكن أن يحـكم على خيانة المرأة بالموت . وفى الحـق أن تعدد الزوجات بتقييده الأزلاق مع الشهوات الجامحة ، قد حقق بهـذا التشريع الإسلامى تماسك الأسرة ، وفيه مايسوغ عقوبة الزوج الزانى .

وفى الأسرة الإسلامية ، تعد ولادة الطفل وبخاصة الذكر كأنه حـدث سعيد ، ويحاط هذا الطفل بألوان كثيرة من الرقى ضد الجن ، وبأساليب تجلب الحظ السعيد ، بوضع السكر قريبا منه لـكى يـكون ميمونا والخبز لـكى يعيش طويلا ، والذهب لـكى يـكون غنيا .

وليس من الصعوبة تسميته باسم يقتبس عادة من الدين ، ويضاف إلى اسم أبيه المسبوق بابن . ويعنى اسم التصغير ، هذا « ولد » مثل « آن » فى إيران ، و« وايهى » فى بلاد بارس[1] و« بن » فى إفريقية الشمالية فقولنا ابن أحمد ، وأحمد آن ، وأحمد وايهى ، كل هذه الثلاثة تدل على ولد أحمد .

وكانت الأسرة الإسلامية ترعى دائماً الطفل ، وصحته ، وتربيته رعاية كبيرة . وترضع الأم هذا الطفل زمناً طويلا ، وأحياناً لمدة أكثر من سنتين . وتقوم على تنشئته بحنان ، وتغمره بحبها وباحتياطات متصلة ، وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة . وأصبحوا يتامى ، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون فى مساعدتهم وفى تبنيهم .

واليوم ، مثل الأمس ، يعيش الطفل ويكبر تحت رعاية أمه فى المساكن التى خصصت للنساء فى غضون سنواته الأولى . وفى سن الخامسة ، تقام له الحفلة التقليدية للختان[2] التى تكون على شيء كثير من الأبهة والتى تبقى دائماً الفرصة لعيد الأسرة ، تجيز دخول الطفل فى الحياة الإسلامية ، ومنذ ذلك الوقت ، يبدأ فى الإفلات من مراقبة النساء وينبغى أن يكون قادراً على أن يقوم بنفسه بغسل يديه ووجهه ، وأن يباشر ملبسه وزينته ، وأن يؤدى صلواته .

ثم إذا كان صبياً ، يبدأ فى الاتصال بأبيه الذى سيشرف على تعليمه بنفسه . ولن يمنع الحنان والحب الحزم بل ولا القسوة . وتعلك كل أسرة مسلمة فى ذاكرتها التعليمات التى كان قد أعطاها الخليفة هارون الرشيد مؤدب ابنه الأمين : « ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإذا أباهما فعليك بالشدة والغلظة » . وكان الشاعر سعدى يقول أيضاً بطريقة أكثر إيجازاً : « إن قسوة المعلم أعظم نفعاً من لين الأب » .

---

(١) بلاد الفرس القديمة . (المترجم)

(٢) هذه العادة كثيراً ما تتقدم إلى سن مبكرة فى حياة الطفل عند ما يكون فى اليوم السابع من مولده ، وليست هذه العادة جزءاً من الإسلام نفسه . (المترجم)

ويقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قوية ، وعلى تعويدهن الصلاة ، وبجعلهن فى وقت مبكر صالحات للأعمال المنزلية(١) ، وبعد سنوات أيضاً ، يعلمن قرض الشعر ، والفنون الزخرفية والموسيقى والرقص فى المدارس المخصصة لذوى اليسار فى المجتمع الإسلامى واليوم يذهبن فى ساعة مبكرة إلى المدرسة الابتدائية والثانوية .

وقد جرت العادة فى البلاد الإسلامية ، أن ينظر الناس إلى العزوبة على أنها خطيئة ، وعلى أن الزواج مستحب عند الله . ومن ثم ، يتزوج المسلمون فى سن صغيرة جداً ، حين يبلغ البنات سن البلوغ من بداية التاسعة أو العاشرة ، والصبيان حوالى الخامسة عشرة ، يدفع إلى ذلك ما يحض الدين عليه ويرتضيه العرب وتقتضيه المحافظة على العفة قبل الزواج . وتشير تجربة البلاد الحارة إلى أنه ليس هناك وقت للضياع ، لأن المرأة إذ تصبح أماً فى سن الثالثة عشرة تذبل منذ وقت مبكر . ويبت فى الزواج بترتيب من الأسرة . ففى أفريقية ، كما فى كل مكان فى العالم ، تقوم النساء بهذه المهمة ، وينهضن بها ، ويكثرن من المعابثات الصغيرة الخاصة بالزواج ، أما فى إيران فإن الرجال هم الذين يقومون بالطلب التمهيدى للزواج المسمى بالخطبة . وعند ما يرضى الطرفان يحرر عقد الزواج على يد المأذون ، ويؤيد بصداق (مهر) يقدمه الخطيب على أن يبقى ملكا للمرأة .

ويقترن الزواج بتلاوة خطبة قصيرة ، وهو مناسبة بعد ذلك لوليمة فاخرة مع توزيع هدايا فى احتفال متلألىء بالأنوار . والموكب الذى يذهب إلى منزل الزوج يطوف بالأماكن القريبة ، ويمتطى فيه الزوج صهوة جواد ، بينما تتوسط الزوجة هودجها ثم يتبع الموكب بغال محملة بالهدايا .

---

(١) تدل شواهد كثيرة أن أبواب التعلم والثقافة بمختلف صنوفها كانت مفتحة على مصاريعها للبنات العربية منذ عصر بنى أمية ، وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء العربيات ، وبرزن فى علوم « القرآن » والحديث والفقه واللغة وشتى أنواع المعارف والفنون ، بل لقد كانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام . [عن سلسلة اقرأ — المساواة فى الإسلام تأليف الدكتور على عبد الواحد وافى ص ٤٧] . (المترجم)

ويسمح بفسخ الزواج لدوافع مختلفة ، وغالباً ما يكون هذا الفسخ من عمل الزوج الذي يطلق زوجته باعلانه أمام قاض . وإذا كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أقر حرية ما قبل الإسلام فى الطلاق . فانه لاينصح به لأنه غير مستحب عند الله ، ويعوقه ببينات وجهود تبذل للصلح ، وبتحكيم . وفى حال الانفصال القاطع[1] بعد فترة العدة ذات الثلاث حيضات . تحتفظ الزوجة المطلقة بمهرها وبأموالها . ويبقى الأطفال تحت رعاية الأب . اللهم إلا إذا لم يستطيعوا أن يستغنوا عن رعاية أمهم وتأخذ هذه الأخيرة فى هذه الحال نفقة يحددها القاضى .

ولما كان تعدد الزوجات بعامة متتالياً أكثر منه دفعة واحدة ، فان الزوجات الشرعيات يقبلنه على أنه حال عادية ، وتتباهى الإماء غالباً بعدد أطفالهن ، وبخاصة عند ما يصبحن « أمهات أولاد » .

الجنازات :

لا يهاب المسلم الموت أو على الأقل يرتضيه بإستسلام ، وذلك نتيجة لتعاليم دينه . وينطق بالشهادتين ساعة الموت متجهاً برأسه نحو القبلة (مكة) ويتلو اسم الله ، ويطلب من الله رحمته ، ، والعفو عن خطاياه : ويقترن الموت بحفلات جنائزية لا تختلف عن حفلات الأديان الأخرى . ويسهر المحزون الليل على المتوفى بتلاوة صلوات من أجله وسط زفرات ونواح من نسائه وأسرته وجيرانه . والاحتفال بغسل المتوفى وتزيينه له طابع دينى وطابع مميز ، ويقام الغسل فى الصباح الباكر أو بحسب العادات المحلية . وعند ما تلف الجثة فى كفن ، تحمل إلى المقبرة على النعش ، ويتناوب أربعة رجال فى أثناء سير الجنازة حمل النعش . لهذا فإن حمل أى ميت يعد ثواباً . ثم يتقدم موكب الجنازة الذى يتجه إلى المسجد أو إلى المقبرة للصلاة على الأموات رجال الدين وهم ينشدون مختارات من قصائد دينية . وتأتى بعد ذلك النساء . النائحات . . اللائى كانت تمنعهن الشريعة الدينية أن يشتركن فى الجنازة . وكان نواحهن مثل نواح النائحات المأجورات يمنع من وقت لآخر بوساطة العلماء الحريصين على الاحتفاظ عند الدفن بكل وقاره ، لكن هذا التحريم أصبح نسياً منسياً .

---

(١) الصيغة الشرعية هى أن يقول الزوج لزوجته « أنت طالق ثلاثاً » . (المترجم)

وفى المقبرة ، يودع باطن الأرض الجثة ، ويوجه الرأس تجاه مكة ويستند إلى حجر عار ، ويستخدم للجثة عقد من بناء خفيف من الحجر مرصكب كذلك من بعض الآجر (الطوب) كوقاية .

من هذا المصير المشترك للجثث البشرية وللأحجار البسيطة التى تحميها وتسندها ، استخلص عمر الخيام فى قطعة شعرية تفيض بالسخرية والأسى أكثر طلاوة من مقطوعتنا « أنت تراب[1] » بضعة أبيات شعرية مليئة بمثل هذه التعبيرات المثيرة للحزن التى يحلو للمرء أن يرددها كثيراً :

« أرى أجدادنا تبنى بلبن
غداً يا صاح أن ترد المنونا
ويصنع من ثرانا بعد ، لبن
به تبنى قصور الآخرينا

ولا تمر عادة هذه المادة الخشنة للدفن دون إثارة ردود فعل خاصة . وكان ابن وحشية وهو من الأحرار فى معتقداتهم الدينية فى القرن العاشر يزعم فى كتابه عن « الفلاحة[2] » أن الجثث المدفونة كانت تسمم الأرض وأن بلاد مابين النهرين كانت مصابة بهذا التسمم . من أجل ذلك زين بعضهم حرق الجثث ، لكن هذه المادة الوثنية لم يكتب لها النجاح . وهناك عادة أخرى ظلت قائمة على الدوام فى المقبرة وهى عادة فصل الجنسين . وتؤكد التجربة أن هذا الأمر كان محرماً تحريماً باتاً . فيعد أمراً إجرامياً أن يجمع فى حفرة واحدة بين جثتى رجل وامرأة اللهم إلا إذا فصل بينهما حاجز من اللبن أو الآجر وما إليهما .

---

(١) سفر التكوين ، الفصل الثالث . (المترجم).

(٢) نشر نصه وترجمته إلى الإسبانية بانكويرى فى مدريد سنة ١٨٠٢ ، وترجمه إلى الفرنسية كليمان موليه ونشره فى باريس فيما بين عامى ١٨٦٤ — ١٨٦٧) .
(المترجم)

واختيــار المقبرة والمثوى الأخير لا يقل عمــا سبق غرابة . وقديماً ، بقى فى عادات المسلمين أن يدفنوا موتاهم فى نفس أماكنهم الأصلية ذاتهــا . وكان الجمهور من الموتى يدفنون فى ظل ضريح لولى محلى . وكان الأغنياء يفضلون الأمكنة المقدسة الرسميــة . وكان بعض المسلمين المنطلين والمعطرين ، والذين ينتمون إلى المذهب الشيعى يحصلون على مقابر فخمة فيما بين بلاد النهرين ، ولــكن السنيين كانوا يفضلون المدينة ، أو بيت القدس أو دمشق ، وما شرع اليهود والمسيحيون يسلــكون نفس المسلك حتى انتظمت مشروعات خاصة بالجنازات فى نفس الوقت الذى كانت بعض الأماكن تفضل غيرها . وكان لابد أن تنشأ تجارة رابحة عن هذه التجارة الجنائزية .

لكن قوة إيمان المسلم لم تــكن تتأثر بذلك ، فهو دائماً على استعداد لمواجهة الموت ، وكان يحمل كفنه فى أثناء أسفاره ، وعندما كان يشعر باقتراب أجله يلف نفسه بنفسه فى كفنه بعد وضوئه الأخير وهو يدعو رفقاءه أن يمضوا فى طريقهم .

الرقيق :

كان العبد قديماً فى المجتمع الإسلامى فى أسفل السلم الاجتماعى ، ولا ينبغى لأى مسلم أن يسترق . وكان « القرآن » ينظر إلى أسرى الحرب غير المسلمين والأطفال الذين ولدوا من آباء أرقاء على أنهم المصادر الوحــدة الشرعية للرق ، وعلى الرغم من أن « القرآن » أمر بحسن معاملتهم ، كان لسيدهم حق الحياة والموت تجاه أرقائه ، وعلى أى حال كان على هؤلاء المحرومين من الحياة الذين كانت تثقل كواهلهم الأعمال الحقيرة أن يؤدوا أعمالا فى المدن ، وكان فى استطاعة أطفالهم أن يلقنوا تعليما خاصاً . والأمة التى كانت تنجب من سيدها كان يطلق عليها « أم ولد » وكان هذا الطفل المميز يولد حراً وشرعياً . ومن ثم ، نرى بعض أولاد الأرقاء يتحررون ويبلغون مناصب عالية سياسية أو اجتماعية . ويصل بعضهم أيضاً — مثل المماليك الأول — إلى قمة المناصب وتحمــلوا أعباء السلطان . وفى الحق أن محمداً (صــلى الله عليه وسلم) كان قد أباح الرق كشر محتوم . . هذا الرق كان قد أباحه سلفاً كتاب العهد القديم . ولــكن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يتوان أبداً عن محاولة تحسين هذه العادة . كما أن « القرآن » والسنة عدا عتق أىّ عبد بمثابة عبادة يتقرب بها إلى الله . .

تجارة الرقيق

يبدو أن تجارة الرقيق ، التي انتشرت من تلقاء نفسها في قبائل مترامية متجمعة بعيداً عن أية رقابة كانت قديماً تكاد تكون وقفاً على اليهود الذين كانوا يغشون الأسواق الكبيرة الأوروبية في براغ وعجد بورج واكس لاشابل والبندقية وجنوة . وكان الأسرى المقبوض عليهم بالجملة في أثناء هذه الحملات في تركستان أو في إفريقية أو في أسبانيا أو في إيطاليا والذين يباعون من جديد بالمزاد موضع تجارة نشيطة . وكان بيع هؤلاء الأسرى ينعقد تجزئة في أسواق تقام في المدن تحت مراقبة رسمية لأنواعهم ولأثمانهم ، لأن الدولة كانت تقتطع من هؤلاء الأسرى عدداً معيناً لسد حاجة الجيش : فكان الأرقاء الأتراك والصقالبة تبعاً لهذا أرفع الجنود منزلة . وعلى العكس يعد أرقاء بيزنطة وأرقاء الهند للحرف الصناعية ، وكان الأرقاء الآخرون يخصصون للأعمال المنزلية ويستخدمون كخصيان وحظيات وفقاً لجنسهم .

كان الراقصون والممثلون والمغنون يختارون في العادة من بين الأرقاء . أما الأعمال الشاقة في الحقل أو البحر فكانت توكل للأرقاء السود .

كان اللون والعنصر والجنس كلها تتدخل كعوامل في تحديد ثمن العبد . ففي القرن العاشر كان أي حبشي شاب يساوي تقريباً من ١٨ إلى ٢٠ ديناراً والشاب الأسود بـ ٣٠ ديناراً والأمة السوداء بـ ٣٠٠ . والجارية البيضاء بـ ١٠٠٠ وأكثر ، حتى ولو كانت لا تتقن صناعة ما . وكانت الشابات الصغيرات الجميلات يؤدين بغية مضاعفة قيمتهن التجارية . وقد ألفت كتب في الأجناس تفصل القول في حسنات كل جنس وعيوبه ومواهبه . وظهر فن خاص لشراء الرقيق وبيعهم . فقبل التوجه إلى الأسواق كان المقدر عليهم البيع يزينون ، وتجمل وجوههم ويزال شعر أجسادهم عند الحاجة لإخفاء حقيقة سنهم . ولم يكن المشترون يجهلون هذه الممارسات في الدلالة فكانوا على حذر منهم . وكان كل مشتر يعرف فوق ذلك الصفات والعيوب الخاصة بأجناس معينة : فكان أرقاء الحبشة ينظر إليهم على أنهم لصوص وهم معروفون بذلك . وكان أحسن الطاهيات يأتين من السند . وكان أرقاء تركيا لا يحسنون الاقتصاد . وكان الأرقاء السود لا يعرفون غير الرقص .

فصل الجنسين :

فى الشرق وحتى فى الزمن المعاصر، يعيش الجنسان منفصلين ولا يختلط مجتمع النساء ومجتمع الرجال بعضهما ببعض . ولم تجر أبداً معالجة الأمور أو المصاحبة بين أشخاص من جنس مختلف عن الآخر لأن الفصل تام بين الجنسين(١) . فهناك مجتمعات وحفلات ومآدب عشاء خاصة بالرجال ، وهناك أدب خاص بالرجل غنى جداً بكتب الغزل . ويعيش النساء من جانبهن فيما بينهن ، ويتزاورن زيارات متبادلة ، وعندما يشغلن بالهن بالأمور الصغيرة الأنثوية اللانهائية ، يكرسن جزءاً من نهارهن فى العناية بأسباب جمالهن التى تمارس فى الحمامات .

وحياتهن أقل رتابة مما يتصوره المرء غالباً ، لكن يظل المستوى الفكرى للمرأة غير المتحررة بسبب الحياة الحديثة منخفضاً جداً ما عدا حالات نادرة . وليس الأمر كذلك على مستوى الشعب . ففى المدينة تشتغل المرأة فى المشغل أو فى المنزل أو فى الحقول . إنها تساعد زوجها وليس هذا عن تعطل ولكن لكى تزيد من موارد الأسرة وفى هذه الظروف ينبغى احترام مبدأ الفصل بين الجنسين بقدر الطاقة . وقد خفف التطور الاجتماعى جزءاً منه ، ولكن لا يزال العرف قائماً .

الخصيان :

كان وجود الخصيان فى منزل دليلا على رفاهية صاحبه ، ولأنهم توابع ضرورية للحريم ، كانت الأسر الميسورة تمتلك منهم الكثير لتعهد إليهم حراسة الحريم والأطفال وكانوا يشترون بثمن غال فى الشمال وفى الهند وفى إفريقيه . وأحياناً يرتفع ثمنهم إذا عهد إليهم خطف رجال الدين الذين كان البيزنطيون يخصونهم لكى يسمحوا لنسائهم بالذهاب إلى الكنائس دون خطر على شرفهن .

---

(١) لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة مراعاة طبيعة كل من الجنسين وأعبائه فى الحياة ، وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة نفسها . [عن سلسلة اقرأ — المساواة فى الإسلام — تأليف الدكتور على عبدالواحد وافى ص ٥١] . (المترجم)

الحريم :

أخذ الناس عن الحريم فكرة غير صحيحة ومعنى الكلمة مقدس ، محرم ، ويقصد بها الجزء الأسرى من المنزل المخصص للنساء ، والذى كان لا يستطيع أحد من غير أهل المنزل التسلل إليه . وإذا كانت شريعة القرآن تبيح للمسلم أن يتزوج أربع نساء ، بل أن يتخذ عدداً غير محدود من الحظيات ، فلأن محمداً صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى تعدد الزوجات على أنه ضرورة بيولوجية قصد بها تعويض عدد الوفيات المتزايد ، والهبوط السريع للقدرة على النسل . فى البلاد الحارة . حقاً إن هذه العادة التى كانت تبررها الضرورة إلى الحريم ، ظلت ترفاً سهل المنال على الأغنياء وحدهم . وفى الطبقة العاملة كان العامل يكتفى طوعاً أو كرهاً بزوجة واحدة . وكان المرء يضحك دون تحفظ من عن أهالى البيوتات المتعددة الزوجات . وعلى أى حال ، فقد قصر تبرير هـذا النظام فى القرون الأولى من الفتح بضرورة تلافى استنفاد العنصر العربى وزيادة عدد مواليده .

البغاء :

الدين من حيث المبدأ يحرم البغاء ، لكن الدولة كانت تأذن به وتنظر إليه على أنه مصدر للدخل . وكانت كل مدينة تملك سوقاً لها من الخربات[١] . وتبنى فى هذه السوق منازل ذات طابق واحد ، وذات ترف وكانت تشبع رغبات الحرفاء المترفين . كما كانت الأحكام الصارمة تقرر من وقت لآخر إيصادها ، وذهب الخليفة الحاكم بأمر الله إلى تحريم الخروج على النساء فى الشوارع ، ومنع حتى صانعى الأحذية من أن يبيعوا لهن أحذية .. لكن هذا لم يكن إلا انتفاضات ذات أمد قصير لأن تكاثر الثروات كان يزيد من الرفاهية بجميع صورها . ومنذ خلافة الرشيد ، كان القصاصون العرب يولمون ولائم ذات نزوات أنثوية من غلمان أو ندمان ، وكان شعراء إباحيون مثل أبى نواس يخصصون لهم أشعاراً غزلة وأخذت هذه الرقاعة وهذا الترقع ينتشران حتى إن النساء بدورهن سقطن فى انحرافات مشابهة تحت حكم الأمين .

---

(١) الخربات = العيوب والعورات والزلات . (المترجم)

الصحة :

كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم قاد العرب إلى درجة من القناعة ومن الاعتدال التي لم يكن لها نظير قط ، فقد لقنهم معارف أولية ، بل دقيقة عن الصحة ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « النظافة من الإيمان » لكنها كانت أحياناً باباً للدخل ، ومن ثم كان الأغنياء يهتمون اهتماماً كبيراً بشخصهم ، فبعد أن يسترخوا لمدة طويلة في الحمام ، وبعد أن يعهدوا بأيديهم إلى مقلم الأظافر ، كان عدد كبير منهم لا يترددون في تطييب أنفسهم ، وفي زيادة بريق عيونهم بتزجيج الحواجب والأهداب بوساطة عجينة أساسها كحل من أصبهان . وكان الفقراء أكثر إهمالا على الرغم من أن الحمامات العامة كانت كثيرة العدد . وكان الناس — أغنياء أو فقراء — يعفون لحاهم التي كانت تحلق من الوسط لكي تميزهم عن اليهود ، وكان المرء يستطيع أن يحدد طبقتهم تبعاً للعناية التي ترجل بها لحيتهم . وفي الحق أن الرجل الشرقي يعنى عناية كبيرة بجسمه ، وتبدو عادة الختان نفسها مقصورة على أنها اهتمام أولى بالنظافة .

الحجاب وذوق العصر (الموضة) :

في كل زمن ، في الشرق ، كان النساء ذات اليسار يغطين الوجه ليصن بشرتهن من قسوة الجو . وقد أمر محمد صلى الله عليه وسلم بنشر هذه العادة بين جميع نساء العرب اللاتي زادهن الاسلام شرفاً . لكن الانتشار العظيم للديانة الاسلامية جعل هذا الاجراء غير عملي ، وأصبح الحجاب من جديد العلامة المميزة لطبقة اجتماعية . وكان وضع الحجاب في الحق غير متفق مع الأعمال الريفية وأعفت نساء الشعب وجوههن من الحجاب . وكانت الملابس وزينة الرأس تتغير مع ذوق العصر . وطيلة القرن الأول الهجري كان الرجال الأشراف يرتدون الملابس من الحرير الأبيض أو الأسود ويتنقلون على صهوة الخيل . وكان أوساط الأغنياء يرتدون ملابس من ألوان قابلة لتحمل القذارة وفيما بعد تحول الأسود والأبيض إلى ألوان زاهية أو متنوعة تنوعاً دقيقاً ، لكن البدوي كان يحافظ دائماً على ملبسه الفضفاض و (شاله) وعقاله .

كان لباس الرأس في العادة مكوناً من عمامة يصحبها وشاح ملون ، وكان الأرقاء

يرتدون قلنسوات من اللباد . وفي عصر الرشيد ، كان ذوق العصر في ارتداء القلنسوات المدببة الأطراف التي كانت في الأصل لباس رأس على شكل طرطور في العصر الوسيط الأوروبي . وكان الحذاء أو النعل أحمر اللون للشعب، وأصفر أو أسود للطبقة الميسورة. وكانت العباءات المنسوجة من شعر الماعز فضفاضة بأكمام عريضة جداً يستطيع المسلم أن يدس فيها أي شيء كزوج من النعال مثلا . والمرأة التي كانت تبقى من حيث المبدأ في الحريم ، تملك صوانا من الداخل مصنوعا من نسيج قطن رقيق، ومن أجزاء عليا لحلل مبرقشة ، ومن أحزمة مبرقشة لامعة برسوم مرصعة ، ومن (تنورات) ملونة عريضة جداً . وفي الخارج ، تلف المرأة نفسها دائما إلى جانب خمار من (شاش) أو من (دانتلا) تغطي الوجه إلى ما تحت العينين ، تلف نفسها بإزار واسع جداً من نسيج حرير أطلسي لإخفاء الأوضاع المثيرة لجسم الأنثى . وترتدي المرأة المتواضعة الحال نفس الملبس ، لكن الأنسجة لم تكن من نوع ممتاز ، وكانت الأصواف والأقطان تنسج نسيجا رقيقا متينا يستطاع صبغها عدة مرات قبل استهلاكها . لذا كانت صناعة الصباغة مزدهرة بوجه خاص .

الملاهي والألعاب الرياضية :

كان لا بد للشرق أن يسبق الغرب بكرم ضيافته ، ورقة أدبه ، ومشاربه الطيبة لدى جميع طبقات المجتمع . وكانت الطبقة الميسورة تتخفف من الولائم والانغماس في الحب بإقامة مباريات في الفلسفة وفي العلوم ، وفي الأدب تتخللها مناقشات لطيفة يسودها دائما البهجة والمرح وكانوا يحضرون أحيانا حفلات من الغناء والموسيقى والشعر وتلاوة آيات من القرآن .

كان الشعب مولعاً بمعارك الديكة ، وحيل المشعوذين والسحرة وبمسرح (الأراجوز) وكان يستمع أحياناً إلى أغاني الشوارع أو يتغنى بأغانيه الخاصة . وكان يتقبل بسهولة — وهو البسيط المرح في حياته الجارية — المصاعب والتعقيدات ، وكان يتلقى ضيق الحال بصبر واحتمال . وكان يعرف الامتثال لضربات القدر بعزة نفس . وعرف المسلم ذو الروح اليقظة والفهم السريع على مدى الأيام أن يتسلى بالقليل ويضحك في طلاقة

وكانت المباريات الرياضية من قبل ذات منزلة كبيرة . وتروى النصوص المعاصرة أن العرب كانوا يمارسون بانتظام الملاكمة والمصارعه والألعاب الرياضية والمبارزة بالسلاح الأبيض والقوس والرمح والفروسية (والبولو[1]) وكانوا يلعبون بالشطرنج والنرد ، لكن لعب الميسر كان محرماً ، وإذا كان سباق الخيل فيما سلف ذا فائدة عظيمة فان الصيد كان يشكل أكثر المسليات شأناً .

ولكى ننتهى من هذا الحديث مع هذا الفصل عن الأخلاق والعادات يجدر بنا أن نلق نظرة فى الأحوال المادية لمساكنهم .

المنزل

فى الشرق كانت منازل الفقراء كما هى عليه الآن لا تكاد تزيد صلابة ورحابة عن الخيمة . وقد أقيمت هذه المنازل على غرار الخيمة بحيث لا تصلح إلا لحياة قصيرة ، فقد بنى سوادها بلبن أو ملاط مع سقف من سعف النخيل ومن طين مجفف ، وتبنى أحياناً منازل الطبقة (البورجوازية) من طابقين وقاعة ملائمة للاقامة محلاة بقبة وشرفة ويطل باب الدخول على فناء داخلى بحديقة ونافورة من المياه ، وجزء من الحديقة مخصص للأزهار . ويتجه فى الأصل فن معمار هذه المنازل إلى توفير أكبر قدر ممكن من العزلة والأمن قبل كل شيء . ومن النسيم العليل بعد ذلك . ومن أجل ذلك توصد الأبواب دائماً إيصاداً محكماً بالمزلاج . وتسمح النوافذ المزودة بعريش من الخشب المحفور (مشربيات) والتى تقوم فى وقت واحد مقام النوافذ ، والستائر والمصاريع ، تسمح هذه النوافذ بمرور الهواء ، وتتيح الرؤية من الداخل إلى الخارج ، وتمنع الرؤية من الخارج إلى الداخل . وتشكل السقوف سطوحا تصونها فتحات صغيرة مثقوبة من أجل مرور الهواء . وكانت أكثر المنازل يساراً خالية من أنابيب المياه ، ووسائل لتوصيل المياه . وعند خلو البيت من صهريج أو بئر ، كان العرب يجلبون المياه بوساطة القرب ، كما أن المنزل العربى كان به غرفة صغيرة ذات حفرة لقضاء الحاجة ولم يكن للدار موقد ، وكانت وسائل التدفئة تعتمد على مواقد سهلة الحمل .

---

(١) المعروف عند العرب بالجحف . (المترجم)

وعند الفقراء ، تغطى الأرض الخشبية إما بالبسط أو بالحصير ، وتطلى الحوائط المبنية من الجبس بألوان متنوعة ، وعلى الجوانب الثلاث من الغرفة يشكل الحائط مصطبة منخفضة تغطى ببسط أو بوسائد تقوم مقام المقاعد ،وفى الليل عدعليها الفراش وتشكل الأريكة قطعة الأثاث الرئيسية لحجرة الأكل ، ولما كانت مستندة إلى الحائط ذى ثلاثة الجوانب من الغرفة ، فانها تغطى دائماً بمساند وتشكل مقاعد أخرى من الجلد موضوعة هنا وهناك على البساط وكذلك موائد صغيرة منخفضة تشكل هذه القطع من الأثاث لهذه الحجرة الرئيسية . ومع الموائد والمقاعد والمساند يتكون أثاث التدبير المنزلى من أطباق وأدوات من النحاس ، وأباريق وأحواض وأوانى ومصابيح تأذن بمرور الضوء موضوعة أمام المرايا وجوات فى الحائط ذات شكل قوطى تستخدم لترتيب تحف صغيرة أو كتب . ولا يوجد عادة قمطر (دولاب) ، بل خزائن مزودة بأقفال متينة توضع فيها الملابس الداخلية والملابس الخارجية وكذلك المراتب والأغطية ومساند للرأس . ومع ذلك ، وحتى إذا عنينا المنازل المتواضعة ، فان البيت العربى يمثل مظهراً من الترف والرفاهية بفضل البسط والطنافس والستائر . وتساعد أخيراً الأسقف والحوائط المزينة بملاط من كلس ، ومن رخام ، ومن رسوم ملونة ، ومن فسيفساء على إعطاء جو دافىء رائع .

وفى المدن ، كانت تتجمع المنازل فى أحياء متميزة تبعاً للطوائف أو القبائل. وكانت أحياناً تتجمع مختلف الطوائف فى حى واحد .

وابتداء من القرن العاشر ، وتمشياً مع نمو عدد السكان ، حتم على العرب أن يتجمعوا فى عمارات مكونة من ستة طوابق أو سبعة أو ثمانية . وكانت هذه الأبنية مكونة دائماً من أربعة مساكن أصلية يحيط بها فناء داخلى مجهز بحديقة . وكان كل طابق مزيناً برواق من الآجر المنحوت فى المحيط الذى كانت تشق منه المساكن طريقها وكان من الصعب جداً على النساء أن يحمين أنفسهن داخل هذه المساكن من الحرارة أثناء الصيف الطويل اللهم إلا بأن يظهرن غير محجبات . وكان الجميع يحتالون مع ذلك عشقة على خلق نسيم عليل ثابت بمساعدة بعض الطنافس المرشوشة غالباً بالمياه وبجهاز من المراوح التى تهز ببطء .

وعلى الجملة كانت معدات هذه المنازل لا تنقصها رفاهية ، أو أناقة . فالأفنية التى

كانت تنفجر من وسطها نافورات من المياه الرفيعة المجنحة ، كانت تتجلى فى شكل بساتين مصغرة ، تسترعى النظر إليها بأراضيها المغطاة بالعشب الأخضر المنسقة بشكل يثير الإعجاب والمزينة بالأزهار والرياحين .

التغذية :

كان للمطبخ أوفى نصيب من العناية فى الربوع الإسلامية ، وقد خصص عدد من الطرق لفن الطهو ويذكر من بين الطرق الأخرى كتاب « الوصلة إلى الحبيب » من من تأليف أحد أحفاد صلاح الدين و « كتاب المطبخ » لمحمد البغدادى فى القرن الثالث عشر . وفى مختلف طبقات المجتمع كان يحلو للعرب الاجتماع حول الموائد المزودة بأشهى الأطعمة . وكان استخدام الشوكة غير متداول ، بل كانوا يأكلون بأصابعهم ثم يغسلونها مستخدمين فى ذلك الأباريق والطسوت والفوط المصنوعة من القطن الرقيق ، وكان استخدام هذه الأدوات شائعاً لديهم . ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق لأكل الثريد الذى كان فى العادة لذيذ الطعم حتى عند الفقراء منهم .

وإذا كان القرآن قد حرم أكل الميتة أو الذبيحة التى ذبحت على وجه آخر غير الشرعى وكذلك لحم الخنزير أو الكلب ، أو لحم ما أهل لغير الله به فان الخضر على العكس كانت منتشرة جداً . فكان الإيثار يجرى على الباذنجان واللوبيا والحمص والكراث والبصل ، وكان كل شيء متبلا بشيء من فلفل وأفاوية .

كان دهن الخروف المذاب والمطيب كثير الاستعمال فى المطبخ ، وكان الزبد عادة مخصصاً للسكريات والحلوى التى كان لها قدرها بخاصة عند خبراء المآكل الفاخرة . وكانت التوابل من قرفة ، ومن حبة القرنفل ، وفلفل أسود ، وزنجبيل ، الخ .. . وكذلك الفواكه ممتازة امتيازاً لا مثيل له . وظل النبيذ فى الأصل محرماً . و مع ذلك ، كان الشعراء يشيدون بمزاياه إذ كان محبباً لديهم التغنى بالقصائد الخمرية التى لا تقل فى قوة نسجها عن القصائد الأخرى فى الأدب العربى .

كان الفقراء يعيشون على ثريدة من اللبن أو على حساء من اللبن (اسبيذج) ومن الدقيق (عصيدة) ومن طعام متبل من الباذنجان . وكانت الأكلات الشهية تحتوى على البطارخ والفطائر المحشوة من عش غراب صحراء الجزيرة العربية وعلى لحوم مشوية

ودجاج ، وفطائر من الفواكه المحشوة . وكانت هـذه الأطعمة تعد بعناية فائقة . وكان بعض الراقصـات والموسيقيين يحبون الولائم التي كان يعقبها أرق وأندر عطور الجزيرة العربية التي تفوح بأبخرة عطرية من مباخر ثمينة .

ظهرت القهوة الحجازية في القرن الثاني عشر ، على حين أن الشـاى الصيني المعطر بالنعناع كان منذ وقت طويل له مكانته ، أما استعمال التبغ فلم يدخل في العـادات العربية قبل القرن السادس عشر .

قد لا نستطيـع أن نختتم هذا الفصل القصير دون استرجاع العادات والأصول والعلاقات المجاملة التي كانت تفرض نفسها في أثناء المآدب والاستقبالات . ويوضح كتاب مختصر في آداب السلوك عن هذا العصر أنه من الضروري أن يتصرف المرء بأدب رقيق وأن يستعمل أساليب رقيقة وألا يتخلى أبداً عن أى شـكل من أشـكال الوقار وجدير به أن يتجنب بعناية المزاح الخشن الذى يجرى في غير موضعه . ويقتضى حسن الهيئة أن يكون الملبس نظيفاً وغير مستهلك . وفي أثناء تناول الطعام على المرء أن يتحاشى الإفراط في تناول الثوم والبصل وأنواع الفلفل ذات الرائحة النفاذة ، وعليه أن يتحاشى كذلك أن يمص أصابعه على المائدة وأن ينظف أسنانه بمرأى من الناس .

(٨)

تطور الدولة والأمة

يقال إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معان مختلفة : المعنى الأول دين ، والثانى دولة ، والثالث ثقافة ، وبالاختصار حضارة فريدة .

بعد أن خضع العرب للتربية الدينية ، كان التبشير بنظام جماعى وعسكرى بين بدو عرفوا بالفوضى والفردية كأنه تبشير فى صحراء بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة .

وقد نجح محمد (صلى الله عليه وسلم) مع ذلك فى ربط هؤلاء البشر الجفاة بأوضاع غريبة جداً على طبيعتهم . لكن عندوفاته — كما حدث الرواة — زعمت قبائل معينة أن الخليفة لم ينتخب من بينها وأن أشراف المدينة ليسوا جديرين بحكمهم . وإذ قامت هذه القبائل على الردة فقد اتجهت نحو المدينة وكانت فترة من فوضى شاملة .

وفى بضع معارك قصيرة وعنيفة حقق الخليفة أبو بكر (المتوفى فى المدينة فى عام ٦٣٤) وحمو محمد (صلى الله عليه وسلم) وخليفته ، بمساعدة خالد بن الوليد (٥٨٢ — ٦٤٢) سيف الإسلام ، بقوة السلاح ، حكم شريعة « القرآن » الذى هو فى الوقت نفسه تأكيد لحكمه نفسه . وقد كان هؤلاء القواد المسلمون ، وهم تابعون متحمسون لمحمد (صلى الله عليه وسلم) يحاربون بنفس الإيمان الذى يؤدون به الصلاة . وهذا الإيمان المتوقد الذى كان يحث جنودهم على الجهاد ، أثر تأثيراً بعيد الغور فى أعدائهم ، وعند ما عاد المرتدون إلى العقيدة الدينية الحق ، تحققت من جديد الوحدة الدينية والسياسية معاً تحت سلطان حاكم واحد . وأسست الدولة الإسلامية مستوفية جميع الأركان .

لقد أراد المؤرخون أن يروا فى انتشار الدولة العربية والأمة العربية وفى تكوينهما ثمرة تخطيط أقيم سلفاً ، بعد تأملات ناضجة حكيمة .

وفى حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يتهم بالجنون كل من يتنبأ بمثل هذه الأحداث ، ولم يتبادر كثيراً إلى ذهن خلفائه التمهيد لمجازفة خطيرة واسعة النطاق .

وإذا كان هناك منطق فى هـذا التعاقب من الأحداث الخارقة للعادة ، فإنه يتجلى فى الاستغلال الواسع النطاق للظروف المواتية .

لقد كانت القبائل العربية تتقدم على الدوام متوغلة بعيداً أو قريباً خارج حدود الجزيرة العربية ، وقد أدرك البيزنطيون فجأة أن هـذه القبائل كانت تركز نفسها كثيراً فى كل مرة وأن غزواتها أصبحت متكررة أكثر فأكثر فإذا كانت هذه الغزوات الحربية قد استجابت للغرائز العريقة فى القدم لرجال تعودوا أن يقاتل بعضهم بعضاً ، وإذا كان هؤلاء الرجال قد كفوا عن القيام بهذه اللعبة على أرضهم الخاصة ، فإن هذا يفسر لنا أسباب انتشار فتوحاتهم كما يبرر كذلك وفرة هجماتهم وعنفها . وعند ما كان خالد يمتطى صهوة جواده فى جنوب العراق إذ به يظهر فجأة بالقرب من دمشق ليساعد بعض القبائل فى معركتها ضد بيزنطة حتى قيل إنه وقع من السماء . وكان قد سار فى المقدمة ، وكله ثقة فى هؤلاء الجنود الممتازين المدربين تدريباً عظيماً فى صحراء لا طرق فيها ممهدة ولا ينابيع مياه .

وترجع سهولة تحركاتهم ومباغتتها إلى تناسق ملحوظ من عناصر ملتئمة ، وإلى قيادة حازمة كانت تظفر دائماً بشىء جديد . وكانت تستطيع أن تعوض عدم الكفاية العددية للقبائل كما أنه ظهر فجأة للأعين العربية المشدوهة ، أن المستقبل كان يناديها للانتصار والفتح . فقد كانت الأسباب الاقتصادية والسياسية والدينية تجعل النجاح محققا ، ومن جهة أخرى لم تعد التربة القاحلة للجزيرة العربية قادرة على تغذية سكان يزدادون على الدوام . وكان ضعف بيزنطة والفرس وانهيارهما الكامل مما يحث أخيراً على مهاجمة هاتين الامبراطوريتين بكثير من الاقتناع لاسيما أن قبائل كثيرة كانت تدعو إلى مساعدة اخوانهم المسلمين .

وقد اعتقد العرب فيما بينهم وبين أنفسهم — على غرار محمد (صلى الله عليه وسلم) — اعتقاداً صادراً عن إدراك وضرورة أن الإسلام يستطيع بل ويحتم عليه أن ينتصر بالسلاح ، فلم يصعب كثيراً على الخليفة عمر (٦٣٤ — ٦٤٤) وهو الذكى ، الحازم ، والمدرك لهذا المفهوم الحركى (الديناميكى) للاسلام أن يحسن توجيه المسلمين لكى يدركوا عظمة رسالتهم . وكان على عمر فى أثناء ذلك ، وهو الخليفة المظيم الكريم أن يعزل خالداً الذى كان قد شان شهرته فى الشجاعة أكثر من مرة بسبب الأعمال القاسية المتكررة

فقد دل هـذا العقاب المثالي للعرب على أن دعوتهم ليست مقصورة على دعـوة جنود للاسلام فحسب بل كانت كذلك دعوة رواد له ومبشرين به .

وتكشف الفتح العربي إذ ذاك عما كان يمكن أن يحققه الاقدام والايمان . فقد استولى العرب على دمشق فى سنة ٦٣٥ ، وانطاكية فى سنة ٦٣٦ وبيت المقدس فى سنة ٦٣٨ ، وبقية بلاد سوريا فى سنة ٦٤٠ ، وفارس ومصر فى سنة ٦٤١ ، وتوالت الفتوح بعضها إثر بعض وهـكذا فى أقل من عشر سنوات بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت حفنة من الجنود قد جعلت من نفسها سيدة لامبراطورية مترامية الأطراف. ومن ذالك الوقت ، عاشت القبائل العربية فى هذه الربوع ، وأصبحت أصلا لذرية . وتكاثرت بسرعة ، على حين أن قبائل أخرى بدوية كانت تقبل أيضا على دعم تأثيرها المستعرب باختلاطها بالسكان الأصليين الذين كانوا يحيون حياة هؤلاء العرب المستعمرين . وكانوا يهرعون من كل صوب ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن فارس إلى طرابلس الغرب . ولـكن ، عبر هذه الامتدادات الشاسعة ، وفى زحمة هذه القبائل الأجنبية ، لم يكن العرب إلا أقلية ضعيفة . ولم يطل بهذه الأقلية المتحفزة ، النابهة المقدام وهذه أصدق صفة لها ، لم يطل بها البقاء حتى ترى أن الربوع المغزوة كانت آخـذة فى الانهيار مافى ذلك شك . وكانت هذه الأقلية منظمة تنظيما حسناً ، ومن ثم لم تغير شيئاً من الجهاز الإدارى الذى وضع من قبل . وكان عمر قد حرم على أتباعه، الاستحواذ على الأراضى كى يحافظ فى عزم على الطبقة العسكرية وخصائصها الحربية . ولا جرم ، فقد طالب المنتصرون المغلوبين بالفوائد الاقتصادية والمالية دون أن يلحق ذلك ضرراً ، بالناحية السياسية والمادية . هذا إلى أنهم ، وعلى عكس ما كان يعتقد فيهم ، قد عرفوا بفطانة تثير الإعجاب وبحماسة سياسية صادقة ، صانتهم من التأثر بأى تبشير لدين آخر ، وكان السكان المغزوون يحتفظون بدينهم التقليدى فى نظير ضريبة عقارية ، وجزية . من أجل ذلك كان نظامهم فى الحياة يسير سيره الطبيعى كما كان عليه فى الماضى . وخلدت من جديد ذكرى الحضارات القديمة والثقافة اليونانية مع الثقافة الإسلامية التى كان لزاماً عليها أن تنمى نفسها على أسس هذه الحضارات . وقد حدث أيضاً أن الشعوب التى اهتدت بهدى الإسـلام انتهت إلى نسيان ماضيها التاريخى الخالص ، وإلى مزجه بالحاضر كأنما الإسلام سيكتب له البقاء . وامل امتزاج هذه الحضارات لم يكن بعد امتزاجاً تاماً .

وقد قتل سنة ٦٤٤ عمر الورع الذى كان يتألم وهو يشاهد شعبه وقد غرق إلى أذنيه فى الثراء ، ثم قتل خليفته عثمان على هذا المنوال فى سنة ٦٥٦ ، وكان الحزب الهاشمى ينادى حين ذاك بخلافة على زوج بنت النبى (صلى الله عليه وسلم) . لكن الطبقة الارستقراطية للقبائل القرشية والتى كان على رأسها أموى داهية هو معاوية ، حاكم سوريا ، هذه الطبقة ثارت ضد على الذى مات مقتولاً بسبب المتطرفين من حزبه الخاص والخوارج الذين كانوا ينادون بالمساواة . وعند ما نودى بمعاوية خليفة فى سنة ٦٦١ ، أعد عاصمته فى دمشق وحاط نفسه بجهاز حكم ملكى منقول عن بيزنطة وعن حكم الله . ومن أجل ذلك كان لا بد له أن يقوض عقيدة الخلافة المطلقة باتخاذ مبدأ الوراثة بالنسبة للخليفة ، بدلا من الانتخاب الذى مورس حتى ذلك الوقت عن طريق رؤساء الطوائف . ومنذ ذلك الوقت ، يبدوأن العشيرة الأرستقراطية فى مكة انتصرت على عشيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أصبحت الجمهورية الثيوقراطية من الأعقاب ملكية مدنية وراثية . وأسس معاوية — وهو إدارى كبير وسياسى ذكى — أول مجتمع إسلامى منظم . وباستثناء بعض فترات من الضعف ، فإن فترة الأمويين التى استمرت قرناً ، كانت فترة مجد للاسلام ويرجع الفضل لهذه الأسرة فى إيجاد حكومة حرة ومنظمة لهذه الامبراطورية المهيبة التى امتدت من النيل إلى الهند .

وعلى حدود العالم الإسلامى فى الشرق كان الفرس والمصريون قد ضاقوا ذرعاً بسلطة دمشق السياسية . ولم يكن أهل بيت النبى (صلى الله عليه وسلم) بأقل نفوراً بسبب أخلاق الأمويين المنحرفة وبسبب تهاونهم الدينى . وعلى ذلك أخذت الميول الانفصالية للقبائل تشتد يوماً بعد يوم . وكانت الروح القبلية التى حاربها محمد (صلى الله عليه وسلم) بكل قوة ، والتى قهرها من وقت إلى آخر حكام صارمون ، تظهر من جديد بدون توقف ، وأخذت تتكشف كعائق رئيسى لتحقيق قوة موحدة . ويجمع أبوالعباس — أحد ذوى القرابة من النبى (صلى الله عليه وسلم) — يجمع المنشقين والقوى المعادية فى تحالف واحد ، ويأمر بقتل جميع الخلفاء الأمويين معلناً بذلك عودة أسرتهم إلى الأبد ، ثم ينصب نفسه خليفة تحت اسم « السفاح » وينقل عاصمته إلى بغداد سنة ٧٥٠ .

وكان لزاماً على الخلافة العباسية التى نشأت فى حمام من الدم أن تمر فى أثناء ذلك

بمصر عرفت فى غضونه ألواناً من الرفاهيـة والترف ، كما عرفت فيه ازدهار الآداب والعلوم والفنون . وستشرق ببريق وضاء جداً على طول القرنين التـاسع والعاشر ، وسيقرر إشعاعها الروحي والسياسي العصر الذهبي « للحضارة العربية » وبعـد موت « أبي العباس » فى سنة ٧٥٤ قام خليفته المنصور بتثبيت دعائم الأسرة العباسية . وعلى يد خالد البرمكي الذى اختاره المنصور وزيراً نشأ عصر الرخاء الذى جنى ثماره هارون الرشيد الذى أصبح حكمه أشهر حكم فى تاريخ العصر الوسيط ، وقد أثبت وزيره يحي البرمكي أنه من أحسن الإداريين فى الامبراطورية .

هذا ولعل التاريخ لم يظفر بحاشية ملكية مثل حاشية هارون الرشيد التى ضمت كوكبة من العقول الناضجة المتنافسة . ولم يكن الخليفة مولعاً بالموسيقى والفن وحدهما ، بل كان يجيد الحكم ، وحماية الحدود ، وقيادة الجيوش فى حذر ، والقضاء بعدل ، وعلى الرغم من عطاياه ، وبذخه ، بل اسرافه الذى لم يستطع أحد أن يجاريه فيه فإنه وجد عنـد ما مات فى الثانيه والأربعين ، أنه ترك فى صناديق الخزانة أكثر من ٨٤ مليوناً من الدنانير وهو مقدار يساوى ١٠٠ مليار من الفرنـكات القديمة وترك امبراطوريته بين يدى ابنه المأمون الذى كان لابد له أن يتابع سيرة الخلفـاء الكبار . واستطاع المأمون بحكمته وسعة نظره وشمول أفـكاره أن يجمع فى مجلسه ممثلى جميع معتقـدات امبراطوريته ، حتى أحرار الفـكر . ولمـا كان نصيراً للعلماء والأدباء واسع الأفق فقد حث على نشر الآداب والعلوم والفنون ، وأمن انتشارها عبر العالم . وفى ظل إراداته الدافعة أنجزت تراجم المؤلفات الإغريقية إلى العربية على أوسع نطاق .

حقاً ، لقد بلغ الإسلام فى هذا العصر الذهبي ذروته . .

الباب الثانى

(٩)

ذروة الإسلام

الحياة الاجتماعية :

فى العصر الذى بدأ مع الخلفاء الأول ، كان سكان الامبراطورية ينقسمون أربع طبقات . فنى طليعة الطبقات الأربع : الخليفة وأسرته والوزراء والطبقة الارستقراطية من الفاتحين العرب ، ثم المهتدون الجدد الذين اعتنقوا الإسلام إما عن مصلحة أو عن عقيدة ، وكانوا يتمتعون فى الأصل بشريعة المسلمين . وكانت الطبقة الثالثة تتشكل من من الذميين أو من ممثلى الملل المتسامحة أو أصحاب الأديان المنزلة التى تدعو إلى وحدانية الله : مثل المسيحيين واليهود والصابئين الذين يطيعون سلطة رؤسائهم الروحانيين ؛ وكان الرقيق يشكل أخيراً الطبقة الدنيا من المجتمع الإسلامى .

من المعروف أن العرب لم يجلبوا معهم ثقافة خاصة . فقد ظلت ثقافتهم سريانية أو هندية — فارسية أو يونانية أثناء فترة الأمويين التى لم تستطع أن تكون غير فترة حضانة بسبب الظروف المضطربة . لكن القادمين الجدد لم يتوانوا عن أن يمتزجوا بفنون السلم . وقد استفادوا من براعة الأجناس المغزوة وطريقتهم الفنية ، الأمر الذى دفعهم إلى خلق فن مبتكر على وجه السرعة . هذا الفن المبتكر شكل مظهره الأول فى فن المعمار الدقيق . أما فيما يخص الأدب فقد كشف التقدم فيه عن عظماء كذلك ، وضعوا أساساً للازدهارات العظيمة فى الأسرة العباسية . وقد حافظ نفوذ الخلفاء على سلطتهم المطلقة طيلة ما يقرب من قرنين ، وعند ما اقتطع امراؤهم — سواء منهم من كان غير عربى الجنس أو من كان على خلاف سياسى ودينى مع بغداد — دولا لأنفسهم أقاموا فيها حكمهم على « القرآن » وهكذا لم يتوقف انتشار اللغة العربية ، والدين الإسلامى بين الشعوب عن السير قدماً .

ومن المهم أن نلاحظ أنه ليس هناك أى وجه للموازنة بين انتشار الدين الإسلامى عبر العالم وبين التطور والانتشار للديانة المسيحية التى كان محتوماً عليها أن تغزو الجموع البشرية ، بإغرائها بمثل عليا من البر والمحبة والتسامح — وكان المسيح والحواريون يعلمون جهاراً . أن « أحبوا بعضكم بعضاً[1] » وربما كان النبى (صلى الله عليه وسلم) على حق تجاه منهج أكثر إنسانية وأقل تنقيماً فى أن يشير إلى أن أجمل مثل أعلى لا بد من تعزيزه بسلطة سياسية وقوة عسكرية . وحقاً ، لم تكن السرعة المذهلة للتقدم الدينى للاسلام إلا النتيجة المباشرة لأعمال سياسية ولفتوحات حربية .

الادارة :

تشكلت فى ظل حكم العباسيين ، تحت رقابة الوزراء المعهود إليهم بالرقابة العليا على الموظفين وتوجيه سياسة الدولة ، إدارة مركزية وإقليمية كان لزاماً عليها أن تؤمن استمرار الامبراطورية على الرغم من تغيير الأمراء ومؤامرات القصر . وكان الوزراء فى الغالب يختارون من بين أعضاء أسرة واحدة ، وكان أشهر البيوتات الوزارية ، بيوتات البرامكة ، والمهلبيين والآمديين ، والكلدانيين ، وكل هذه البيوتات من أصل فارسى ، وإذا كانت بعض هذه البيوتات وهم البرامكة ، لاقت مصيراً مؤلماً على الرغم من سلطانها الذى لم يكن له مثيل ، فإن كثيراً منها أجادت عن براعة الاحتفاظ بسيادتها . كما أن أسرة المهلبيين شغلت أرفع المناصب طيلة أكثر من عشرة أجيال وبلغ أربعة من أهم أعضائها أسمى المناصب ونجحوا فى الحفاظ لأنفسهم بها إلى درجة أن هذه الأسرة التى كانت تتكون من كبار الموظفين المزودين على نطاق واسع بالسلطة وبالثراء نهضت بتشكيل دولة داخل « الدولة » .

---

(١) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من البر والمحبة والتسامح ، فإن التاريخ يشهد بأن المسلمين ينادون على الدوام بالبر والمحبة والتسامح ويوصى «القرآن» فى كثير من آياته بذلك . والواقع أن البر والمحبة والتسامح فى الدين الإسلامى ممزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . (المترجم)

ومن وجهة النظر الإدارية كان ينظر إلى إدارات الجند والمال على أنها ذات مكانة مكينة وكان بيت المال ينتظم مجموعة من الموظفين الكثيرين ، ثم يأتى بعد ذلك ديوان الرسائل الذى كان يتولى الأعمال الخارجية ، وإدارات الشرطة والبريد ، ومكتب للشكايات يمكن أن يتمثله المرء على أى حال بمحكمة استئناف تشريعية وإدارية . وكان الموظفون فى الغالب من غير المسلمين . وكان عددهم كبيراً تنتظمهم طوائف مهنية تشبه النقابات الحديثة . وعند ما أرادت الدولة حسن مكافأتهم وافقت لهم بسرعة فى القرن العاشر على الراحة الأسبوعية فى يوم الجمعة ، ثم أضافت إليه بعد قليل يوماً آخر ، هو يوم الخميس .

الشريعة :

كانت الشريعة تصدر عن « القرآن » ، وكان الفقه فرعاً من علوم الدين ، لكن أمام كثرة الحالات غير المستدركة ، لم يلبث القضاة أن رأوا أنفسهم مضطرين إلى الرجوع إلى السنة ، وهكذا أصبح الحديث المصدر الثانى للتشريع .

كان الخليفة نفسه هو الذى يختار القضاة من بين علماء الشرع أى الفقهاء . ولما كان القضاة طائفة قوية فقد كان بيدهم سلطان ومنزلة رفيعة فى آن واحد تمثل الطبقة الدينية . ولما كانوا نفعيين فى معظم الأحوال ، أكياساً بمقدار ما كانوا يحترمون القضاء ، ويوحون بالرهبة أكثر من إيمانهم بالاحترام ، فقد كانوا يعضدون سلطة الحاكم المطلقة ، لكنهم كانوا يلينون للمؤثرات الخارجية . ويرون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يتحرج فى القول بأن كل قاضيين على الأقل من ثلاثة جديران بالنار ، وقد يقال اليوم إنهم لا يساوون الحبل الذى يشنقون به[١] ، لكن المتقاضى لا يميل أبداً إلى العدالة . وباستثناء القضايا الجنائية التى كانت تتعلق بمصلحة الدولة العليا كان القضاة أهلا للفصل فى جميع الجرائم . وكانت محكمتهم تنعقد بجانب المسجد الكبير ويتم الفصل

---

(١) جاء فى السنن عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، قاض عرف الحق فقضى به فهو فى الجنة ، وقاض عرف الحق فقضى بخلافه فهو فى النار ، وقاض قضى عن جهل فهو فى النار . (المترجم)

فى الدعاوى علانية وكانت هيئة القضاء بما لها من سلطة مطلقة مجهزة بكاتب وحاجب ، وضابط ، وبعض الحرس المكافين احترام الجمهور للنظام والسلطة العامة . وكما كانت هناك أسرات توارثت الوزارة والإمارة كذلك كانت هناك أسرات قصرت نفسها على القضاء يخلف فيها الابن أباه ، فقد كونت أسرة أبى الشوارب فى بغداد ، وأسرة أبى بردة فى شيراز فى قرنين سلالتين شهيرتين فرضتا نفسيهما بسهولة فأن شهرتهما فى فى طهارة الذيل والشرف كانت راسخة كل الرسوخ . وفى دواء القضاء ، كان للقضاة من مختلف المراتب وضع خاص ، وكانت هناك مهنة تسمى مهنة « رجل عدل » . وبموازنة هؤلاء موازنة كافية بالمهام الراهنة لوكلاء المودعين نرى أن الأغنياء قد جعلوا من هذه الأعمال رويداً رويداً ، مهنة قابلة للاتجار فيها بنفس اللقب وبنفس الطريقة التى يناقش المرء بها اليوم شراء أو بيعاً فى مكتب لموثق عقود أو توكيل دعاوى أو لمحضر . وكان هناك أيضاً وكلاء موثقون ، لكن المهنة كانت مزعجة جداً ، وخادشة للشرف كثيراً وكثيراً ، إذا وثق المرء فى حديث ابن الاخوة ، الذى كتب فيهم يقول : « وأما الوكلاء الذين بين يديه فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم فى هذا الزمان . فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتمسكون فيه بسبب الشرع فيوقفون القضية فيضيع الحق ويخرج من بين يدى طالبه وصاحبه فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل. فكان ترك الوكلاء فى هذا الزمان أولى من نصبهم »

وقد اعترف بأربعة مذاهب للفقه عند أهل السنة ، وكانت مدرسة القياس لأبى حنيفة (٧٦٧) تقرر أن « القاعدة الشرعيــة تعبر عن عرف عام ، وتتغير مع الظروف التى أحدثتها » ، ووقف مالك (٧٩٥) ضد هذا الاتجاه التقدمى معتمداً على دراسة ١٧٠٠ حديث فقهى . وكان يرى أن اجماع أهل المدينة التى ظهر فيها الحديث أصل من أصول الفقه . أما الشافعى (٨١٩) فقد ذهب إلى أن الاجماع أوسع من ذلك ، وهو عبارة عن إجماع سائر المسلمين فى عصر معين . ورأى أحمد ابن حنبل (٨٥٥) أن هــذا الأصل شديد الابهام فأسس مدرسة رابعة ، أكثر مطابقة للدين وتحدد الفقه بالقرآن والسنة . وعلى الرغم من هذه الاختلافات فى الرأى ، وعدم اتفاقهم فى المبدأ فإن المذاهب الأربعة لم تكن تختلف من جهة التمسك بالدين ، بل من جهة تكثير الأحكام والفروع ، حقاً ، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسى لحياة المسلم ، ولم يتعرض ما جاء فى القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات ، ولا لتبديلات بعيدة الغور .

الممول والضريبة :

لم يكن الإسلام يعترف فى الصدر الأول إلا بثلاثة أنواع من الضرائب وهى خراج أموال الأرض وقيمته العشر ، والزكاة وهى ضريبة « التأمين الاجتماعى » التى يدفعها المسلمون وحدهم ، وجزية الرءوس التى يدفعها جميع الذميين غير المسلمين عوضاً عن الخدمة العسكرية . وكانت الضرائب الأخرى التى كانت تفرض بانتظام مع نمو المؤسسات تؤخذ على أنها مخالفة للعدل والانصاف . بما فى ذلك الضريبة على العاهرات .

ولتحديد جزية الأرض ، كان يعمل حساب خصب الأرض وكذلك سهولة الرى . وكان يفرض على المراعى الخصبة الشاسعة من الضرائب أكثر مما يفرض على زراعة الخضر ولكن فى حال عدم الدفع ، كانت الجزاءات قاسية : فكان القبض والسجن والجلد ، وقد خفت رويداً رويداً هذه العقوبات حتى إذاما رئى الرجوع إليها ، توحدت الاحتجاجات ، ولزم على الدولة أن تنحنى أمام هذه الاحتجاجات .

وعن طريق خلق ضرائب غير مباشرة ، يذل الوزراء كل جهدهم ومهارتهم فى الكشف عن مصادر جديدة للدخل فقد استحدث من أجل ذلك احتكار الدولة الثلج لشرب المرطبات ، والحرير الثخين والحرير العادى ، وعطر الورود ، وعلى الرغم من أنه كان من الصعب فى بلد إسلامى احتكار المشروبات الروحية الممنوعة أصلا ، فإن الضرائب والضرائب الإضافية نجحت مع ذلك فى الوصول إليها . وعلى هذا النحو ، وعلى الرغم من أن قانون الشريعة الإسلامية حرم مكوس الجمرك ، فإنه كان يحصل دون شفقة عدد لا حصر له من المكوس والضرائب لا على تخوم العالم الإسلامى فحسب ، بل كذلك على الحدود الداخلية التى كانت تفصل الدول الإسلامية بعضها عن بعض ، وكانت هذه المكوس الجمركية فادحة أحياناً . وكانت تبلغ بين ١٠ ٪ و ٢٠ ٪ من القيمة الأصلية بحسب طبيعة البضائع والحوادث السياسية للحال الراهنة . ومهما يكن من أمر فى العصور الأكثر عسراً ، فان استغلال الدولة للانسان لم يبلغ أبداً فى أراضى العالم الإسلامى مبلغ الشدة التى لا رحمة فيها للعالم الآسيوى القديم أو لمصر الوثنية أو حتى للعالم المسيحى . ولقد عرف العالم الإسلامى دون شك البؤس والشحاذة لكن العون الفردى لم يفقد أبداً فيه . وظلت الصدقة ركناً من أركان الدين . وقد امتلأ تاريخهم بسمات الكرم

وليس السلوك السخى فى قصة الحسن[١] الذى قسم على ثلاث مرات أمواله على الفقراء ووزع مرتين كل ما كان يملكه ، هو النموذج الوحيد .

أهل الذمة :

وإذا كان الوثنيون قد استبعدوا من الطائفة الاسلامية ، فقد كان يطلق على غير المسلمين الذين كانوا يقطنون أراضى العالم الاسلامى وينتمون إلى الأديان المنزلة «ذميون»[٢] وكان هؤلاء من أمم مسيحية أو من طوائف يهودية أو من الصابئين .

وكان عدد المسيحيين يتجاوز خمسمائة ألف فى بلاد ما بين النهرين ، وأربعين ألفاً فى بغداد ، وإثنى عشر مليوناً فى مصر ، وكان اليهود وعددهم ستمائة ألف فى بلاد مابين النهرين السفلى وما يقرب من مليون فى إيران مبعثرين فى أجزاء كبيرة من المدن حيث كانوا يكبون على أشغال كثيرة بدون إتقان كاف وبخاصة فى الأمصار الايرانية . وقد نجحوا بقوة عقيدتهم بوحدانية الله فى أن يحلوا محل التجار الهنود الذين طردوا على أنهم وثنيون ولكن اليهود لم ينجحوا على الرغم من قدرتهم على التسلل وعنادهم ، إلا فى التسلل بصعوبة فى فلسطين وفى مملكة يهوذا حيث نافسهم بعنف المواطنون المسيحيون وهم مهرة وفطنون على غرارهم .

كان الصابئون اللاجئون فى بلاد مابين النهرين السفلى ملاحين مهرة ، وصيادى لؤلؤ فى الأغلب وهم يكملون قائمة الذميين مع أتباع الشيعة الفارسية الزرادشتية

---

(١) يروى عن الحسن بن على أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات فى حياته وأنه فى مرتين وهب لهم كل ما يملك . (المترجم)

(٢) وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة » . (المترجم)

المتنشرين فى بلاد ما بين النهرين وفى جنوب إيران ، والمزدكيين الذين كانوا يقطنون بلاد ماوراء النهر والإمارات التى على أطراف بحر قزوين .

وفى الأزمنة الأولى من الإسلام ، كانت حياة أى ذمى شاقة ولذلك فإنها لم تكن لها قيمة تذكر ، وأى مثل ملموس يعطى صورة دقيقة عن ذلك . ففى حال القتل الخطأ كان لزاما على القاتل أن يدفع تعويضاً يحدده القانون ، يدفع كاملا إذا كان القتيل مسلما ، ويبلغ التعويض من ٦٪ إلى ٢٣٪ إذا كان القتيل من أصل يهودى أو من أصل بارسى على التوالى . وعلى الرغم من التسامح العظيم إزاء « الذميين » فقد أجبروا على ارتداء ملابس صفراء اللون والسكنى فى أحياء خاصة بهم . وبوضع تماثيل صغيرة جدا تمثل الشيطان فوق أبواب دورهم . وقد فرضت عليهم فوق ذلك بعض القيود مثل تحريم التجول على صهوة جواد . والإدلاء بشهادة أمام المحاكم الاسلامية لأنهم ماداموا قد حرفوا كتابهم المنزل عليهم لا يستحقون الثقة بهم[1] .

بيد أنه كان على خلفاء بنى أمية أن يتصرفوا تجاههم بتسامح رحب جدا . فقد أبيحت لهم سلطة ممارسة الاحتفالات بعباداتهم والاحتفاظ بمعابدهم . وبعد قليل فى ظل الخلافة العباسية كانت معاملة الذميين تتراوح بين الشفقة والقسوة وإن التسامح الدينى العظيم هو طابعها دائما . ولم يكن اليهود وحدهم هم الذين يفضلون الشريعة الإسلامية على القانون المسيحى ، بل كانت الهرطقات المسيحية التى اضطهدت فيما سبق من رجال الكنيسة تنظر إلى سلطة الإسلام على أنه شر أخف من شر سلطة بيزنطة . وقد ازدهرت أديرة ، وبيع للرهبان ، ومعابد وهياكل لليهود حتى إنه فى ظل حكم المأمون ، وفى أوائل القرن التاسع ، كان الإسلام يملك على أرضه أكثر من ١١٠٠٠ كنيسة مسيحية ، ومئات كثيرة من المعابد اليهودية ومن معابد للنار .

---

(١) لاشك أن هذه إحدى المبالغات التى يلجأ إليها المؤلف فى كثير من المواضع. وحسبنا فى الدليل على هـذا قوله جل شأنه فى سورة الممتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (المترجم)

وفى القرن العاشر ، أضحت الظروف العامة للحياة أكثر ملاءمة ، وبدأ الذميون فى جميع شمل أنفسهم فى مديريات وفى مقاطعات . ومنذ ذلك الوقت سمح لهم بادارة أنفسهم بأنفسهم تحت نفوذ حكام من إختيارهم ، واحتفظوا بقضاتهم وقوانينهم ؛ وسمح لهم بدخول الوظائف العامة ، خلا السلك القضائى . وأصبح الذميون بين يوم وليلة أطباء ، وجباة ضرائب وأصحاب مصارف ، وصيارفة ، وتجار جملة ، وأنشىء نوع من التنظيم بين أصول المذاهب المختلفة أو الأديان . وكان رجال المال ينتخبون من بين اليهود ، والاطباء من بين البارسيين[١] . وأما الكتاب فكانوا من المسيحيين . ويمكن أن تشاهد من اجل ذلك طبقات ممتازة من الذميين الذين وصلوا إلى أعلى المناصب . وأصبح عدد معين من بينهم حكاما ووزراء . وقد تكرر هذا حتى أصبح شيئاً تقليديا . وفى نهاية القرن العاشر فى مصر تحت حكم العزيز بالله الفاطمى راحت المناصب العالية للمسيحيين ولليهود تثير قريحة مؤلفى الأغانى والشعراء ومن قولهم :

تنصر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب ، وهذا ... العزيز ابن وروح القدس فضل

وفى منتصف القرن الحادى عشر ، تسلل اليهود إلى أعلى المناصب على الرغم من بعض نصوص القرآن المضادة تجاههم ، وانتهوا أيضاً باستبعاد الذميين الآخرين . وقد شغل أحد اليهود المناصب الوزارية فى القاهرة القديمة ، وأدار آخران هما ابن سعد والتسترى الامبراطورية ، ولحق بهما فيا بعد الهجاء والتهكم بكل حماسة ، بعد إذ تجاوزوا الحدود .

العز فيهم والمال عندهم
ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لكم
تهودوا فقد تهود الفلك

---

(١) الفرس القدماء . (المترجم)

الجيش :

إذا كانت الخدمة العسكرية عند المسلمين لم يكن لها طابع إجبارى بالمعنى الذى يفهمه المرء اليوم ، فقد ظلت مع ذلك أحد الواجبات الرئيسية لكل مسلم ، وكان الجندى العربى تحت راية الإسلام يكافأ مكافأة حسنة ويتمتع بمكانة كبيرة .

وشكل الفرسان صفوة الجيش ، والأداة الحاسمة للمعركة فى المنازلات الأولى . وكانت سرعتهم مذهلة ، وقد عرف قواد العرب كيف يختارون الأراضى الملائمة ليظهروا فيها مقدرتهم فى فن الحرب . وكانت الخيالة الخفيفة تستخدم الرمح والوهق[1] وكانت الخيالة الثقيلة المزودة بالسيوف تحارب بالهراوة و بالحربة .

وفى القرن الحادى عشر ، كانت المشاة العربية تستخدم القوس والنشاب ، والخنجر والزرد أى قبل استخدام الغربيين لها بمائتى عام . وكان القوس يستعمل من نهايتيه ، فلا يسمح بانطلاق أسهم كثيرة فى وقت واحد بل تقذف — لمسافة بعيدة — كمية كبيرة من كرات الرصاص . وعند ما كان القوس يرفع بوجه خاص على جهاز مثبت ثقيل يصبح صالحا لإطلاق الحراب بقوة مما يجعلها تخترق الدروع المعدنية . ثم اخترع نموذج رابع شبيه بالجهاز السابق يسمح بإطلاق حراب كثيرة وثقيلة فى آن واحد . ومع هذه الأسلحة التى ذكرت سلفا ، كانت مدفعية المسلمين ثقيلة ومعقدة ، لكن تصويبها كان محكما ، وكانت لاتستخدم قط لرمى القذائف من كل نوع ، بل كانت تتيح كذلك قذف الكبريتات ، والأسهم النارية وقذائف أخرى حارقة .

وقد وصف لنا جوانفيل[2] Coininille الآثار العجيبة لتلك الأسلحة فى قوله :

« وكان يبدو أن هذا السلاح كان الصاعقة التى تنزل من السماء ، والشيطان الطائر فى الهواء الذى يلقى شهابا يبلغ من القوة أن ضوءه كان ينطلق كضوء النهار فى جيشنا ، وكان لهب النار شديداً جداً » .

وفيما بعد ذلك بنصف قرن كان العرب هم الطليعة فى صنع البارود . واستغلاله .

---

(١) الوهق محركة ويسكن الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان والجمع أوهاق . (المترجم)

(٢) مؤرخ فرنسى (١٢٢٤ — ١٣١٧) ، كان مستشاراً للويس التاسع ، ومؤلف تاريخ القديس لويس والحروب الصليبية . (المترجم)

(١٠)

الحياة الثقافية والفنية

التعليم :

لقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول : « من خرج يطلب علماً ، فهو فى سبيل الله حتى يرجع » .

كان الطفل فى سن السادسة أو السابعة يذهب إلى المدرسة التى كانت تقع فى الغالب بالقرب من المسجد . وكان يلقن فى هذه المدرسة دروساً بالمجان أو بأجر يستطيع كل أحد دفعه . وكانت مدة التعليم خمس سنوات . وكان على المدرسين أن يبرهنوا أنهم ذوو ثقافة كافية وأن يكونوا متزوجين وفى سن ناضجة . وكانت العلوم بسيطة تتكون من القراءة والصلاة وقراءة القرآن الذى كان الأطفال يحفظون بعض آياته ويكتبونها إثر ذلك بعد تلاوتها معاً بصوت عال . وكان على التلاميذ أن يسعوا جهد طاقتهم لحفظ القرآن كله ، ومن كان ينجح فى بلوغ هذا الهدف كان يسمى (حافظا) .

وفى القرن العاشر ، تم تطور بتأثير الفرق المعارضة ، التى كانت كل منها تسعى دون شك إلى تثقيف الشعب بحسب أفكارها ومبادئها ، لكنها تسعى أيضاً إلى رفع المستوى الفكرى . وقد أنشئت لذلك عدة درجات للتدريس . وكان هدف التعليم الأولى أو المرحلة الأولى أن يشكل الخلق ، وكان تعليم المرحلة الثانية خاصاً بالعلوم وحدها . أما المعلومات الفنية التخصصية ، فإنها كانت على الدوام تؤدى فى الطوائف عن طريق أرباب المهنة ، والصناع ، وأصحاب المراصد .

وقد نظمت المعاهد الثانوية بسرعة كبيرة ، وأصبحت مدارس عامة أو مدارس ثانوية . وكان التعليم يمارس فى هذه المدارس بالمجان مثل مدرسة المسجد . . وكان مما يدرس فيها الصرف والنحو ، وفقه اللغة ، والبلاغة ، والأدب ، والمنطق ، والرياضيات . وكان التلاميذ — وهم جلوس حول المدرس — يتلقون تعليما سماعياً أكثر مما يؤخذ

عن الكتب . وكثيراً ماكان الطلبة يركبون متون الأسفار لكي يستمعوا إلى كبار المتبحرين فى العلم فى مكة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وعلى طول الطريق . وكانوا لايعدمون فى كل مكان مسكناً ، وغذاء ، وتعليما بالمجان . وأمام التأثير الفكرى المتزايد دون توقف لأصحاب الأفكار التقدمية أسس وزير سلجوقى فى بغداد فى سنة ١٠٦٥ المدرسة النظامية التى أصبحت المؤسسة النموذجية ، ثم نسجت المدارس على منوالها ، فى المدن الرئيسية . وقد كانت هذه المؤسسة التى تولت رعايتها الحكومة باهظة التكاليف ، ومنحت أموالاً وفيرة . وكان مما يدرس فيها القرآن والأحاديث ، وعلم الفقه والقوانين ، والشرائع ، والمذهب الشافعى ، وفقه اللغة ، والأدب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، وعلم التاريخ ووصف الشعوب ، وعلم الآثار ، والفلك ، والرياضيات ، والكيمياء ، والموسيقى ، والرسم الهندسى .

وقد أنشىء فيما بعد أيضاً ، وفى بغداد دار إسلامية داخلية للشريعة ، والعلوم ، والآداب ، والفنون : وهى المستنصرية . وكان مما يدرس فيها فقه المذاهب الأربعة . ولما كان تطبيق القواعد يثير فى أثناء التطبيق العملى عقبات لا يمكن أن تحل إلا بتفسير نصوص من القرآن اتجه الفقهاء والعلماء إلى الاعتراف رسمياً بهذه المذاهب فى التفسير التى كان هدفها أن تجيب على المذاهب الدينية الأربع الكبرى التى كانت تضم مجموعة العالم الإسلامى ، والتى كان اسمها يسترجع اسم مؤسسها : وهم أحناف إيران الشرقية وأفغانستان ، وتركستان ، ومالكية إفريقية وأسبانيا وصقلية ، وشافعية سوريا والعراق[1] وإيران ، والحنابلة الذين كانوا يضمون الطبقة الوسطى من الشعب فى المدن . وكان هذا تنظيما حقيقياً لثقافة عامة ولطابع دولى ، قلده الغرب بجمع الشعوب الأربعة للعالم المسيحى فى جامعة باريس ، وقد أخذت اليونسكو كذلك عنهم هذا التنظيم .

التبحر فى العلوم :

سيطر الإسلام أثناء خمسمائة عام من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ على العالم بالقوة وبالعلم ، وبتفوق حضارته .

---

(١) نسى المؤلف أن يضيف مصر إلى الشافعية . (المترجم)

لقد ورث الإسلام تراث اليونان من الفلسفة والعلوم ، ثم بعد أن نماها ، نقلها إلى أوروبا الغربية . كما أنه استطاع أن يوسع الأفق الفكرى للعصر الوسيط ، وأن ينفذ بعمق إلى الفكر والحياة الأوروبيتين .

كان الخلفاء والأمراء قد وضعوا فى المقام الأول انتشار الآداب والفنون والعلوم ، وغالباً ما كانوا علماء أو حماة مثقفين للفلاسفة والمتفننين ، يسلكون معهم مسلك النصراء الكرماء للآداب والفنون كما كانوا يحتفون بالشعراء ورجال العلم .

وقد ارتفعت الثقافة حتى بلغت درجات العرش . ففى بلاد الأندلس كان الخليفة الناصر يتحدث عن أرسطوطاليس ، وعن أفلاطون مع ابن رشد فى زمن كانت طبقة الأشراف فى الغرب تتباهى بعدم معرفتها القراءة . وفى قرطبة كان العالم الأموى الحكم يستخدم مكتبة تضم أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ مؤلف على حين أن ملك فرنسا شارل الخامس — أعنى العالم الحكيم — لم يستطع أن يجمع بعده بأربعة قرون من هذه المؤلفات أكثر من ألف مؤلف .

وفى الحق ، أن إنشاء المأمون العباسى دار الحكمة فى بغداد كان عاملا مهماً وحاسماً فى انتشار العلوم . ويرى ابن خلدون صاحب المنهج الموضوعى فى دار الحكمة هذه ، انطلاق الازدهار المشرق للاسلام .

الفكر المستقل :

ولكن الأمر الذى لايزال موضع غرابة أن كتاب العرب لم يعنوا أية عناية بالأدب اليونانى الضخم ذلك الأدب الذى كان على عصر النهضة الأوروبية أن يبعثه من مرقده بقوة .

الحق أن مؤلفات الأدباء والمؤرخين اليونانيين ، وكذلك العدد الهائل من المسرحيات اليونانية والتى كانت تحت تصرف العرب ظلت ولا أثر لها فى الروح الشرقية . ويجب بلا ريب أن نلتمس بعض أسباب ذلك فى دوافع دينية جعلت من مبادئها المنظمة محو أثر صفحات من ماض رائع . ذلك أن الأدب اليونانى لم يكن مطابقاً للدين حق المطابقة ، وقد عمل مفكرو المسلمين زمنا طويلا حتى تيسر لهم التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم القرآن .

لم يكن هـذا السعى إلا قرابة القـرن الحادى عشر عنـد ما هجر المفـكرون والمؤرخون العرب ما كان حتى ذلك الوقت المصدر المظم الوحيد للالهام . ومن أجل هذا ، لم يتردد ابن قتيبة وهو أول من وقف ضد سواد كتاب جميع البـلاد العربية فى هذا العصر ، أن يبحث الدين الإسلامى فى ضوء عالمى كما ينبغى أن تـكون طريقة المؤرخ الذى يحيط بعظمة العصور . وعلى هذا النحو يجدر بنا أن نعمل بمثل هذه الطريقة ، إذا أردنا أن نتهى إلى فهم متبادل بين الشعوب ، وتقتضى سيكولوجية المؤرخ الجمع بين لوذعية الفيلسوف ولوذعية السياسى .

لقد جهر كذلك علماء آخرون مسلمون باستقلالهم فى الفـكر فى زمن كان التعبير فيه عن الآراء المخالفة للدين برهاناً على الانزلاق إلى الحضيض ، على الرغم من الحرية التى اتخذها الإسلام دستوراً له . ويحلل الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » الذى ظهر فى سنة ١١٢٨ العقائد الرئيسية بإنصاف قلما يصادفه المرء عند المؤلفين المسيحيين المعاصرين له .

النثر :

كل ما يثيره الأدب العربى فى ذهن الرجل الغربى اليوم ، ذكريات خلقتها قصص ألف ليلة وليلة . وقد ثبت نجاح هذا المؤلف عن طريق روعة الخيال الذى أثاره . وألف ليلة وليلة بعيد كل البعد عن أن تمثل تـكامل أدب الشرق الخيالى .

وقد عرفت ألف ليلة وليلة للمرة الأولى نحو منتصف القرن العاشر على أنها ترجمة عربية للـكتاب القديم « هزار افسانه » الذى يعنى ألف قصة . والإنشاء الأصلى الذى كان الجهشيارى مؤلفه قد استوحى من شـعر قديم فارسى لـكن مع الزمن ، أضيف إليه رويداً رويداً قصص شعبية من مصادر متنوعـة ، وقدمت حاشية هارون الرشيد بخاصة فـكرة قصص الحب والفكاهات الهزلية المؤثرة التى لا تنفد . وسحرت مغامرات السندباد البحرى وعلى بابا والأربعين لصاً وعلاء الدين والمصباح العجيب ، فضلا عن قصص أخرى ، سحرت هذه المغامرات الصغار والـكبار فى جميع البلاد .

تصف هذه القصص ذات المغزى الأخلاقى والمليئة بخفة الروح وجمال الأسلوب ،

خفايا وغرائب الحيـاة الشرقية ، وكرم السلطان ، وروحه العـادل ، وجرأة المرأة ومكرها ، وإفك الأشرار وقسوتهم وفى غضون قرابة عشرة أجيال، أضاف القصاصون العرب إليها عدداً معيناً من القصص المبهمة تتفاوت بين الـكثرة أوالقلة والتى كانت تشير إلى انحطاط أذواقهم فى عصر من الرخاء . وهذا الـكتاب الذى بدىء تأليفه فى القرن السابع وانتهى فى القرن الخامس عشر يمثل مجموعة الأدب الشرقى فى العصر الوسيط . وقد ظهرت أول ترجمة له فى باريس فى عام ١٧٠٤ ، ولم تـكد تظهر حتى بلغ من نجاحها أن ترجمت إلى جميع اللغات . وفى الشرق نفسه ، حظى مؤلف أدبى آخر لقصص بيدبا بشهرة تفوق قصص ألف ليلة وليلة . واستحضرت هذه القصص من الهند ، وكانت محررة باللغة السنسكريتية قبل أن تترجم إلى اللغة الفهلوية فى القرن السادس ، ثم ترجمت إلى العربية فى منتصف القرن الثامن على يد ابن المقفع . وهذا الـكتاب الذى كتب نثراً هو أول الروائع الأدبية فى اللغة العربية ، وقد ظهر تحت عنوان « كتاب كليلة ودمنة» ونجد فيه هذا الميل القصصى ذا المغزى الأخلاقى . . هذه القصص يترابط بعضها ببعض بوساطة خيط متين ، وتتسلسل كأنها قصة لانهاية لها ، أو على أنها قصة مرتبطة بأخرى ثم لاتزال تستطرد فى ثوب رواية متسلسلة جديدة . والمهارة التى ترتـكز على أن تجعل الحيوان يتحدث ، أتاحت لـكاتب القصة الخرافية أن يصف الوضع الاجتماعى للانسان، وأن يقدم عبراً لجميع الناس ، وأن يهذب الأخلاق ، وأن يسلك مسلك عالم الأخلاق .

وقد ترجمت قصص بيدبا فى القرن الثالث عشر إلى اللغة الأسبانية من أجل الفونس الحـكيم ، ملك قشتالة وليون . وعند ما ترجمت فيما بعد إلى أربعين لغة ، أصبحت تنتمى إلى الأدب العالمى . وفى القرن السابع عشر ، أتم الترجمة الفرنسية عن ترجمة فارسية لافونتين (La Fontaine) ولا تزال قصص بيدبا مع قصص ألف ليلة وليـلة أعظم كتابين خياليين وأكثرهما انتشاراً فى أرجاء العالم .

ثم ظهر بعد ذلك بقليل كتاب آخر روح كل الترويح عن أهل بغداد ، وهو ديوان يحوى خمسين قصة أو مقامة ، ومن هنـا كان اسم المؤلف : « المقامات » التى كتبها أبو محمد الحريرى (١٠٥٥ / ١١٣٢) رئيس ديوان الرسائل . وهو يقص مغامرات متسول يسمى « أبا زيد السروجى » وهو شخصية تجيد الحديث ، وتمثل تمثيلا رائعاً منظراً معيناً من الروح العربية : إنها روح ، تطنب فى الحديث ، وتجيد الحيل الـكثيرة، وتخترع جميع الوسائل للتخلص من المآزق وهى روح داهية ، ولهذا ، فإننا نغفر لهذه

الروح كل شيء ، فلقد منحها الخيال الخلاق والأسلوب الرصين مقدرة على تصوير أشخاص مخدوعين وضحايا ، ألم تملك هذه الروح فن تقييم الفروق الدقيقة في اللغة العربية ودقائقها بمهارة وبحماسة سحرية تثيران الإعجاب ، فالسجع والصور البلاغية ، وبقية الأدوات الفنية سهل عليها تحقيق غايتها .

لم يكن للقصة الطويلة وجود عند الشعوب العربية ، ولم تهتد هذه الشعوب إلى عقدة القصة الطويلة المعقدة . وكان الشرقيون يحبون القصص القصيرة ، وكانوا يستمعون إليها مؤثرين عدم قراءتها — مؤملين في شيء من السذاجة أن تنتهي إلى نهاية سعيدة وسريعة لكن خاصية القصة الطويلة هي أن تؤخر النهاية وأن تكشف عن العقدة . وعلى كل حال ، لا ينطوي الأدب الشرقي على حوادث فاجعة ، إنه صور من أشعار أو من قصص محفوظة .

الشعر :

يشغل الشعر من جهة أخرى مكانة كبيرة في الأدب العربي ، فلن تشاهد في الشعر الأوربي ما تشاهد في الشعر العربي ، من شعراء تتغنى بمآثر الأبطال ، ولا مباريات من قصائد صغيرة تنتهي ببيت من التهكم ، فكان الإنشاد الشعري تسلية اجتماعية . وأمكن القول عن النثر إنه « حق عند ما يسير ، يرقص » لكن الشعر رياضة روحية والشعر وحده — في نظر المتصوفة — هو الذي يستطيع أن يستحضر الأفكار السرمدية ، وأن يردد صداها بقوة يظل بها المستمع الشرقي مأخوذاً بنوع من الجذب قد يكون قاتلا أحياناً . وإذا سلمنا بأن هناك رابطة مابين الميتافيزيقيا والشعر ، فربما لم يعترف أبداً بهذه الحقيقة إلا في الشعر الإسلامي .

وقد اتجه الشعر بتأثير شعراء الفرس إلى التجمل بالملاحة الفارسية والتحدث بلغة القصور . ومن ثم ، أصبح أكثر رقة ، وأكثر نفاسة ، وأكثر تكلفاً ، وهو يعرض في ظل الصورة الشاعرية الملامح المتعددة للقطر الفارسي، حكمته ، وأزهاره ، ووطنيته ، وفلسفته ، وفجوره ، وتقواه ، ويشكل أخيراً الحب ، نعني — الحب الخالد — من هذا الشعر الموضوع الرئيسي ، ونفس كلمة « أدب » التي تعني الفنون الأدبية ، كان

يستخدمها الشعراء والفلاسفة لتعنى فى آن واحد علم الأخلاق وأدب السلوك فى الحب لقد أولع شعراء الإسلام بالتغنى بعفاتن المرأة ، فشبهوا أريج شعرها بالعطر ، وجمال عينيها بالجواهر ، وظلم[1] شفتيها بالفاكهة ، وبياض أطرافها بالعسجد .

ولذا ، كانت موضوعات الدروس فى الحب أثناء العصر الوسيط الأوروبى تتخذ مادتها مما كان يجرى فى صحراء الجزيرة العربية وفى الشرق ، ثم فى مدن الغرب الإسلامى بعد ذلك .

كان العرب مثل كثيرين غيرهم من الذين عاشوا قبل اختراع الطباعة ، موهوبين بحاسة سمعية ممتازة . وكانوا ينتشون من هذه الأشعار الموزونة التى كانوا يحفظونها أو ينشدونها بصوت عال . وسرعان ما اتخذ النثر العربى ونثر الوعاظ ، والخطباء والقصاصين صورة سجع غير موزون بتأثير اللغة ونغمها الذى يأتى عرضاً . وكان الشعراء يبالغون أيضاً فى هذا الميل الفطرى وكانوا يتنافسون بحذق ومهارة فى خلق فواصل وقواف معقدة ، وكان كثير منهم يزنون التفعيلة ونهاية البيت فى وقت واحد . وكثيراً مادهش الغربيون لوزن الشعر العربى .

والخلاصة . أن أرجح الأقوال تذهب إلى أنه إذا رجعنا إلى نشأة البوادر الشعرية الأولى ، رأينا مصدرها الحركة الإيقاعية لسير الجمل ذى السنام الواحد ، والجمل ذى السنامين ، وهما رفقاء أمناء لطريق البدوى الذى أوقع الأغانى الأولى الشعرية .

ولكى يخفف حزنه ووحدته فى أثناء رحلته التى تمتد أياماً طويلة عبر الصحراء ، كان البدوى المنفرد يحدو بأغنيات موقعة على خطوات راحلته . وأقدم الأغانى التى نجدها فى الألحان الموسيقية العربية هى « الحداء » أو أغنية الجمال . ولم يكن « الحداء » شيئاً آخر غير لحن موسيقى ، كان البدوى يسرع به أو يبطىء بحسب سير الجمل الذى تشتد أو تقل سرعته ، ومن هنا ، — وبحسب قول عباس محمود العقاد — أنشىء الوزن الأول للشعر العربى « الرجز » الذى هو أبسط وأسهل أوزان الشعر جميعها .

---

(١) الظلم بفتح الظاء : ماء الأسنان وبريقها (المترجم)

فلنسمع مثلا هذا البيت من الشعر الذى كان النبى عليه الصلوات لا يمل ترديده فى إحدى غزواته :

« أنا النبى لاكذب

أنا ابن عبد المطلب »

وكان المعتقد أن هذا البيت من الشعر نظم عن طريق مسير الجمل ذى السنامين ، والحق أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان يمتطى وقتئذ نوعاً من الإبل سريع العدو. على نقيض هذا البيت الذى ينبعث من إحساس بإيقاع بطىء :

ما للجمال مشيهـا وئيـداً أجندلا يحملن أم حديدا

ويشير هذا اللحن الموزون ـــ مع هذا التوافق المماثل للايقاع إلى الجمل ذى السنامين اللاهث وذى الرقبة المشرئبة ، الذى يتابع ببطء مسيره المثقل عبر الصحارى .

وقد تطورت موسيقى الشعر شيئاً فشيئاً ، وتحسن رويداً رويداً نغم وزن الشعر ، حتى آذن هذا بمولد « القصيدة » .وكانت هذه القصيدة الموقعة أكثر ملاءمة للأذن ، كما أنها كانت تمثل فى الحقيقة شعر الشعراء الرحل ، ولم تلبث أن حلت محل الرجز ، « بين بدو الصحراء أو عند الشعراء الذين كانوا يفتخرون باقتفاء عمود الشعر . »

وهذا هو الرياضى والموسيقى الخليل ابن أحمد الذى وضع علم العروض فى الشعر العربى فى نهاية القرن الثامن الميلادى . فكان من الضرورى منذ ذلك الوقت الكف عن التغنى بالبيت من الشعر ، وأن يعطى وزناً أكثر دقة .

هذا هو أصل نظم الشعر العربى وتطوره ولكن ، بيت الشعر الآن لم يعد خاضعاً لأى التزام موسيقى ، لهـذا وجد الشعر نفسه متحرراً كما استطاع الإفادة من الصور الشعرية المبتكرة ، ومن الممكن أن تنسق هذا الانتاج الشعرى الضخم الذى ظل زمناً طويلا فن العرب الذى لاشبيه له بتقسيمه بحسب العصر وفقاً لفنون القول فيه ، فقبـل الإسلام ، كان الشعر يتغنى بمآثر القبائل الأسطورية ، وأثناء القرن الأول الهجرى ، وحتى نهاية الأسرة الأموية ، وفى منتصف القرن الثامن ، ظل موضوعه المفضل الحرب،

ولكن يضاف إليه العاطفة الدينية . وفى نهاية مرحلة الفتوح ، سارت العاطفة فى موكب ازدهار الشعر . وفى عصر العباسيين العظام الذى امتد حتى القرن الحادى عشر ، تميز الأدب العربى بأنتاج غزير تفوق فى جميع الفروع .

صدر الاسلام والأمويون « من القرن السادس إلى القرن الثامن »

نستطيع أن نستهل هذه المرحلة بعنترة بن شداد ، وفى قول آخر « عنتر » الشاعر الفارس الذى أوحى بالقصة الشهيرة فى الفروسية ، القصة التى كانت تحمل اسمه . وخاتمة هـذا اللون من الشعر مؤثرة وعظيمة التصوير ، ويستهل البطل الأنشودة الجنائزية التى راحت تسبق منيته :

« فهو الرب القادر القاهر الذى حكم على عباده بما أمضاه فلا اعتراض عليه فيما قضاه ، وقد فرغت الليالى والأيام ، وانطوت كأنها أضغاث أحلام ، ولو عاش الإنسان ألف عام ، فلابد أن يشرب كأس الحمام » .

وتصوير النهاية مملوء بصور مؤثرة فى النفس . فعندما يصاب البطل بإصابة قاتلة من سهم مسموم ، ويطارده العدو ، يتوقف عند مدخل مضيق ، على حين أن جنوده ورفاقه يتقهقرون بانتظام ، وينتظر عنترة شروق الشمس والموت وهو مستند على رمحه المرتكز فى الأرض ، ومنتصب على جواده . ويموت ، ولكن أمام هذه الجثة التى تظل منتصبة يهرب العدو .

وعاشت الخنساء وهى أشهر الشاعر العربيات فى نهاية القرن السادس ، وقد شهرت بالأشعار التى وقفتها على أخويها صخر ومعاوية اللذين قضيا نحبهما فى أثناء القتال ، والخنساء وهى شاعرة صدر الإسلام هى المعبرة عن الشعر العربى فى عصر الجاهلية .

والشاعر الإمام على بن ابى طالب ، هو ابن عم النبى وصهره والخليفة الرابع . وعندما نهل هـذا الامام من تعاليم محمد (صلعم) روى عنه عدد من الحكم الأخلاقية الممتازة بالسمو جمعها الشريف الرضى (٣٥٩ — ٣٦٩) .

« يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلى منا وليس ببال » .

ويروى أيضاً عن الامام على « هذا الحديث القدسى » ...

من عادى لى وليا ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وماترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .

كان عبد الحميد (المتوفى سنة ٧٥٠) كاتبا لآخر خلفاء بنى أمية مشهورا بصفاء أسلوبه ونزاهة خلقه . وكان على النقيض من زملائه الذين تغنوا بمديح الملوك . فقد أشاد هو بمجد الكتاب والشعراء ورجال الآداب ، وكذلك ببروز شخصيتهم فى سلم المراتب الاجتماعية .

« . . فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءات ، والعلم والرزانة . . بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمر بلدانهم.. . » .

عهد العباسيين « من القرن الثامن إلى القرن العاشر »

يجدر بنا أولا أن نذكر من بين الشعراء الكثيرين الذين ذاعت شهرتهم فى العصر العباسى ، أبا نواس الذى ولد فى مارس سنة ٧٤٧ ومات حوالى سنة ٨١٥ . وأصبح نديم هارون الرشيد الذى كان يخالفه مع ذلك لفرط مجونه . هذا الشاعر الأصيل الذى وصفه وصفاً جيدا «سى قدور بن غبريط»، اعتاد الاعتذار عن شهواته وفجوره . المحبوب بسبب « نعمة ذكائه الرائعة » .

كان أبو نواس يحب الحيـاة ، والنبيذ ، والنساء ، وأشعاره التى ينظمها . وكان يكرم أحيانا ويغضب عليه أحيانا . وغالباً ما كان يدفع به فى السجن ، مثله فى ذلك مثل الطاغوت الذى يعبد عندما يأتى المساء . ويروى أن أبا نواس أنهى أيامه بالتقوى. وكان يذرع الشوارع فريسة للحزن والقرآن تحت إبطه ، ومسبحته فى يده ، على حين كان شعب بغداد يتغنى فى مفارق الطرقات بقصائده فى تمجيد النبيذ والإثم .

يارب منزل خمار أطفت به ... والليل حلته كالقار سوداء
فقام ذو وفرة من بطن مضجعة ... يميل من سكره والعين وسناء
فقال : من أنت فى رفق ، فقلت له ... بعض الكرام ولى فى النعت أسماء
وقلت إنى نحوت الخمر أخطبها ... قال الدراهم ، هل للمهر إبطاء
لما تبين أنى غير ذى بخل ... وليس لى شغل عنها وإمضاء
أتى بها قهوة كالمسك صافية ... كدمعة منحتها الخد مرهاء[1]
مازال تاجرها يسقى وأشربها ... وعندنا كاعب بيضاء حسناء

وكان لأبى نواس سواء أ كان مغتما أم صاحيا ردود بدهية سريعة تجاه هؤلاء الذين كانوا يشمخون بأنوفهم لتبحرهم فى العلم :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة
حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

كان سعيد بن جودى فى سنة ٨٩٧ — وهو ابن لموظف كبير فى قرطبة — المثل الأعلى للمحب الشرقى العاشق المشوق ، بل الذى لم يرو من الحب غلته أبدا ، وقد عاش حائرا وهو المحارب والشاعر والرحالة — أيؤثر الحب أم الحرب .. ؟ ولما كان حساسا لأقل صلة بالمرأة فقد مر بسلسلة من العشق المتوله الزائد ، الذى كان كل واحد يتنبأ بدوامه وقتا طويلا . وكان أكثر شعره سموا الشعر الذى ألفه لجيحان التى لم يكن قد رأى منها غير يد من سوسن .

وإنه ليعترف عن أخلاص بهذا البحث الدائم وبهذا الركض العنيف وراء المجهول :

جريت جرى جموح فى الصبا طلق[2]
وما خرجت لصرف الدهر فى ملق

---

(١) مرهاء = مرهت العين خلت من الكحل أو فسدت لتركه أو ابيضت حماليقها .

(٢) طلق = ذو حدة . (المترجم)

ولا انثنيت لداعى المـوت يوم وغى

كما انثنيت وحبل الحب فى عنـق

وكان لا بد لمثل هذا الطريق الحماسى أن يجلب عليه الشؤم وكان رفقاؤه فى الحرب ينقمون منه أحيانا سلطانه الفاتن على نسائهم . وفى ذات يوم ، فاجأه جندى وقتله .

اشتهر البحترى كأحد عظماء الشعراء فى العصر العباسى . وقد ولد فى سوريا بالقرب من حلب وعاش فى بغـداد فى موطن الخلفاء الذين كان يتغنى بسخائهم ومات فى سنة ٨٩٧ .

كأنهـا حـين لجت فى تدفقهـا

يد الخليفة لمـا سال واديهـا

محفوفة برياض لا تزال ترى

ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

وابن الرومى الذى تغنى بالحب الذى لم تنطفىء ناره ، وعانى حزن المحبين ، مات زهاء سنة ٨٩٥ وهو القائل :

أعانقها — والنفس بعـد مشوقة إليها — وهل بعـد العناق تدان ؟

وألثم فاها — كى تزول حرارتى فيشتد ما ألقى من الهيمان

ومن بين الشعراء البارزين الذين اشتهروا فى ظل العصر العباسى الثانى يمكن أن نذكر أيضـاً أبا الفرج (٨٩٧ — ٩٦٥) الذى كانت لديه فكرة جمع المؤلفـات الرئيسية الشعرية المعروفة فى عصره فى عشرين مجلدا تشكل « كتاب الأغانى » .

والحق أنه مهما يحر المرء بسبب ثروة الشعر العربى وتنوعه ، فلن يتردد فى ذكر اسمين فى هذا العصر بلغا المنزلة العالية وهما المتنبى والمعرى .

كان المتنبى (٩١٥ — ٩٦٥) أحد كبار الشعراء فى الشعر الغنائى العربى ، وقد تردد أثناء ذلك العصر — على الرغم من تواضع أصله — على بلاط الأمراء ، وبخـاصة

بلاط سيف الدولة . ولم ينفك عن التغنى بكرم العظماء ومجد الأمراء ، لكنه كان يتغنى قبل هذا وذاك بنفسه .

إن أكن معجبا فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا ترب الندى ورب القوافى
وسهام العدى وغيظ الحسود

والمعرى أغرب جميع الشعراء المسلمين ، ولد فى سوريا فى سنة ٩٧٣ ، وعلى الرغم من أنه كان فاقد البصر منذ طفولته ، فقد ارتحل كثيراً ، واستمع إلى أساتذة مشهورين وحفظ عن ظهر قلب كل ما كان يلذ له ، ثم أوى إلى قريته بالقرب من حلب . وعاش فيها يائساً على عكس شعراء عصره لأنه كان يربأ بنفسه أن ينشد مديحاً يجده مذلا . وقد نظم كثيراً من قصائد الهجاء لكن مؤلفه الرئيسى ظل رسالة الجنة أى « رسالة الغفران » التى تصف حوار الشعراء فى الجنة .

كان المعرى ذا خلق كريم وعدوا لكل ألوان النفاق ، راحت شهرته تزداد مع الأيام ، وأقبل عليه تلاميذه من كل فج ، كما أقبلت عليه الثروة التى لم تغير شيئاً من بساطته ، وكان يعيش على خبز الشعير ، ويرتدى ملابس من صوف خشن . وفى الستة عشر ألف بيت التى تتضمنها اللزوميات يشن هجوما على هذه القضايا الأساسية — الوجود ، والطبيعة الإلهية ، والدين ، والعقل . وهو شاك ، متشائم فى القضايا الدينية، وديمقراطى تقدمى فى السياسة . وكان المعرى على علم بنقد طبائع البشر بقلم لاذع ناقم . وهذا مثال للطريقة التى كان يسلكها فى شن هجومه على بعض العلماء المنافقين :

رويدك قد غررت وأنت حر
بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا
ويشربها على عمد مساء

ويأخذ على علماء الدين استغلالهم للدين :

طلب الخسائس وارتقى فى منبر
يصف الحساب لأمة ليهولها
ويكون غير مصدق بقيامة
أمسى يمثل فى النفوس ذهولها

وهو يسخر من الحجيج الذين « يذهبون إلى مكة لقذف الجمرات ويعد الذين يقومون على إدارة الأمكنة المقدسة من الاشرار ، ولكنه يعجب من الطبيب الذى ينكر وجود الخالق بعد أن درس علم التشريح :

عجبى للطبيب يلحد فى الخا لق من بعد درسه التشريحا

وكان المعرى لا تنقصه الدعاوة وهو صاحب روح تهكمية :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم
ولا ريب فى عدل الذى خلق الظلما

وهو مقتنع أن شرور المجتمع تعزى إلى طبيعة الإنسان ، ومن هنا ذهب إلى أنه كان من الأفضل ألا يولد ، وأمر أن ينقش على قبره هذا البيت من الشعر اللاذع :

هـذا جنـاه أبى عـلى وما جنيت على أحـد

وكان شكيا ساخرا ، يوازن غالبا بفولتير أو بمونتسكيو ، لكنه كان كذلك طيبا كريما مقبلا على مساعدة الإنسان « الغارق فى الدموع » الذى كان يثقله الألم .

لم يكن للمعرى تلاميذ « على الرغم من أن مائة وثمانين شاعرا ساروا فى جنازته ، وأن أربعة وثمانين عالما ألقوا مراثى عند قبره » . وهذا قد يفضى إلى التدليل على أن مذهب الشك لم يسيطر على عقول الشرقيين بل على النقيض من ذلك ، يقرر أنه أحدث بعد موته بقليل نهضة فى العقيدة السلفية التى ربما تكون قد أثرت فى أدب الأجيال التالية .

يشكل المتنبي والمعري ذروة الشعر العربي ، الذى أصبح بعدهما أكثر تصنعاً وأشد ابتذالا ، وأقل صدقاً . وفى ذلك الوقت ازدهر الشعر الملحمى فى فارس مع الفردوسى . وأنشأ الفردوسى عشرة آلاف بيت من الشعر مجد فيها أعمال الحرب والأبطال المشهورين ، والأساطير الشهيرة فى إيران الشرقية ، وهذه الأبيات من الشعر تؤلف « الشاهنامة » أى كتاب الملوك .

ويحكى أن الفردوسى نجح ذات يوم فى تقديم شعره إلى السلطان . ولم يكن هذا بالأمر السهل ، وكان أربعمائة شاعر فى خدمة محمود الغزنوى يقومون على رعايته بعين يقظة . وقد وكل إليه السلطان — وهو صاحب منفعة وفتنة بهذا الشاعر — كثيراً من الصناديق ذات الوثائق التاريخية لكى يستطيع أن يستكمل ملحمته العظيمة ووعده بمثقال من الذهب لكل بيتين من الشعر يراجعهما ويصححهما . هذه اللفتة شجعت الشاعر على النظم حتى نجح حول سنة ١٠١٠ فى إرسال ستمائة ألف من ثنائية لمخطوط جديد . وهنا تكمن أساليب حيلة رخيصة ، إذ تآمرت الحاشية ضده بمهارة دنيئة حرمت الفردوسى المسكين أن يتسلم غير دراهم من الفضة بدلا من الدنانير الذهبية التى كان قد وعد بها . وبعد عشر سنوات ، عند ما راجع السلطان نفسه ، أرسل إليه قافلة محملة بستين ألف دينار ذهباً تشبه فى لونها طيف الشمس مشفوعة بخطاب اعتذار . لكن ذلك جاء متأخراً . فقد قابلت القافلة وهى فى طريقها جنازة الشاعر .

كان الفردوسى قد كرس خمسة وثلاثين عاماً من حياته ، ليحكى تاريخ بلده فى مائة وعشرين ألف بيت من الشعر أى مايزيد على أبيات شعر الالياذة والأوديسية مجتمعتين ، والشاهنامة إحدى المؤلفات العظيمة فى الأدب ، وهى قصة حية يدهش المرء لما تحويه من صور ساحرة للنساء ، ومن مآس للحب الأبوى ، والبنوى ، ومن خيول مطهمة ، وشجاعة وانتصارات على الشياطين ، والأبالسة ، والسحرة والأتراك . ويستخلص هذا الكتاب الذى لايجارى وحدته وحقيقته من بلده المحبوب الماثل دائماً أمام عينيه غائباً أو حاضراً ، والذى يبقى حتى اليوم أيضاً ماثلا فى جميع الأذهان . وقد أطلق الفرس اسم رستم ، بطل الملحمة ، على أكثر من ثلثمائة قرية ، وظل اسم الشاعر ذائعاً ذيوعاً حمل العالم كله فى عام ١٩٣٤ ، أن يحتفل بذكرى عيد ميلاده الألفى . وأجاب الأتراك خصومهم الفرس على كتاب « الشاهنامة » فى القرن الحادى عشر بكتاب

قوتاد[1] غوبيليك للشاعر أرسلانخاص حاجب الذى أشاد بمجد قبائل الهون والأتراك فيما قبل الإسلام فى أثناء قتالهم القديم مع أمراء ايران المنتمين إلى شعب الاسكيذيين . وهـذا الشعر شعر ملحمى مطول جـداً . يستعيد برحابته أشعار الهند ، واليونان، وأوروبا الحديثة .

الـكتاب والـكتب :

كان الأدب فى الإسلام يؤلف بخاصة ليشبع ذوق الطبقة الارستقراطية . إنه أدب الثروة ، وأدب المنبت ، ولم تـكن تعرف حينئـذ حقوق التأليف ، وكان الـكتـاب والشـعراء يعيشون تحت رعاية حمـاة الآداب والفنـون من الأمراء . وكان سـوادهم يكسبون بشق النفس قوت يومهـم ، وكانو ينسخون المخطوطات لحساب دور الـكتب . وكان البعض الآخر يباشر مهنة نظم الشعر . وينتمون إلى مدرسة معينة . ولـما كان الـكتاب أو الشعراء ينتجون من علم العروض ومن القافية آثاراً وفيرة صالحة للنشر ، ولـما كانوا يوجهون بحذر المديح أو النقد، فقد كانوا على أى حال أدباء عصرهم،

---

(١) « قوتاد غوبيليك » هو أقـدم مؤلف أدبى تركى كتب تحت تأثير الأدب الفارسى ، وهو من تأليف: يوسف البالاساغونى ألفه سنة ٤٦٢ هـ [١٠٦٩/١٠٧٠]، وهو مكتوب باسم السلطان طفغاج بوغراقاراخان أبو على حسن بن سليمان آرسلان قاراخان « وهو من الملوك القره خانيه الذين كان مركز سلطتهم فى « كاشغر» فى بلاد التركستان . وقد منح السلطان المؤلف رتبة « خاص حاجب » فى قصره فصار يعرف بإسم يوسف خاص حاجب ، ومعنى اسم الـكتاب هو « العلم الذى يهب السعادة أو العلم الجدير بالسلاطين » . وهذا المؤلف من ثلاثة فصول ويحتوى على أكثر من ٦٥٠٠ بيت مكتوبة على وزن « فعولن فعولن فعولن فعول » ويبث الشاعر نصائحه وحـكمه على لسان بعض الشخصيات الرمزية ، وهو من المؤلفات التى تعرف باسم «سياستنامة» ، ويوجـد فى دار الـكتب المصرية نسخة خطية من النسخ الفريدة فى العالم تحت رقم « تصوف تركى ١٦٨ » ، انظر فهرس المخطوطات التركية — دار الـكتب المصرية . ص ١٩٤ — ٢٠٤ ، وانظر كوبرلى زاده محمد فؤاد : تورك أدبياتى تاريخى ، استانبول ١٩٢٦ . (المترجم)

وكانت تآليفهم تنتشر بسرعة جداً وفى أقطار بعيدة، مثلها فى ذلك مثل تآليف الكتاب المعاصرين . وكان أكثر رجال الأدب مهارة يجدون مجالا لدى الأمراء الذين كانوا يرتبون معاشاً لعدد كبير منهم . وكان هؤلاء مهرة فى فن الهجاء أو المديح ، أو التهكم ، وفى الاعتذار عن الفشل ، أو تمجيد الانتصار ، وكانوا حقاً مرهوبى الجانب بوصفهم هجائين مهولين ، لكن المهنة على الرغم من ذلك لم تكن تخلو من المتاعب إذ كانت تقتضيهم أن يكونوا بصراء بالنفوس وأكياساً حتى لا يعرضوا أنفسهم للأخطار ومع ذلك جمع بعضهم ثروة كبيرة وظفر بعضهم الآخر بشهرة عريضة . وكان القرنان العاشر والحادى عشر عصرهم الذهبي ، أما فى ظل السلاطين التركمان الذين كانوا يزورون الرأى العام فقد خبت جذوة الشعر .

التـــــاريخ :

كان العلماء مولعين منذ القرن الثامن بالدراسات التاريخية مع اهتمام معين بتحرى الحقيقة . وكان محمد بن إسحاق سنة ٧٦٣ يكتب سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فى صورة تشكل أقدم مؤلف فى النثر (باستثناء القرآن) وصل إلينا . وألف بعض المؤرخين معاجم لتواريخ حياة بعض الشخصيات الهامة .

وحاول ابن قتيبة (٨٢٨ — ٨٩٠) أن يكتب فى بداية القرن التاسع تاريخ العالم ، وبعده بقليل ، كان محمد بن النديم ينشر «فهرست العلوم» الذى يتناول إحصاء للعلوم مع ترجمة وجيزة ونقد واف لكل مؤلف .

والطبرى الذى ولد (٨٣٩ — ٩٢٤) فى طبرستان ومات فى بغداد كان أحد كبار المؤرخين فى الإسلام . ولما كان الطبرى فارسى الأصل فقد انقطع أربعين عاماً لعمل تاريخ جامع عن حوليات الرسل والملوك منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩١٣ . وما وجد من هذا الكتاب يشغل خمسة عشر جزءاً . ويقال إن الكتاب الأصلى أكبر من ذلك عشر مرات . وفى هذا الكتاب الذى ألف بنزاهة ، يفتتح الطبرى طريقة تناول علم التاريخ . ولكى يثبت الحقائق التاريخية المنقولة نجده يعتمد فى هذا على تواتر الروايات أو كتابات الشهود المعاصرين للحادث . غير أن الطبرى مثل بعض مؤرخى الزمن المعاصر ، لم يكلف نفسه تنسيق الحقائق ، بل يقتصر على سردها ، ويشكل هذا

الكتاب على الرغم من ذلك وعلى الرغم أيضاً من جفافه ، مصدراً عظيماً كوثيقة تاريخية .

كان المسعودى عربياً من بغداد ، وهو أعظم مؤرخ بعد الطبرى ، وهو رحالة كبير نشر موجزاً فى ثلاثين مجلدا تقريباً ، ثم اختصره بعد ذلك فى مجلد واحد وصل إلينا تحت عنوان « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وقد درس المسعودى الجغرافيا وعلم الحياة ، والتاريخ ، والعادات ، والدين والعلوم فى جميع البلاد من الصين إلى فرنسا . وعند ما أراد أن يجمع بعض الأفكار الفلسفية ، نشر « كتاب التنبيه والاشراف » قبل نهاية حياته بقليل . لكن هذا الموجز لأفكاره عن المعرفة والتاريخ والفلسفة ، لم يقابل بالرضا من المحافظين من أهل العلم . وقد مات فى القاهرة سنة ٩٥٦ بعد عشر سنوات من النفى .

كان هؤلاء المؤرخون دون شك أسمى مقاماً من معاصريهم المسيحيين ولا يضير مؤلفاتهم ما قد يبدو فيها من نقص فى التركيب أو اختلال فى الترتيب . وربما بدا هذا للقارىء الذى لا يستطيع أن يستخلص الفلسفة من التاريخ ولا الدروس التى يتوقعها من تآليفهم .

دور الكتب ومحال الوراقة :

كانت مدينتا بلخ وسمرقند تعدّان قبل الفتح العربى بقرون عدّة مركزين مشهورين للثقافة الفكرية فى إيران الشرقية . وكان الرهبان البوذيون فى هذه المدن المقدسة يترجمون فى لغة إيرانية حكمة الصين والهند . وترجمت فى جامعة جنديسابور المؤسسة فى القرن السادس كتب لبعض الفلاسفة الصينيين من القرن الثامن قبل الميلاد إلى لغة إيرانية وغربية . وكانت سمرقند عند ما احتلها العرب سنة ٧١٢ تملك مصانع للورق إلى دار للكتب الفاخرة .

لقد اختار الخليفة العباسى الأول أحد البرامكة ، وزيراً له ، وهذا البرمكى سليل أسرة قديمة كان من أسلافها منذ قرون الدلاى لاما ، أى كبير رهبان الدين البوذى . وقد عرف هؤلاء البرامكة كيف يرغبون الخلفاء وحاشيتهم فى تذوق الدراسات والكتب ، وجعلوا من بغداد مركزاً علمياً قدر له أن يطغي على سمرقند بجمع الروائع

الأدبية الصينية والسنسكريتية والإيرانية من الشرق ، والمؤلفات السورية والبيزنطية من الغرب في وقت واحد . وقد أحرزت أول دار للكتب في الإسلام والتي أنشئت أمام « دار الحكمة » نجاحاً عظيماً يصوره أن اليعقوبي كان يحصى في سنة ٨٩١ أكثر من مائة من محال الوراقة في بغداد وقد أصبحت محال الوراقة هذه مراكز أدبية ومؤسسات للنسخ والخط وفقاً لذوق العصر .

ولم يقتصر إنشاء دور الكتب على اتخاذ معظم المساجد مقراً لها فحسب ، بل أخذت بعض المدن تشيد لهذه الدور أبنية رائعة . وكانت الموصل حوالى سنة ٩٥٠ تملك من قبل دار كتب لبلدتها حيث كان الطلبة يستطيعون فيها أن يتزودوا بالورق والكتب . ثم كانت النظامية المنشأة في سنة ١٠٦٤ في بغداد تتصرف في ميزانية تساوى المليون ونصف المليون من الفرنكات الذهبية مخصصة لشراء الكتب والمخطوطات . وفي هذا العصر ، لم يكن هنالك شخص ما يأخذ طريقه إلى الثراء دون أن يفكر في مساندة الآداب والفنون . وفي نطاق المنظمات الرسمية كانت دور الكتب الخاصة شبيهة إلى حد ما بالنوادي الانجليزية اليوم ، وفي هذا الاتجاه كانت تتحدد — على غرار محال الوراقة — أمكنة تجمع وتسلية . وابتداء من القرن العاشر . أصبحت هذه الدور غنية إلى حد لا مثيل له : فكانت دار الكتب في النجف وهي مدينة صغيرة في العراق تملك أربعين ألف مجلد ، ودار الكتب لأبي الفداء وهو أمير كردى من حماه ، بها سبعون ألف مجلد ، ودار الكتب للسلطان المؤيد الرسولي في جنوب الجزيرة العربية بها مائة ألف ، ودار الكتب في المراغة وبها أربعمائة ألف . وكانت عشر قوائم ضرورية لتسجيل كتب دار الري . لكن أكمل الدور كانت دار العزيز بالله الفاطمي في القاهرة القديمة . وفي هذه الدار ، كان هناك مليون — وستمائة مجلد موزعة بعناية مفهرسة ومنظمة ، منها ستة آلاف وخمسمائة في الرياضيات ، وعشرة آلاف في الفلسفة . . الخ ، أما من جهة دار كتب بخارى . فإن ابن سينا يعلن أنه رأى فيها كتباً لا توجد في أى مكان آخر .

وقد يكون من الممل أن نعدد المكتبات الخاصة . وبخاصة أن تعداد رجال الفكر يبلغ حوالى ثلث مجموع السكان . وكان من أسلوب العصر عند الأغنياء امتلاك مجموعة طيبة من الكتب النادرة . نذكر مثلا لهذا ، الطبيب الذى كان لزاماً عليه أن يرفض دعوة سلطان بخاري بالمقام في بلاطه ، ذلك بأنه كان في حاجة إلى أربعمائة جمل

لنقل مكتبته التي كانت تمثل تقريباً مائة ألف كيلوجرام من الكتب والمخطوطات . وقد ترك الواقدي عند موته ستمائة صندوق من المؤلفات الثقيلة جداً من كل نوع يحتاج إلى رجلين قويين لحمل كل صندوق منها ، وثمة غني آخر صاحب مكتبة ضخمة هو الصاحب بن عباد الذي كان يملك أثناء القرن العاشر كتباً أكثر مما كان يوجد منها في جميع دور الكتب الأوروبية مجتمعة .

وخلاصة القول أن ما يشاهده المرء من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر لم يكن له مثيل قبل ذلك . ففي كل مكان كلف لاحد له بالكتب . وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء ، ومائة بلاط رائع تدوى بعبارات شعرية أو فلسفية ، وطرقات غاصة بعلماء الجغرافيا ، وعلماء التاريخ ، وعلماء الدين للبحث عن المعرفة . وهذه أهم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي .

مكتبة الاسكندرية :

قبل أن نترك هذه الدراسة المتعلقة بدور الكتب . نرى من الحق علينا أن نقف موقف العدل من أسطورة يصعب نقضها فقد أخذ على عمرو أنه هدم مكتبة الاسكندرية بناء على أمر الخليفة عمر . وقد كانت هذه المكتبة التي أنشأها بطليموس سوتير ، تحتوى مؤلفات اسخيلوس[1] وسوفوكليس[2] ، وتيتوس[3] ليفيوس ، وتاسيتوس[4] ، ومؤلفات أخرى أيضاً وصلت إلى حال يرثى لها كل الرثاء ، وكانت هذه المكتبة تحتوى

---

(١) شاعر درامى ولد فى اليوسيس وعاش من عام ٥٢٥ إلى ٤٥٦ ق م يعد المؤلف الحقيقى للدراما اليونانية . (المترجم)

(٢) شاعر درامى ولد فى كولون ، توفى فى عام ٤٩٥ ق . م ، يتصف أسلوبه فى الدراما بالبساطة وعدم التصنع . (المترجم)

(٣) مؤرخ لاتينى ولد فى بادوا عام ٥٩ ق . م ، كتب التاريخ الرومانى من بدايته حتى عام ٩ ق . م . (المترجم)

(٤) مؤرخ لاتينى ولد فى روما نحو (٥٥ — ١٢٠) ، مؤلف الحوليات وأخلاق الجرمانيين ، ومحاورة الخطباء ، وهو صاحب شخصية إنسانية وفنانة. (المترجم)

كذلك نصوصاً وميزات لبعض الفلاسفة ، لم يبق منها إلا مقتطفات كما كانت تحتوى آلافا من المجلدات ، فى التاريخ والعلوم ، والأدب ، والفلسفة الإغريقية ، والمصرية والرومانية . ويعد اختفاء مثل هذه الثروة مأساة من أكبر المآسى فى تاريخ الإنسانية .

ويحكى عالم مسلم هو عبد اللطيف البغدادى (١١٦٢ — ١٢٣١) أول بيان عن هذا التدمير الذى لا يمكن إصلاحه . وقد أثبت هذا البيان أبو الفرج ، وهو يهودى متنصر من سوريا يطلق عليه ابن العبرى (١٢٢٦ — ١٢٨٦) . تقول الرواية إن عالماً نحوياً من الإسكندرية طلب مخطوطات المكتبة من عمرو بن العاص الذى رجع إلى عمر بن الخطاب فى ذلك الشأن فأجابه : « إن كان فيها مايوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله غنى ، وإن كان فيها مايخالف كتاب الله ، فلسنا فى حاجة إليها » وعند ما تخلص عمرو من تبعاته ؛ وزع هذه المجموعة الثمينة من المؤلفات بين حمامات المدينة لتشعل مواقدها لمدة ستة شهور .

وحيال هذا الاتهام الخطير ، يجدر بنا أن نلاحظ أن أول دار للكتب كان قد أحرقها يوليوس قيصر فى سنة ٤٨ قبل الميلاد ، وأن المسيحيين دمروا أخرى فى عهد البطريق تيوفيل سنة ٣٩٢ ، وأنه وقعت عدة معارك فيما بين سنتى ٣٩٢ ، ٦٤٢ ، وهو تاريخ التدمير المزعوم . ويجب أن نضيف أنه فى مائتين وخمسين سنة ، أمكن عدداً معيناً من المؤلفات أن يختفى نتيجة الاهمال ، وعدم العناية ، وأن خمسة قرون ونصف قرن أخيراً مضت بين الحادث المفترض والبيان الأول الذى صور هذا الحادث ، على حين أنه لم ينوه بهذا الحادث أى معاصر ، حتى ولا اطوخيوس رئيس أساقفة الاسكندرية هذا إلى أن مثل هذا المسلك لم يكن مألوفاً عن عمر الذى كان يمنع من تلقاء نفسه نهب كثير من المدن ، كما قضى أيضاً على عادة مزمنة بإعلانه فى جرأة حرية العبادات .

العمارة :

عند ما مضى العرب فى الفتح ، كانوا لايعرفون إلا فناً واحداً : هو الشعر . وكانت التقاليد السامية قد صرفتهم عن فن التصوير وعن فن النحت إذ نظر إلى تصوير الأشكال الإنسانية أو الحيوانية على أنها ظاهرة لعبادة الأوثان ، والموسيقى على أنها

علامة للفساد . وقد فترت هـذه المحرمات فى بعض جـوانبها مع الزمن . لـكن الفن الإسلامى للعصور الأولى من الإسلام كان يقتصر على فن العمارة والزخرفة .

والتحقيق يقرر أنه لم يبق على وجـه التدقيق من بغداد شىء ، فقد أتت الحروب وصروف الزمن على كل شىء . فى الشرق الأدنى لم يبق من عهد الإسلام الأول إلا مبنيان فقط . جامع الأمويين(١) فى دمشق ، وقبة الصخرة(٢) فى أورشليم أيضاً من طراز بيزنطى وسورى حتى فى زخرفتهما .

ومع هذا ، يصور جامع الأمويين تصويراً كافياً الطراز الذى انتشر به الفن المعمارى الإسلامى . وقد أقيم فى سنة ٧٠٥ على القواعـد القديمة لـكنيسة مسيحيه مهداة إلى القديس يوحنا ، والتى كانت قد حلت محل معبد جوبيتر . ولا نستطيع اليوم أن نتبين العناصر الفنية القديمة التى يحتويها هذان المبنيان القديمان . فقد بنيت المئذنتان الجنوبيتان على أساس الـكنيسة . والمئذنة الشمالية يظهر فيها بوضوح ذلك النمط الإسـلامى وقد استخدمت كنموذج لآثار أخرى أقيمت فى افريقية وفى الأندلس على هذا الطراز نفسه. وفى شرق الامبراطورية ، اختار العرب الزخرفة القديمة الأشورية والبابلية . وبعد أن حلل المهنـدسون المعماريون العرب الفن المعمارى الفارسى واستخلصوا عنصر القبة ، والسطح الداخلى للقبة من الفن القوطى ، ومن الزخرفة الخاصة بالأزهار ومن الزخرفة

---

(١) . . . وسمح لأحـد سفراء اليونان أن يدخل المسجد ، فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم: « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ فى بلادى أن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف يشيدون عمائرهم . فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالا . [عن قصة الحضارة — عصر الإيمـان — تأليف وو ديورانت — ترجمة محمد بدران ص ١٥٩]. (المترجم)

(٢) يقول المقدسى : « فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلألأت المنطقة، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر فى الإسلام ولا سمعت أن فى الشرق مثل هذه القبة » . (المترجم)

الهندسية ، أنشئوا بفضل جميع هذه العناصر المنقحة والمتطورة تأليفة مبتكرة ومتنوعة ذات ثروة كبيرة فى النقش ودقة لانهاية لها .

ولا شك أن هذا — على أية حال — يعد تعويضاً عن رسوم الأشكال الإنسانية والحيوانية ، مما دفع المتفنن المسلم إلى التنويع الفنى فى هذه الزخرفة . فقد بحث عنها أولا فى جميع الرسوم الهندسية المتكررة والمركبة فى « تموجات » وفى نقوش بمنحنيات متداخلة ، وفى تشابكات ، وزخارف متداخلة ، وفى نجوم ، ولما مضى بعد ذلك إلى الرسوم الخاصة بالأزهار ، صور أكاليل الأزهار والخمائل ، أو أزهار نبات الجبال ، أو أزهار أوراق اللوتس ، واوراق شوكة اليهود أو أزهار أشجار النخيل ، ومزج الجميع فى نقش عربى . وأضاف أخيراً إلى كل ذلك الكتابة العربية الممتدة أوالعريضة ، والمزينة بتوقيعات الشكل وعلاماته . وامتد هذا الميل للنقش إلى جميع الأشكال الفنية الخاصة بصناعة الأوانى الفخارية وكذلك إلى الأقمشة والسجاجيد . وعلى هـذا النحو بالنسبة إلى المئذنة القامة « كأصبع يشير إلى الله » تشهد بالوحدانية الإلهية . فقد تلمس المرء فى النقش العربى دلالة روحانية ، وفى نفس الوقت ظاهرة تصوفية للمتفنن أوللصانع المسلم ، وفى الحقيقة لم يعثر المسلمون الذين لم يكن يعوزهم الخيال — حتى ذلك الحين — على رمز دينى . ويكفى أن صنعتهم المتزايدة فى الرسوخ عرفت تركيب الحجر والمرمر ، والخشب والمعدن ، والفسيفساء ، والخزف ، والفخار والزجاج لإعطاء منشآتهم وأثاثهم ومخطوطاتهم جمالا ذا شكل مجرد لم يسبق أبدا لأى فن أن عبر عنه .

وتكاد العمارة الاسلامية أن تكون دينية صرفاً . وإنك لتجد روائع هذه العمارة فى قصر الحمراء فى أسبانيا ، إلى تاج محل فى الهند ، بل لقد امتدت إلى جنوب فرنسا ، وفى صقلية . وقد يكون من الصعب أن نذكرها جميعاً ، ويجدر بنا مع ذلك أن ننوه بهذه الروائع بحسب ترتيبها التاريخى : قبة الصخرة فى أورشليم ، والمسجد الأموى فى دمشق ، ومسجد القيروان فى القرنين السابع والثامن ، والمساجد العظيمة فى قرطبة ، والزهراء فى اشبيلية فى القرن الثانى عشر ، وقصر الحمراء فى غرناطة والمدارس العليا الاسلامية فى فاس فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ومساجد السلطان أحمد والسلطان سليمان فى القسطنطينية والمسجد الكبير فى أصبهان وتاج محل فى أجرا وهما من القرنين السادس عشر ، ومن السابع عشر . وعلى الرغم من بعض الاختلافات

الناشئة عن مفاهيم إقليمية أو عامة ، فإن لجميع هذه الآثار مظهراً متجانساً تدين به إلى تقاليد الاسلام .

النحت :

لما كان تصوير جسم الانسان والحيوان ، محرماً . فقد قصر فن النحت على الزخرفة . ومهما كانت المادة المستخدمة ، حجراً أم خشباً أم معدناً ، فإن المتفننين المسلمين بلغوا دقة في التنفيذ تستحق أن تتحدث في إعجاب عنها كما تتحدث عن رسوم حقيقية تتجلى في أفاريزهم وألواحهم المزخرفة وتحفهم النادرة ، وكان الحجر يشذب ، وينقش ويمثل الملاط من الكلس والرخام الذى ينحت في مجموعات ثروة متنوعة من الزخرفة . وكانت المنابر والمحاريب في المساجد وحتى النوافذ والأبواب لبعض المساكن مزينة بنقوش رقيقة محفورة في الخشب . وكانت المصاحف والأثاثات والحلى توشى بنقوش من العاج ومن العظم . واختص بعض الصناع بصياغة الحديد والمعادن فصنعوا منها مصابيح ، وأباريق ، وزهريات ، وأقداح ، ومواقد ، وأبواب من البرونز والفلز ، والنحاس . وكان فن توشية الحديد والفولاذ يشتمل على تحليته بالذهب والفضة وحفر الرسوم المنقوشة في المعدن ، وقد شاعت هذه الصنعة في الحلى ومواد صناعة المجوهرات . وكانت أسلحة دمشق المصنوعة من الصلب المسنون المشحوذ محلاة بالأصداف التي كانت تشكل رسوماً أو آيات .

التصوير :

كان القرآن قد حرم النحت ، ووفقاً لتقليد قديم ، كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد أنكر كذلك الرسوم والتصوير . وربما كان متأثراً في ذلك بالتقليد القديم وبالمبدأ الحرفي للقرآن . أو كان يظن أن المتفنن كان يحاول ادعاء الربوبية بإعطاء صورة الأشياء حية . ولم تتوان الشريعة الإسلامية شيعة كانت أم سنية في الحفاظ على هذا التحريم المزدوج أن يدركه الفناء ، وقد ساند الشعب الشريعة إلى حد تشويه بعض أعمال فنية أو تدميرها أحياناً . ولكن رأينا إلى جانب هذا أن بعض الفقهاء أباحوا لفن التصوير أن يصور بعض الكائنات غير الحية ، ولم يعترض بعض الفقهاء الآخرين على وجود رسوم حية فوق أشياء ذات استعمال دنيوى . بل إن بعض الخلفاء

الورعين أذن بتصوير نقوش على حوائط قصورهم تمثل كنيسة ورهبانها . وذهب أيضاً المستعصم وهو آخر خليفة معزول على يد الأتراك السلجوقيين إلى ما هو أبعد ، ولم يتردد فى زخرفة مساكنه بمساعدة رسوم مأخوذة من كتيبات فارسية ذات فن غزلى . بيد أن التصوير الإسلامى الذى تباطأ فى انتشاره ، والذى انكمش فى تعبيره والذى اكتفى بالاعتماد على كرم حماة الآداب أو الفنون لم ينتشر إلا بعد فترة طويلة ، وبعد أن آن أوان انطلاق الفن العظيم .

الزخرفة :

لقد عوضت لحسن الحظ التحف الإسلامية التى تعد من أجمل الآثار الفنية التقصير السالف . كما كان الإنتاج فى ذلك الفن وفيراً .

وقبل الإسلام ، كانت الكتب السماوية ، وهى كتب مقدسة ، تكتب بحروف وضيئة لكى تذكرنا بالسماء بطريقة مثلى . وكانت هذه الحروف من ذهب أو فضة منسوجة على رقوق ملونة قبل كل شىء باللازوردى والأرجوانى والزعفران ، وكانت أغلفة الكتب مزينة بالدرر واليواقيت ، والمزودة برسوم ذهبية وفضية تمثل الجنة والنار ، والبعث ، واليوم الآخر ، ألخ . . ولقد عرف المتفننون فى الزخرفة وهم أساتذة فى تنوع الألوان والأصباغ فى أنفس المعادن كيف يعبرون عن لازوردية السماء المتلألئة بنجوم من الماس ، وعن الياقوت الأحمر الذى يمثله غروب الشمس ، وعن الياقوت البنفسجى للشفق ، أى أنهم عرفوا كيف يعبرون عن سر الشرق الخفى وسحره .

وفى عصر الإسلام الوسيط ، تابعت أيدى الفنانين المتحمسين هذه الجهود . فقد قلدوا منهم القدماء وطرائقهم فى الكتابة . وحل الشكل النسخى لحروف الهجاء العربية محل أشكال متنوعية لحروف الهجاء ، وخطوط قديمة ، وكانت حروف الكتابة فى حد ذاتها زخرفة . ولم توجد كتابة تجاريها فى رشاقتها وكما حمدنا لهذا الاتجاه فنه الأصيل وجماله العميق ، فإننا نأسى لما آلت إليه الكتابة على يد مطبعة جوتنبرج .

وفى المصاحف ذات الكتابة النسخية التى وصلت إلينا من العصر الإسلامى الوسيط تعبر الزخرفة وجناس السطور الدقيقة وتناسق الألوان عن « الاتقان الهادىء للجمال

المجرد ، وعن كثير من السمات التي تتعلق بفكر عاش فى سلام » . وكان مجرد نسخ الكتاب يعد عملا من أعمال التقوى .

كانت التعبيرات الزخرفية ، ورسوم الخطوط يتم نضجها فى مصنع فخار ثم ترفع حول المداخل الفخمة للمساجد ومحاريبها . وكانت الرسوم تنسج كذلك على أقمشة زخرفية . لهذا استطاع بعض الصناع المتواضعين ، بل أى عامل نسيج مبتدىء ، رأى صانع فخار أن يبلغوا بالدأب والمهارة إلى ميدان المنافسة فى الأعمالا الفنية . ولكن ، أ كان حقاً هدف كل صناعة أن تصبح فناً ؟ ولما كان المتفننون يجدون فى إثر خيالهم ، وفى البحث عن الجمال فقد كانوا ينالون حظوة كبيرة ، وكان الصناع يجدون أنفسهم مبجلين وتلك خاصية مميزة لهـذه الحضارة التى كانت لا تفرق بين هؤلاء وأولئك والتى كان كل شىء فيها يسهم فى تجميل الحياة .

الموسيقى :

كانت الموسيقى أيضاً فى بادىء الأمر إماً ، لكن شعوب آسيا كانت فى هذا الميدان فيما قبل الإسلام ، قد تذوقت النظريات الصينية والطرائق الفنية الهندوكية عند ما غزاها العرب . وكانت الموسيقى القديمة جداً للاسكيذيين المتوحشين تنتقل من الحالة الفولكلورية إلى الحالة العلمية ، وفى بلاط الساسانيين كان أساتذة مشهورون فى الموسيقى يتألقون فى الشرق كله أثناء العصر الوسيط .

سار العصر الكلاسيكى للموسيقى فى أول الأمر بدون أثر للعرب وقد كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يخشى الفجور الذى يمكن أن ينتج عن رقصات النساء ، وكان يجهر بأن الموسيقى كانت دعوة من « مؤذن » الشيطان ، وكانت المذاهب الأربع التشريعية فى الإسلام تزعم أنها تثير الشهوات ، لكن بعض الفقهاء أفتى أنها لم تكن جريمة فى حد ذاتها ، وكان بعض الظرفاء يدعون أنه إذا كان النبيذ بمثابة الجسد ، فإن الموسيقى بمثابة الروح .

وصل إذن العرب إلى هذا المعنى ، لدرجة أن مؤرخاً مسئولا استطاع أن يقول مؤكداً على وجه تام : « لقد حولت الثقافة الموسيقية فى كل نواحيها على يد العرب التعرف على الفن فى تاريخ البلدان الأخرى إلى شىء غير ذى موضوع » .

قد لا يجدر بنا أن نناقش هذا الحكم . فمن الصعوبة بمكان على أذن غربية أن تذوق خصائص الموسيقى العربية . وتظل عبارتها الموسيقية ذات بساطة ريفية ، وذات رتابة حزينة موجعة ، وبالنسبة للرجل الشرقى ، فإن الموسيقى الغربية تفتقر إلى الحساسية ، وتنقاد إلى ضجيج معقد ومنفر للأصوات .

بدأ العرب من السلم الصينى — الإيرانى الموسيقى ، وأقاموا السلم الطبيعى ، وأنجزوا تقدمات عظيمة فى فن العزف والآلات الموسيقية المتعددة : مثل الرباب ، والقيثارة ذات الأوتار الست ، والعود ، والقانون ، والبيندور ، والسنطور ، والمزمار ، والطبول التى تشد عند الحاجة بوساطة نقرات ، والدفوف ، والطبول التى منها الأطول والأضيق والطبول العادية ، والصنوج ، وهذه الآلات هى التى شكلت أخيراً القانون ، وهى أصل للعزف : البيانو : والنماذج الأصلية للأرغن الحديث ، لكن إيثارهم كان ملحوظاً بالنسبة للعود الذى كان من الواضح أن العازفين عليه لا يجارون . وقد أدخل المسلمون كل هذه الآلات فى شبه جزيرة إيبرية وفى أوروبا الغربية . وكانت آلات أخرى مثل الدف ، ومزمار القرية ، والصفارة ، والبوق والفلاوت التى يجدها المرء منذ وقت طويل فى أسبانيا من أصل عربى أيضاً .

ونحن مدينون إلى الفارابى (فى القرن العاشر) بكتابه الشهير «الموسيقى الكبير» الذى أسقط نهائياً المفاهيم الخاطئة للمدرسة الفيثاغورية تجاه موسيقى الكواكب وتناسق الأجرام السماوية . وهو من أوائل الموسيقيين الذين قدموا التفسير المادى لظاهرة النغمة التى تأتى من اهتزات الهواء والتى تزداد شدتها أو تقل بحسب طول الموجة . وأتاح له هـذا التحقيق الاستقرائى أن يحدد القواعد الضرورية لتركيب الآلات الموسيقية . والعرب أيضاً هم الذين أدخلوا فكرة الوزن فى الموسيقى وهيأت نتيجة كل هذه الخطوات الفنية ارتقاء الموسيقى الشعبية فى أسبانيا وفى البرتغال . وثبت هذا التقدم أخيراً بوساطة خلق تعليم الأغنية الذى أقامه لأول مرة فى قرطبة المغنى العربى الشهير زرياب الذى ندين له بالوتر الخامس للعود .

ولم تكن منزلة الموسيقيين فى جملتها رفيعة ، ولم يقبل بعض الفقهاء شهادتهم أمام القضاء . حقا لقد كانت الموسيقى على غرار الرقص حرفة الأرقاء المدربين والمأجورين ، وكانت هذه الحرفة مثيرة للعاطفة بقدر ما هى فنية وظلت حرفة دنيوية ، ولم يقرها

الدين الإسلامى . وقد أصلح مع ذلك الخلفاء العباسيون حال الموسيقيين من أتباعهم وأغدقوا على كبار المغنين فى عصرهم كثيراً من الهبات ، وأصبح بلاط هارون ملتقى المتفننين الموسيقيين .

شجع الخليفة هارون ، على الرغم مما كانت تقضى به مبادىء جنسه ومنزلته مواهب أخيه غير الشقيق إبراهيم بن المهدى الذى وهب له صوت ذو قوة خارقة للعادة كان يمتد على مدى ثلاث طبقات . وارتأى مغن آخر شهير اسمه مخارق ، وهو عبد قديم ، أن يخصص مقعداً لهذا الفن بجانب كرسى العرش . ولكن إسحاق الموصلى كان أعظم موسيقى فى الإسلام وكان الخليفة المأمون يقول عنه : كان لا يغنى أبداً إلا وتذهب عنى وساوسى المتزايدة من الشيطان » .

الحق أن الروح الإسلامية وحدها هى التى تتأثر بتلك الرقة السارية فى الموسيقى العربية . ويتحدث سعدى الشيرازى عن صبى فيقول : « كان يغنى نغماً مبكياً حتى إنه كان يقف أى عصفور عن طيرانه » .

(١١)

الزراعة ـ الصناعة ـ التجارة

الزراعة :

لم يلتفت إلى حال الزراعة وحاجتها إلى الإصلاح إلا قرابة القرن التاسع ، عندما وطد الخلفاء العباسيون النظام فى الامبراطورية.

وقد كانت الأقاليم المترامية الأطراف وبخاصة تلك التى توجد على حافة بحر قزوين وأفغانستان الحاضرة ، قد مسها الفتح العربى مسا خفيفاً ، واحتفظت بكيانها الاقطاعى دون تغيير محسوس وكان يسكن بلاد الشاطىء الغربى لنهر دجلة ومصر — فلاحون فقراء .

وعلى الرغم من أن حظ معظم الفلاحين المسلمين لم يكن مما يحسدون عليه ، فقد كان مع ذلك أسمى جدا من حظ أرقاء الأرض فى العالم المسيحى فى العصر الوسيط، بل فى العصور التالية ، ألم يكتب لابروبير La Bruyére فى القرن السابع عشر : « يرى عبر القرى حيوانات اردوازية اللون لفحتها الشمس ، هذه الحيوانات ، إنما هى بشر !! » وكان الخلفاء قبل ذلك بثمانمائة عام يؤمنون حماية معقولة لحياة الفلاح وعمله .

وقد تحسن الموقف فى مجموعه أيضا فى القرن العاشر، وفى جميع أنحاء الأمبراطورية عدا مصر، استطاع الفلاح أن يرتع أيضا فى بحبوحة حقيقية، وتحرر من وصاية الأولياء وأصبح المالك الوحيد لأمواله ومنازله ، بل ربما وصل إلى الثراء أحيانا ، على حين كانت العبودية محتوما عليها أن تبقى فى روسيا المتاخمة ولم تلغ منهما إلا بعد ذلك بألف سنة أى فى القرن التاسع عشر .

ولا تخلو أية دراسة لحالة الزراعة فى عصر أوج الإسلام من الفائدة ، ومن المحقق أن الجو وأسلوب الحياة تنوعا بعض الشىء من طرف إلى طرف فى هذه

الأمبراطورية الشاسعة التي امتدت من تركستان إلى المغرب . وقد أوضح علم (المناخ) أن أجناس الدواب كانت تتأقلم فى أقطار معينة أكثر منها فى أقطار أخرى ، ومن ثم ، استخدمت الخيل بمنطقة ماوراء النهر وشمالى إيران فى حراثة الأرض والنقل بالعربات والجمل بالنسبة للقطر العربى ، والجاموس ، بالنسبة للعراق وخوزستان المجاورة والعجول والبقر فى آسيا الصغرى . وانتشرت الآلات الزراعية انتشارا واسعا ، فوجد فى كل مكان تقريبا المحراث الموروث عن السلف المصنوع من سلاح حديدى وقلاب كان الفلاح يجره أحيانا بنفسه جنبا إلى جنب مع حماره عندما كان لا يملك خيرا منه ، وكان جميع الفلاحين يعرفون فن إعداد الأرض وحرثها كما كانوا يجيدون اتقان استخدام الأسمدة التى كانوا على علم بخصائصها ، ومقاومة الحشائش الطفيلية ، والحشرات الضارة بالمحصولات ، وكان المزارع العربى يستخدم فى هذه المقاومة وسائل مجدية ومدروسة . كما كان يستخدم أحيانا طرائق وتعاويذ ليست سوى بقايا خرافات قديمة . ويروى المازري أنه لكى تخلص أرضا موبوءة بالدنقة [1] ، كان يكفى مثلا أن تطوف حول هذه الأرض فى جميع الاتجاهات شابة عذراء عارية القدمين والجسم مسترسلة الشعر ، تحتضن بين ذراعيها ديكا أبيض تطوف حول هذه الأرض فى كل اتجاه ، ولم يذكركم مرة تفعل هذا ، لكنه كان يزعم أن النبات الضار سرعان مايذبل ويموت فى نفس اليوم ، وببذر بذور البطيخ فى جمجمة بشرية مدفونة فى الأرض ، كان يحصل المرء على منتجات تقوى من ذكاء الذين يأكلونها . وعلى العكس من ذلك إذا استخدم رأس حمار فان الظلمات تنتشر فى «قلوبهم» ومن العادات المحمودة أنهم كانوا يحرمون إطعام دود القز على أوراق شجر التوت الذى فى بيت الجار ، حتى لا يصاب باللعنة . وإنها لنصيحة حكيمة وأمينة .

البداوة :

يوجد البدو ، أعداء الزراعة بالفطرة ، فى كل مكان من البلاد العربية فقد تميزت دائما المناطق الصحراوية نظرا لجفافها بالبداوة التى يكون أصحابها فى حاجة مستمرة إلى الانتجاع ، وفى البحث الدائب عن مراع تستطيع قطعان الماشية أن تتغذى فيها على

---

(١) الدنقة = آفة تصيب الحنطة (المترجم)

كلأ ندر وجوده . وبدفع البدو ، والبربر فى إفريقية ، وأعراب أسبانيا والبرتغال محاربين ورعاة ، يدفعون أمامهم وبطريقة لاتعرف الكلل ، قطعانا من الخراف قصيرة القامة وقطعانا من الأبل المهرية (١) وهى أكثر مقاومة للحرارة من إبل التخوم الآسيوية .

وفى الشرقين الأدنى والأوسط تكون السهب غنية بمستنقعات من الملح فى الهضبة الوسطى فى إيران تسمى «قافير» وبصحراء رملية فى كراكوم ، وبناحية نهر أموداريا أى نهر الاوكسوس القديم . ومن ثم ، تترك القطعان الأراضى الحارة فى الصيف لتقيم فى مراعى الجبال التى ترتفع غالبا إلى ثلاثة آلاف من الأمتار فوق سطح البحر . وتتنوع الحيوانات وفقا للمناطق . ففى إيران توجد الا ن قطعان من الماعز والخراف ، وفى الوادى المنخفض من نهر أموداريا وبحر قزوين قطعان من العجول، وفى تركستان الخيول . ويقيم جميع الرعاة المنتجعين تحت خيام سود من صوف الماعز ويعيشون على الألبان واللحوم من قطعانهم ، والملاك الأكثر يسارا هم ملاك الخراف السود ذات الصوف الجعد فى إقليم بامير وبحر قزوين التى تعطى الجلود الثمينة لاستراخان ، والتى تقدر بثمن غال منذ قرون .

الـــــرى :

كان الرى ولايزال أمرا جوهريا فى الشرق كله ، ولاتزال آثار من شبكة طرق الرى ماثلة منذ آلاف السنين . وفى أحواض الأنهار الكبيرة ، حفرت قنوات لصرف المياه إلى مكان بعيد ، وكانت بلاد مابين النهرين ، وكلديا وسجستان تخطط بهذه القنوات . وكانت تستغل أحيانا مجار تحت الأرض كما تجلب المياه من الجبال إلى مئات كثيرة من الكيلو مترات ، كما لوحظ أيضا وجود آبار للتهوية وللتنظيف كانت مياهها تغرق دائما سهبا معزولة اليوم فى يزيد وفى كرمان . ولكن ، لا يكفى أن يكون ثمة ماء يجرى دون أن يروى الأرض عندما يكون الانحدار قويا جدا، وليس فى الإمكان دائما

---

(١) الإبل المهرية المنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قيل إنها لايعدل بها شيء فى سرعة جريها . (المترجم)

تهيئة مدرجات أرضية ، ولهـذا ، فقد حفر الفلاحون قنوات لا حصر لها ذات انحدار قائم على دراسة جيدة وزودوها بسدود صغيرة . ولم يبق إلا استخدام المـاء الغزير فى الوقت الملائم للزراعة عن روية وبعد بذل كثير من الجهود . ولم تضع الفائدة الأصلية المرى من العرب الذين أقاموا فى كل إقليم أو مقاطعة مديراً للرى . ولمـا تابعوا نفس الهدف فى توزيع المياه . فقد حتم عليهم فى بعض المناطق أن يتخلصوا من الماء الراكد ، ورواسب الفيضانات المخيفة أحياناً . ولهـذا جففوا المستنقعات وعملوا على إزالتها . وشجع الخلفاء فى صدر الدولة العباسية الجهود المبذولة لتصريف المياه ، ونجحوا فى إعادة بناء القرى المدمرة والمزارع المخربة .

السنة الزراعية :

فى الطرفين المتقـابلين من الشرق ، كانت فيضانات نهر النيل ونهر السند تجدد السنوات المصرية والهندية ، وكانت هذه الفيضانات تطابق المنقلب الصيفى الذى كان كذلك بداية السنة فى فارس — وكانت هذه البداية مناسبة لعيد تميز بنيران كبيرة توقد عند ما يأتى المساء .

وفى سبتمبر كانت تبدأ سنة الفلاحين المسلمين ، عند ما يبدأ الزيتون فى النضج ، وعند ما ينضج الرمان والسفرجل وأشجار الفيراء . وكان الفلاحون يحصدون وقتئذ الأرز واللوبيا ، وكانوا يشرعون بعد ذلك فى اقتلاع أشجار الحناء ، وفى تطعيم الـكرم . وفى أكتوبر ، كانوا يبدأون حرث الأرض . وفى الوقت نفسه كانوا يغطون أشجار النارنج ، وأشجار الموز ، وأشجار البرتقـال لحمايتها من البرودة الوافدة . وكان نوفمبر الشهر الذى يبذرون فيه الشعير ، والحنطة ، والـكتان . وكان الخشخاش الأبيض يبذر أثناء الشتاء ، فى أمكنة مصونة بعناية من الرياح ومن البرد ، حتى إذا خفت حدة البرودة ، كانوا يشرعون فى إعـداد الأراضى المخصصة لزراعة القطن والـكتان . ثم يشتغلون بتقليم أشجار اللوز والخروب ، وبعد ذلك يقطعون قصب السكر . وفى الربيع . كانوا يبذرون الحناء ، والباذنجان ، والـكتان وفى الوقت نفسه كانوا يعـدون بذور الخضر ، ثم ينقطعون إلى أعمـال تقطير الروائح وماء الورد . . وفى غضون أيام الصيف الطويلة وفى نهاية شهر يونيو كانوا يجمعون البرقوق ، والتين ، والبطيخ . وكان موسم الحصاد ،

وجنى الحبوب والبقول ، يأتى بعد موسم حصاد الدريس . وفى الخريف فى أثناء اكتمال نضج البلح والعناب كانوا يحصدون الأرز والنيلة ، على حين كانت تبشر غضون الكروم المذهبة بقطفها .

زراعة الخضر فى البرك :

أنتجت دائماً حدائق الشرق — باستثناء البطاطس والطماطم اللذين لم يكن العرب على علم بهما بعد — جميع أنواع الخضر بوفرة : كالكراث ، والكرفس ، والبصل بمختلف الألوان ، من أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ، والخيار الذى كان يغمس بذره فى ماء الورد ، أو يغرق بالخل ، والخيار المخلل ، والقرع والباذنجان ، ولم يهمل أى شىء فيه مرضاة لفن الطهو ، وإذا ماتصورنا التنوع إلى غير نهاية فى النباتات العطرية، فإنما ذلك لكى نذكر أن الشمر ، والبروقوش ، والمرد ، والأنسون ، والنعناع ، والحبق الريحانى ، والكمون كانت تتزاوج مع العنبر وشطة السودان كما ترضى أكثر الأذواق رقة ، وأكثر الرغبات إثارة للغريزة الجنسية .

ولم تكن زراعة البساتين سراً خافياً عن الشرقيين . وكانت أشجار النخيل المختلفة الأنواع ، وأشجار البلح ، وأشجار التوت ، وأشجار التين فى حقول معتنى بها ، إلا فى مصر وفى إفريقية . وكان المزارعون الأكثر تطوراً يحاولون أن يؤقلموا فصائل جديدة مستوردة من البلاد النائية. وكانت الحديقة النباتية فى تبريز بإيران مشهورة بجمعها لأكثر الفواكه ندرة فى آسيا ، والصين ، والهند . وكانت زراعة الكروم قد غزت العالم الإسلامى من المغرب والبرتقال حتى القوقاز . وكانت بعض محصولات النبيذ بخاصة ذائعة الشهرة وبخاصة نبيذ حمدان بيد أنه بقدر تنوع العنب ، كانت تتنوع الأنبذة من أنبذة خفيفة أو كثيفة ، حلوة أو حامضة صافية أو مسكرة ، تلائم جميع الأذواق . وقد كان زراع الكروم الشرقيون فى الحقيقة منذ عصور الحضارة الفارسية الموغلة فى القدم على دراية بزراعة الكروم وفن تشذيبه وتطعيمه ، وتسميده كما هى العادة فى الكروم المشهورة فى العصر الحديث .

زرعت أشجار البرتقال والليمون فى بلاد ما بين النهرين ، وفى فارس ، وفى كردستان ، وفى مزارع البصرة ، وفى خوزستان وفى القاهرة ، وفى بغداد وكانت

زراعتها سهلة . وقد أتاح التطعيم الحصول على أنواع مختلفة منها ، وأصناف ذات خواص لذيذة . وابتدأ إعداد عصير الليمون منذ ذلك الحين . وكانت شجرة الزيتون على العكس منتشرة على شواطىء البحر المتوسط ، وفى الأندلس . وفى صقلية ، وفى سوريا ، وكان الليمون الهندى ، وقصب السكر ، منتشراً فى مصر وعلى شواطىء بحر قزوين . وأشجار نخيل البلح كانت تزرع بطريقة غريبة . كانوا يزرعونها ببذور يروونها بالماء كل يوم . وكانوا يعنون قبل بذر البذور بإضافة بعض الملح إلى الأسمدة وإلى الأرض . وكان تلقيحها بمارس صناعياً بهز بعض الأزهار من أسفل الشجرة المذكرة على أسفل الشجرة المؤنثة اللهم إلا إذا كان المرء يلقى بتؤدة هذه الأزهار إلى الطبيعة الأم التى:(١)

« . . . لـكى تلقح الهواء على غرار شجرة نخيل من آسيا ما عليها إلا أن تقذف فى الريح ببذرتها المعطرة . . » .

كانت زراعة أشجار الموز تتطلب كثيراً من الحرارة والرطوبة . ولـكى نجعل هذه الفاكهة أحلى مذاقاً ، كانت فسائلها تطلى بالعسل . وفى الحقيقة كان الشرقيون أغنياء بالتجارب والمعرفة والملاحظة وعلى دراية ببعض المشابهات ، والاختلافات التى تربط بين شجرة وأخرى ، كما أنهم كانوا يعرفون إخصاب بعض الثمار بمختلف الألوان من شجرة واحدة .

ويتناول بالتفصيل بحث نشر فى اشبيلية فى القرن الثانى عشر زراعة أكثر من خمسين شجرة فاكهة وبيان أمراضها المتنوعة مع وسائل علاجها .

الحبوب :

يذكر هيرودوت أن بلاد ما بين النهرين ، كانت موطن القمح ، بل إن هذا القطر كان كذلك غنياً بزراعة حبوب أخرى مثل الشعير بخاصة . وقد مورست زراعة الأرز فى المناطق المجاورة لبحر قزوين ، وفى بلاد ما بين النهرين ، وفى العراق ، وفى عيلام وعلى الشاطىء الغربى من نهر دجلة . وكان الأرز ، فوق فائدته الغذائية ؛ يستفاد من قشه الذى كان يصنع منه حصر ، وقلنسوات ، وسلال ، وحقائب ومكانس .

---

(١) هنا كلام ناقص .

الزراعة وتربية دود القز :

لم تكن توجد فى الشرق أعمال مشرفة غير أعمال الفلاحة ولم تعد تربية الماشية ، ودراسة النحل ، وعاداته ، وتربية دودة القز بخافية على المزارعين الشرقيين وكان العسل منتشراً جداً فى فارس حتى إنه كان يتم التقايض به ، وكانت الدولة تقبله وفاء للضريبة . أما تربية دودة القز ، فقد بلغ من إتقانها أن أصبحت علماً حقيقياً . وكان يعرف من قبل انتقاء الشرانق وأشجار التوت نفسها ، والرجوع إلى تنظيم عمال تربية دود القز . وأصبح إنتاج الحرير وفيراً جداً فى فارس حتى استطاع أن يواجه كل استهلاك أوربا فى العصر الوسيط .

النباتات المتعلقة بالصناعة :

القطن نبات هندى الأصل أدخل إلى إيران والعراق فى بداية عصر الميلاد ؛ ثم زرعه المسلمون فى سوريا ، ومصر ، وأسبانيا . وكان الكتان يزرع فى دلتا النيل منذ العصور القديمة . لكن الإسلام نشر زراعته فى القرن العاشر فى خوزستان وفى جنوب فارس ووصل استغلاله بعد ذلك إلى الشمال وبحر قزوين . وكان هذا النبات يتطلب أرضاً رطبة وتربة جيدة ، ولا يكاد يصفر حتى يأخذوا فى حصاده ، وبعد أن ينقع فى الماء ، ويجف يستبعد القش بالدراس .

كان نبات النيلة يزرع فى ابريل بعيداً عن الرياح الباردة ، وينقل إلى مكان آخر عند ما ينبت من الأرض . وكلما أخذ فى النمو ، كان يلتف حول غابة مغروسة أسفل كل شجرة . وكانت الفوة[1] تذر فى الهواء مثل القمح على أرض محروثة وممهدة . وكانت تروى كل ثمانية أيام . ثم كانت تعطى بعد ذلك جذراً مشرباً بالحمرة يقتلع بمجرد أن يصل إلى نمو معين . والحناء شجيرة تغمر بالماء مدة خمسة عشر عاماً تقريباً فى مصر العليا وفى الحبشة . وقد نجح المسلمون فى إدخالها بصعوبة إلى سوريا ، وجنوب فارس ،

---

(١) الفوة على وزن القوة = عروق يصبغ بها . (للمترجم)

لـكنه تحول هناك إلى نبات ينزع كل عام ، وما يستخدم منه هوأوراقه المجففة فى الظل . ويزرع الزعفران بطريقة زراعة البصـل نفسها . وكان البصل يزرع فى مايو وكانت هناك زهرة زرقاء ذات غصون سمراء مائلة إلى الصفرة تجمـــع فى الخريف . وكان الخشخاش ذو الأزهار الحمراء التى كان يستخرج منها الأفيون ، يبذر أثناء شهور الشتاء ويروى مرتين كل أسبوع حتى الصيف . وعند ما كانت تجف رؤوسه : تقطف من الساق لـكى يستخرج منها الأفيون . وكانت هذه المـادة المضوية تصنع فى أسيوط وفى مصر العليا وتستخدم فى الطب كمخدر .

العطور والأزهار :

كان للبخور والصبر فى الجزيرة العربيه شهرة معروفة ولم يتوقف أبداً السلف عن الاستفادة بهذا البخور ، الذى كان يذكر المرء بأكثر التقاليد قدما فى الشرق . وعلى مذبح العطور ، كان العبرانيون يقدمون البخور إلى الإله يهوه . وفى حظيرة بيت لحم ، قدم الملوك المجوس البخور والمر مع الذهب إلى يسوع الطفل واليوم يحرق البخور أيضاً فى أعياد المذهب الـكاثوليـكى .

كانت فارس ذائعة الصيت من أجل بخورها المستخلص من الورد ، والبنفسج ، والياسمين ، وبسبب التنسيق المتقن الذى بلغته فى زراعة الأزهار المطعمة . وكان أحد الملوك المعاصرين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) يتساءل : ماذا كان يمكن أن يكون عليه عطر السماء ؟ فأجابه أحد جلسائه بأنه مزيج من الورود الملـكية ، ومن الورود الفارسية ومن حبق سمرقند ، ومن أزهار شجرة النارنج فى طبرستان ، ومن نيلوفر البانيا ، ومن العطر الثلاثى للصبور الهندى ، ومن مسك التبت ، ومن عنبر سيكهير[1] » .

لقد كانت الأزهار فى الشرق مرغوبا فيها حتى بين الطبقات الدنيا القانعة بالقليل والمهتمة بالحصول على الضروريات ، أما الطبقات الغنية فـكانت تقوم على رعاية حدائق ناضرة حتى فى المدن الآهلة بالسكان مثل بغداد . وتحت الشمس المحرقة فى الريف ، كانت البيوت الفاخرة خارج المدن تنتشر متراخية وسط أحواض شاسمة من الأزهار .

---

(١) ميناء قديم من موانى بحر البلطيق . (المترجم)

ففى فارس مثـلا كان المرء فيها يمزج شجرة الورد بشجرة اللوز للحصول على أنواع نادرة . لهـذا لم تـكن الورود فيها بارعة الجمال . وجملة القول أن رجال الشرق فى العصور القديمة كانوا يحبون الأزهار كإكسير للحياة .

الصناعة :

لم يتح اختفاء طبقات الفحم فى جوف الأرض ، أى تقدم ملموس للصناعة المعدنية فى الشرق الأدنى . وقد وجد منه بشق النفس بعض العروق الخفيفة فى منطقة يزد وسط هضبة إيران ، وفى لورستان ، وهى أقطـار عسير مزارها ، فـكان استغلال الخشب ضرورياً إذن . وأدت هذه الضرورة إلى إزالة الغابات من بعض ولايات أفغانستان الحالية ومن جبال أرمينية ، وهى مركز تموين لبلاد مابين النهرين .

المعادن :

أما الذهب والفضة والزئبق فـكانت توجد فى منطقة جنزاك ــ وهى مدينة مشهورة بعلمائها الـكيميائيين ــ وبين نهر دجلة الأعلى وبحر قزوين،وفىمناجم جبالزاجروس . وكان البوراكس والأنتيمون يأتيانمن أرمينية . وكانت منطقة بنجهير فى أفغانستان غنية بمناجم الفضة والنحـاس ، كما كانت توجـد طبقة صغيرة من القصدير فى منطقة كابول . لـكن أهم منـاجم الذهب هى التى كانت تقع بين بلاد النوبة والبحر الأحمر فى مصر .

كانت المعادن تجلب إلى المدينة ، حيث كان النحاس يصهر ويطرق ومعه البرونز والقلز ، والفضة ، والذهب.وكانت الأباريق ، والأوانى ، والأقداح ،والأكواب ، والأحواض ، والسفافيد ، والمفاتيح ، والمقصات ، والصينيات ، والمرايا ، والمصابيح ، والشمعدانات ، والمواقد ، والمباخر ، والآلات الفلـكية ، وأغلفة مصاحف القرآن . . كانت هذه الأشياء كلها تصنع وتتخذ بحسب رسوم ونماذج فنية .

كما أنه نشأ فى بلاد مابين النهرين من النحاس الذى كان أقل ندرة من بقية المعادن ، صناعة قطع مطعمة بالفضة لها تأثير عجيب فى نفوس الناظرين . واختصت دمشق والموصل بصناعة الأسلحة والدروع من المعدن العادى ، وكانت هذه الأسلحة

المزخرفة إلى درجة الإتقان بفضل العرب علاوة بخيوط من الذهب أو الفضة . وفى دمشق كان يثبت الخيط الذهبى أو الفضى فى الفراض الخشبية أو بعض الساكن المجهزة مقدماً ، وفى الموصل ، كانت تسوى هذه الأسلحة بضربات من المطرقة فى مجموعها بحسب رسم موضوع : وكان يطلق عليها اسم « الدمشقيات » . وكان الصلب والحديد يجهزان فى سمرقند وأذربيجان والبرونز فى بخارى ، ونيسابور ، والنحاس فى الموصل وديار بكر . وكان القصدير نادراً فى الشرق . وكان منه القليل فى بلاد صنديان فى امودارياالعليا ، وكان يمزج بالبرونز . وكان الرصاص لا يحتاج إلى المزج . ويستخدم هـذا الرصاص لبناء سقوف المساجد ، وأنابيب المياه ، وتثبيت الأحجار .

ومع ذلك ، لم يعرف الشرق الصناعات الكبيرة ، ولا الخطوات الفنية الجادة فى ميدان التعدين ، وظلت الصناعة فى مستوى الصانع اليدوى ، وبقيت الأشياء تصنع فى (الورش) والمحال الصغيرة كما كانت عليه فى الماضى .

وكان العامل[1] يبدى ، فى هذه (الورش) وفى هذه المحال ، مهارة وحذقاً وصبراً وكانت كل هذه تعوق الإنتاج بدون شك ، لكنها كانت تمنحه صفة الإتقان ، وطابع الطلاوة . وقد بلغ صانع المعادن ما بلغه الخطاط ، وصانع الفخار ، وصانع الخزف . ولا شك أن فى كل عمل متقن فضيلة مهما يكن هذا العمل الفنى الشخصى متواضعاً ، ومهما تكن قدرته على التعبير عن ذات نفسه .

ولم تكن الآثار الفنية المترفة التى يصنعها المتفنن لعلية القوم الشاغل الوحيد لصناع المعادن ، بل كانوا يصنعون أيضاً السلاسل الضخمة التى كانت توصد مداخل الأبواب ، والتى كانت الحلقة الصغيرة منها فى طول الذراع وضخامتها . فقد منعت السلاسل

---

(١) ... لقد كان السيد فى العادة يحسن معاملة العامل إلى حد لم يكن مركزه أسوأ من مركز العامل فى المصانع الأوربية فى القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالا من ذلك الصانع ، لأنه كان آمنا على حياته منه ... ولم يبلغ استغلال العمال فى بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه فى البلاد الوثنية أو المسيحية [عن قصة الحضارة ـــ عصر الإيمان ـــ تأليف ول ديورانت ـــ ترجمة محمد بدران ص ١١٢ و١١٣] .
(المترجم)

الأسطول العربى من دخول البوسفور مرتين . ولم يذهب سدًى هذا الدرس القاسى . ففى الميناء الذى أنشأه المهدى على مقربة من تونس ، كانت أبواب ، يزن مصراع الواحد منها خمسة أطنان . وكانت معظم المدن المحصنة توصد بوساطة أبواب قوية من الحديد المطروق . وكان صانع الأوانى النحاسية يصنع فى سمرقند قدورا تسع أكثر من ألف لتر. وأتقن العرب صناعة سنبك (حدوة) الخيل ، وتعلم الصليبيون — عن طريقهم — مدى ما تتمتع به سيوف دمشق من صلابة قوية . ويشير بيان موجز عن ثروة الفاطميين إلى المدى الذى وصلت إليه المنتوجات الصناعية الشرقية : فيذكر البيان هذه الحقائق ، « أربعمائة قفص من الذهب ، وستة آلاف آنية من الذهب ، وخزانات من الفضة تزن مائة وخمسين كيلو ، وديكة ، وطواويس ، وغزلان ذات حجم طبيعى من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة وأشجار نخيل من الذهب فى أقفاص من الذهب ، وأسلحة ، ودروع ، وأكثر من مائة ألف تحفة عينة فى مجموعها منها ثلاثون ألفاً من معادن مختلفة »(١)

الخشب :

كانت صناعة الخشب مزدهرة على الدوام عند العرب . ومما يثير الدهشة لدى الرجل الأوروبى حين يزور الشرق ، المشربيات المصنوعة من الخشب المفرغ والتى تكسو النوافذ . وكذلك أيضاً عدد كثير من العرائس من الخشب المنقوش حول الشرفات والأروقة . وفى المساجد والمحاريب ، والمنابر ، ودكة القراء ، كلها مصنوعة من خشب جميل قوى محفور بشكل يثير العجب . وتزين معلقات متقنة الصنع المساكن الخاصة ، والسلالم والحواجز ، والنوافذ ، والأبواب . وتصنع كذلك المقاعد ، والأرائك ، والمكاتب ، والموائد ، والنضد المستديرة والعلب المزينة بصفائح رقيقة متنوعة من الصدف أو المرمر أو الخشب الثمين أو بنقوش من الودع على شكل سكين مقلل ، من خشب مزخرف . والخشب هام جداً من أجل الصناعة والبناء والتدفئة .

ولكن — كما يقول جوتيه (Gautier) وربما كان هذا القول مبالغاً فيه ، « قد

(١) على مظاهيرى : الحياة اليومية للمسلمين فى العصور الوسطى .

« قد لا يوجد فى الجزيرة العربية خشب يكفى لصناعة عود ثقاب » فالشرق الأدنى كله مشترك تقريباً فى ندرة الخشب اشتراكا على أجمل وجه ، باستثناء لبنان الذى كانت أخشاب أرزه تستخدم من قبل فى بناء الأسطول الفينيقى ، ثم الأسطول العربى ، وباستثناء أرمينية التى كانت تمد بلاد مابين النهرين بخشب الوقود . وكانت بقية أخشاب غابات أرمينية تقطع من أجل احتياجات الصناعة . إذن، فقد كانت الأخشاب المستخدمة فى الصناعات مستوردة . وكانت جميع مساكن الخليج الفارسى ، ومساكن بلاد مابين النهرين ، والجزيرة العربية تستخدم فى هياكلها الخشبية ، وفى أثاثها خشب الهند ، والملايو ، وإفريقية . وتجلب هذه المواد بالسفن أو بوساطه ناقلات بحرية مصنوعة من جذوع الأشجار مرتبط بعضها ببعض بسلاسل حديدية .

هذا هو السبب الذى من أجله كان فن صناعة الخشب منتشراً دائماً فى البلاد العربية . وكان الصناع من المهارة على الغاية وكانت التحف الخشبية المقطوعة قطعاً فنياً أحياناً فى نقش حقيق أو الملسقة بإحكام تشهد ببراعتهم . وكانت الزخرفة تتركب من نقوش ومن قطع من الخشب الثمين تطعم بها الأخشاب العادية : مثل خشب الأبنوس ، والخشب البنفسجى اللون ، والخشب الوردى أو قطع من اللؤلؤ ، ومن العاج ، ومن المعدن . وكانت قطع الشطرنج تحتوى على ألوان فنية رائعة .

الورق:

عند ما احتل العرب سمرقند فى سنة ٧١٢ ، أذاعوا فيها طريقة تمطين الكتان وتشكيل عجينة منه تنتهى إلى أوراق رقيقة جداً وهذه العجينة تستطيع أن تحل محل الورق الأبيض الأملس والرق اللذين كانا نادرى الوجود وأثمانهما غالية . وكان هذا الورق « البابيروس » يذكرنا بالورق البردى ، وسرعان ما استبعد الكتان وحل محله القطن لأنه أقل تكلفة ومنتشر جداً فى الشرق . وقد خلق الوزير الفضل البرمكى الصناعة الأولى للورق فى بغداد فى سنة ٧٩٤ . وهذه الصناعة التى كانت من أصل صينى انتشرت بسرعة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جداً بسبب الترجمات ، كما أن الشغف العام بالكتب كان يستلزم الإكثار على نطاق واسع من صناعة الورق . وقد انتشر الورق بسرعة فى جميع البلاد الإسلامية حتى بلغ أسبانيا ، وقد اقتضى مع ذلك أكثر

من ثلاثة قرون لكي ينتقل إلى أوروبا . وظلت سمرقند وقتاً طويلا المدينة الهامة للورق الجيد . وكانت القوافل تحمل من الصين إلى سمرقند الورق الذي يقال عنه ورق الحرير . ومن الصين تأتى جلود الكراسات ، وكانت أحجام أوراق الكتب كتلك التي تستخدم اليوم . مثل القطع على النصف والقطع على الربع أو البغدادى ، والقطع على الثمن أو الثلث ، ولم يكن معروفاً لدى العصور القديمة غير دروج الرق .

وتحتفظ المكتبة القومية فى باريس بنصوص مطبوعة بوساطة المانويين[1] فى تركستان قبل مطبعة جيتنبرج بستمائة عام . وعن طريق تركستان أدخل المغول فى فارس فى القرن الثالث عشر أوراقا خاصة خليقة بأن تطبع بمساعدة حروف متحركة من البرنز . وهذه كانت أول أوراق نقدية . وقد أدى سوء استخدام هذه الأوراق النقدية إلى اختفائها واختفاء طريقة الطبع فى وقت واحد . لكن أهالى جنوا كانوا قد اطلعوا على طريقتها الخفية المزدوجة وحملوها إلى أوروبا .

الزجاج :

كانت صناعة الزجاج من أصل فينيقى ، ثم تقدمت فى مصر وسوريا حتى بلغ من تقدمها أن كانت تباع وتوزع بضائع لا حصر لها فى قوارير زهيدة الثمن . وعثر على بقايا تحمل شواهد عن هذه الصناعة مؤرخة من القرن العاشر . وصنع الزجاج أولاً فى فينيقية ، وظلت مصنوعاتها الزجاجية مرتفعة القيمة مدة طويلة . وصدرت من وقت مبكر مصر وسوريا إلى حوض البحر المتوسط كل مصنوعاتها الزجاجية . وسرعان ماورث المسلمون عن الفينيقيين والمصريين والسوريين مهارتهم فى صنع الزجاج ، ومنذ القرن التاسع ، كانت مخترعات حلب فى هذه الصناعة مرغوباً فيها جداً ، وكانت هذه المدينة تصنع أكواباً وقوارير ، وزجاجات متداولة الاستعمال وأوانى أو آلات من الزجاج من أجل الكيمياء، مثل أنابيب التقطير ، وما إليها الخ . وكانت دمشق

---

(١) أتباع مانى وهو رجل من أهل إكباتانا (همذان) (٢١٥ — ٢٧٢) ، وكان يقول إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر . (المترجم)

تصنع الزجاج المذهب ، والقاهرةالقديمة أقداحاً شفيفة تشبه الزمرد . وأما فى العراق وفارس فقد صنع البلور المصفى لأول مرة . ويحتفظ اللوفر والمتحف البريطانى بتحف فاخرة من سامراء والفسطاط : من أقداح ، وآنية ، وأباريق ، وقناديل موشاة بألوان براقة ومغطاة بطلاء ملون بألوان الطيف أو بيلاتين معدنى ذى ألوان متغيرة كقوس قزح . وكانت صيدا وصور تحصلان من صناعة الزجاج على صفاء ونعومة لا مثيل لها . ومن بداية القرن الحادى عشر ، بدىء فى صناعة صحائف الزجاج التى استخدمت فى زجاج النوافذ ، وفيما بعد بقليل ، بدىء فى صناعة قناديل المساجد من عجينة زجاجية مزخرفة ذات ألوان متنوعة . وصنعت المصابيح « الاباجورات » الزجاجية المزينةبنقوش وخطوط ورسوم زهرية . وقد زينتالمساجد والقصوربحواجز زجاجية دقيقة الصنعجداً ، حمراء أوخضراء أوصفراء . وأدخلت هذه الصناعة فىصقلية فىالقرنالثانىعشر . وفى ذلك العصر ، كانتحلب ودمشق تصنعان عجائب منالزجاج بمساعدة رسوم بألوان الطيف . وأما البندقية فقد حصلت أخيراً من سوريا ومن مصر على المواد الأولية والعمال العرب الاخصائيين وعلى طرائق هذه الصناعة الخفية التى احتفظت بها عن جدارة وحرص من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر .

صناعة الفخار:

ترجع صناعة الأوانى الفخارية والخزف المطلى إلى أصل صينى ، وإيرانى ،وساسانى. وكان الحجر نادراً وغالى الثمن فى بلاد ما بين النهرين وفارس ، أما الصلصال والحرارة فإنهما منتشران وقد حول تنوع الترتيب والتشكيل القرميد المتداول إلى أشكال أخرى بوساطة حركة الضوء والظل . فقد صنعت صفائح من الخزف ، وقراميد مزخرفة ، وفسيفساء مختلفة ألوانها تكسى بها الجدران كما صنعت واجهات رائعة من الأفاريز المنقوشة ، ومن بعض الخزف المصقول ، والمطلى بالمعدن ، وكانت المساجد فى جميع بلاد الإسلام قاطبة تزين بها الواجهات وكانت الطلاوة الرقيقةلهذه الزخرفة الداخلية تتوازن فى انسجام مع القوة المهيبة للأشكال الخارجية .

وفى القرن التاسع ، تحت بعض التأثير للصناعة الصينية — صنعت فى خراسان ، وفى أفغانستان وفى سامراء على نهر دجلة ، وفى سوسا ، وفى الرى ، وفى الرقة على نهر

الفرات ، تحف من خزف متنوع تمتاز بحسن الشكل والتناسب ، ذات ألوان غنية جداً تذكرنا بخزف الصين . ولكن فقدان الفخار الأبيض فى الشرق الأدنى منع انتشار صناعة الأشياء نصف الشفيفة . وأن كانت بعض صناعات الأوانى الفخارية تحاكى الألوان المختلفة الصينية ، وأخيراً كانت تضاء بعض صناعات أخرى بانعكاسات من الأضواء الذهبية والفضية يتوصلون إليها بمزج الأوكسيدات المعدنية . وقد رأينا فى الرى وفى الرقة أنواعاً من الصناعة الفخارية ذات المنظر الطبيعى المعتمد فى رسمه على اللون ، تتركز فنيتها فى رسوم صغيرة ذات ألوان رائعة ، وكانت تحف مزخرفة بألوان مختلفة تمثل صوراً ، ومناظر وشخصيات عربية من الذهب الذى يغلب عليه اللون الأزرق . وأخيراً ، اختصت منطقة الموصل بصناعة الأوانى التى تحمل نصوصاً بالنقش البارز ، وتبدو صناعة الفخار الفارسية كأنها زخرفة ضرورية فى هذا البلد ، وهى الانعكاس المشرق لعبقريته ، وهى تصور بمهارة ، وبتنفيذ فيه ذوق رقيق ، ولتخرج ذات ألوان باهرة ، ولم يكن لها من منافس فى الغرب لمدة سبعمائة سنة أو ثمانمائة سنة . ومما يروى أن وليمة أقيمت فى القرن التاسع فارتجل فيها المدعوون قصائد تمجيد للأكواب التى كانت تزين مائدة طعامهم .

الصناعة الكيمائية :

كان علماء المسلمين يفترضون أن جميع المعادن ، من نوع واحد وكانوا يعتقدون فى إمكان تحول هذه المعادن . وعلى هذا بحث علماء الكيمياء فى تحويل المعادن «الخسيسة» إلى ذهب أو فضة مثل الحديد والنحاس والرصاص والقصدير إلى ذهب أو فضة . وذلك بمعونة حجر الفلاسفة وهو مادة تعالج بطريقة خاصة . وظلوا يبحثون عن حجر الفلاسفة هذا لكنهم لم يكشفوه بعد . وكان الشعر ، والدم ، والبول ، والغائط تعالج بمساعدة مواد كاشفة متنوعة تخضع للشمس ، وللنار ، وللتكليس ، وللتصعيد بأمل الحصول على «الإكسير» الذى يطيل الحياة .

وفى عصر الكيميائيين نفسه ، كان هناك فنيون توجههم مصلحة عملية يسعون — فى معامل حقيقية — إلى تجربة قياسية للأجسام الصلبة ، أو المركبة . وكانت هذه البحوث تتناول كذلك المعادن ، والأملاح ، والأحماض ، ومواد التلوين ، والأجسام

الدهنية ، الخ . . وكانت مواد التجربة مكونة من آلات تقطير ، ومن أفران ، ومن مواقد للتقطير ، ومن موازين ، ومن جميع الأجهزة الضرورية من الأحجار الرملية ومن الزجاج أومن المعدن . وكان كيميائيو هذا العصر يمدون جداول تشير إلى الأوزان النوعية ، الأمر الذى جعلهم قادرين على أن يميزوا بين الأجسام عن طريق وزنها أولا ، كما استطاعوا أن يتعرفوا فيها بوساطة تحاليل مختصرة ، وطريق إعادة إنشائها عن طريق تأليفها .

كانت مهارة الكيميائيين ومعارفهم أداة صالحة وجدوا بها أصباغاً لتلوين الأنسجة ، والفسيفساء ، وصناعة الأوانى الفخارية . وكانت هذه الأصباغ ثابتة حافظت على رونقها طوال ألف سنة .

ولم تكن العصور القديمة تعرف غير العطور الشرقية الصبر ، والمسك ، والبخور . فقد أخذ العرب يعرفون العالم طريق استخدام العطور . وتعلم الكيمائيون بسرعة استخراج العطور من الأزهار . وفى شابور ، كانوا يقطرون جميع الروائح وفقاً للطرق الفنية الزرادشتية : مثل النرجس ، والبلك ، والبنفسج ، والياسمين ، الخ . . وكانت جور مشهورة بمياهها المطرة ، وكانت تصنع مياهها من زهر البرتقال وماء الورد المجلوب من ورد أصبهان .

كانت سمرقند مشهورة بعطرها من الحبق[1] الريحانى وسيكهير بعنبرها . وقد احتفظ مسك التبت ، ونيلوفر البانيا ، وورد فارس بجاذبية عطورها الأسطورية .

وقد صنع العرب الصابون بمزج الصودا مع شحم الأغنام أو الزيت ، وأنشأوا صناعة من أنضر الصناعات فى بغداد إذ قدر لها أن تنتشر بسرعة فى مصر ، وسوريا ، وبلاد تونس ، وأسبانيا الإسلامية .

كان الإسلام قد استقر بحيث إن الميل إلى الرفاهية تملك جميع طبقات المجتمع ، حتى إن الإنتاج لم يستطع مواجهة الاستهلاك فاحتاج الأمر إلى اختراع صناعة مواد بديلة أو منتجات غذائية بديلة .

---

(١) الحبق = نبات طيب الرائحة . (المترجم)

صناعة المنسوجات :

عندما فتح الإسلام الشرق الأدنى كله ، كانت به منسوجات مصرية ، ومنسوجات قطنيه من سوريا ومن بلاد ما بين النهرين ، ومن إيران ومن صناعة حرير بلاد ماوراء النهر . وكانت الأقمشة البيزنطية والقبطية والساسانية مشهورة من قبل ، وعرف المسلمون الاحتفاظ بشهرة تلك الأقمشة . أما الحرير ، فان مناسج الشرق الأدنى الصغيرة أصبحت المتعهدة بتصديره لعالم العصر الوسيط : على الرغم من أن النبى ﷺ رأى كراهة لبسه . وقد كان يصنع فى مصر ، وفى سوريا بمساعدة أنوال يدوية لأنسجة حريرية مزخرفة ، شهد الأوربيون فى أوربا بجمالها . وكان الصليبيون يستخدمون أنسجة حريرية ليلفوا بهارفات موتاهم (الذين كانوا يعظمونهم) .

وكانت أفخم الأقمشة الكتانية تصنع فى مصر ، فى إقليم دمياط . كما ينسج فى دمياط ستر شديدة الرقة ، وستائر ، وملابس داخلية رقيقة . هذا ولأن البلاط المصرى احتجز لنفسه كل صناعة الكتان ، فقد زرع الكتان فى إيران فى القرن العاشر ، واستقرت آلاف كثيرة من النساجين على شاطىء الخليج الفارسى وفى أذربجان . ونظرا لخصائص منتجاتهم ، ودقة مواعيدهم وانتظامها فقد اشتهروا سريعا بأمانتهم ، حتى إن البضائع كانت تمضى من يد إلى يد دون أن يشعر المتسلم بحاجته إلى التحقق منها .

كانت الصناعة القطنية نشيطة وبخاصة فى إيران ، وكانت الأقمشة القطنية تصنع فى معظم مدن خراسان ، وسينيز وكرمان فى وسط فارس ، أما الأنسجة القطنية المطبوعة فكانت فى وسط فارس وبخارى ، وأما فى جهرم فتصنع الأصواف المنسوجة وكانت سينيز تصنع الملابس الداخلية ، وكانت مرو تصنع النسيج الصوفى الخفيف واختصت نيسابور وبلخ بالقطع الكبيرة من النسيج ، وهذه القطع كانت ترسل ، إلى بغداد ، ومصر ، وكان يصدر بعض منها حتى يصل إلى الصين مما جعل زراعة القطن فى القرن العاشر تنتشر فى سوريا وفى إفريقية الشمالية ، وفى اسبانيا . وصنعت الموصل أقمشة قطنية رفيعة «موصلية» .. ودمشق أقمشة « مشجرة » تسمى الدمشقيات .

وقد قامت صناعة الحرير قبل الفتح العربى على مواد أولية مجلوبة من الصين وانتشرت على شواطىء بحر قزوين ، وفى طبرستان ، وبعد الفتح انتشرت تربية دودة

القز . وانتشرت معها فى الوقت نفسه هذه الصناعة — إلى حد ما — فى كل مكان من الأراضى الإيرانية فنسجت أقمنة للنساء ، وخمر ، وأشرطة منقوشة بالذهب ، وأنسجة حريرية ملساء ، وأنسجة حريرية رقيقة و وستائر لمظلات الأسرة ، أو للهوادج أو لقبة المحراب . وكانت أرارات مشهورة بأقمشتها المطرزه بالذهب . وكانت هذه الأنسجة تصبغ بطريقة متقنة جدا تصدر بسببها إلى الشرق الأقصى . وقد حفظت بعض النماذج فى متحف اللوفر ، وفى المتحف الأمبرطورى اليابانى . وكانت أكثر الأقمشة المنسوجة تصنع من الذهب فى صقلية . وكانت هناك مطرزات من الذهب ذات أرض من الحرير ، وعندما استقرت هذه الصناعة فى بالرمو على يد الفاطميين ، استمرت فى الازدهار تحت حكم النورمنديين . أما فى صقلية فى القرن الثانى عشر فقد صنع معطف تتويج أباطرة ألمانيا المحفوظ فى « خزانة فينا » . وفى أسبانيا ، كان النساجون السوريون قدجلبوا ابتداء من القرن العاشرالطرائق الفنية لصناعةالمنسوجات الحريرية المحلاة بالذهب .

لكن الشرق كان ولايزال متفوقا فى صناعة السجاد ، سواء أكان من وبر الماعز أو الجمل ، أومن الصوف ، أو من القطن أو من الحرير ". وكانت بعض المصانع الصغيرة المقامة فىالقرى تستخدم نساء وأطفالا يعملون ، وهم جلوس أمام النول على لحن أغنية خاصة تومىء إلى الغرز والأصباغ . وكانت الرسوم مستوحاة من مناظر حية ، وبخاصة من أمكنة للصيد ، ومن معارك للحيوانات ، أو من كتابة حسنة العبارة والأسلوب ، ومن رسوم ذات نقوش عربية متأثرة بالإسلام . ولم يظهر السجاد المخمل فى فارس إلا فى القرن الحادى عشر . ومن هنا كانت الرسوم ميدية أو من أذربيجان ، ومن غارد جستان ، أو من طبرستان ، وكانت كل السجاجيد الشرقية مطلوبة ، ولكن التى حظيت بالشهرة هى سجاجيد أصبهان واختصت بخارى بصناعة سجادات الصلاة .

الصناعة الميكانيكية :

عندما دخل العرب القصر الملكى فى المدائن ، لاحظوا على الفور « قطعة أثاث ضخمة من الأبنوس ، والعاج ، والذهب ، تعلوها قبة مذهبة ولازوردية ، تمثل السماء قد رصعت بنجوم ثابتة تدور حول نفسها .... على غرارالقمر والشمس فىدورانهما

الشهرى والسنوى» (١) ولم يفهم العرب على وجه الدقة شيئا عن هذه الآلة التى لم تكن سوى ساعة دقاقة وقبل ذلك ببضع عشرة سنة، لاحظ هرقل الذى استولى توا على مدينة ملكية أخرى هى جنزاك وتسلل إلى البهو الكبير لمبد الملوك ، فرأى حسب قول تيفان Théphane الصنم المخيف (ارمزد) Onmuzd متربعا على العرش فى سقف القصر الذى كان على هيئة كرة (قبة) تحيط به الشمس والقمر والنجوم التى كان عبدة الأصنام يعبدونها على أنها آلهة ، كما يحيط به من جميع الجهات رسله حاملين صولجانات الملك . وهناك كان قد أمر عدو الله هذا بإقامة آلات ميكانيكية لإسقاط قطرات من المياه شبيهة بالمطر ، ولإحداث أصوات شبيهة بالرعد»

ولم يفهم الملك البيزنطى من هذا شيئا ، وإنما كانت هذه ساعة جبارة تمثل السماء . وكان فى الشرق نماذج أخرى لساعات دقاقة أقل تعقيدا ولكنها ليست خالية من أجهزة معقدة . وفى المسجد الأموى فى دمشق ، كان يرى « قصر » فيه اثنتا عشرة نافذة توصد احداها كلما كان مدفع صغير يعلن الساعة . وفى نهاية النهار تكون جميعها موصدة . وكان دوران هـذا الجهاز يبدأ فى الليل ، لكن النوافذ كانت تضاء بنور أحمر ، الواحدة بعد الأخرى .

كان هارون الرشيد قد أهدى إلى شارلمان ساعة تعمل بالمـاء مصنوعة من جلد ومن نحاس موشى بأسلاك من اللجين أو الذهب ، وفى كل ساعة كان فرسان من المعـدن يفتحون الباب ، ويتركون مجموعة (البلى) التى كانت تناسب التوقيت تسقط على دف ، ثم تتراجع . وقـدم سلطان من مصر بدوره إلى فردريك الثانى (٢) هوبنشتاوفن « قصرا للساعات » وهى تحفة ميكانيكية حقيقية ، وقد حافظ ملوك المسلمون على هـذا التقليد ، ولا يزالون فى أيامنا هذه يقدمون ساعات كهدايا إلى ضيوفهم . ومنذ القرن العاشر كانت تصنع نماذج لساعات أقل تعقيدا ، لكن عنها لم يكن بعد فى متناول المقادير المتواضعة .

(١) وفقا لرواية على مظاهيرى فى كتابة « الحياة اليومية للسلمين فى العصور الوسطى »

(٢) امبرطور من عائلة هوبنشتاوفن الألمانية التى اعتلى أفرادها عرش ألمانيا من عام ١١٣٨ إلى عام ١٢٥٠ ، ومن أشهر من اعتلى العرش من هـذه الأسرة فردريك الأول ، وهنرى السادس ، وفردريك الثانى . (المترجم)

وأعن من ذلك بالنسبة لجماعة « المؤمنين » كانت هناك أجهزة أخرى تدار بالماء وهى الطواحين الموزعة على حافة الأنهار . وكان يوجد منها طواحين ثابتة أمام مجموعة من المدن الهامة . وكانت هناك طواحين أخرى هوائية مهمتها طحن حبوب سكان الشواطىء والقرى المجاورة .

وفى الموصل ، كانت طاحونة واحدة مقامة على قاعدة من الخشب وسط نهر دجلة ، تدار أرضها الحبرجرية باندفاع تيار النهر ، وكانت تستطيع أن تطحن خمسين طناً من الحبوب كل يوم . وكانت طاحونة أخرى فى بغداد بها مائة رحى . وفى ملتقى النهرين عند البصرة ، كان هناك جهاز يستعمل لإدارة عدد كثير منها قد انتشر بنظام مستغلا المد والجزر .

واليوم ، فى بلاد مابين النهرين ، وفى سوريا تأخذ طواحين ذات قواديس مثبتة على حافة مجارى الأنهار المياه من حوض النهر ، وترفعه ، وتصبه فى قنوات الرى التى تنطلق من ضفافه . وتعمل هذه الآلات التى يطلق عليها « سواقى » على نهر العاصى . وأخيراً ، وفى وسط الهضبة الإيرانية ، كانت طواحين هوائية أقامها الفرس من قبل الفتح العربى تستخدم الرياح التى تهب بانتظام . ويعمل على الدوام عدد معين من هذه الطواحين . وكانت لدى المسلمين فكرة إقامة شبيه لها فى صقلية وفى إفريقية الشمالية التى يستعمل فيها بعض الطواحين أيضاً لعصر الزيتون ، واستخراج السكر من القصب[1] .

التجارة :

إن الطرقات الكبيرة البرية والبحرية التى كانت ملتقى الأجزاء المعروفة من عالم العصر الوسيط ، كانت تمر بالعالم الإسلامى : وكانت أوروبا وآسيا وإفريقية تتلاقى فى هذا العالم عند مفترق طرقها .

هذا الوضع الجغرافى الممتاز كان يقتضى أن يعطى تجارة المسلمين مكانة ممتازة .

---

(١) على مظاهرى .

وكانت قوافل التجارة تسلك طريقين هامين : طريق البر الذى يطلق عليه طريق الحرير ، وطريق البحر الذى يطلق عليه طريق الهند ، وكان طريق الحرير يربط الصين بالغرب ، وكان يمر بسمرقند وبخارى فى تركستان ، والرى وهمذان فى فارس ، ثم بغداد التى كان يزدوج فيها الطريق ليصل من جهة إلى القسطنطينية والغرب بوساطة نهر الفرات والبحر المتوسط ، ومن جهة أخرى بالجزيرة العربية وإفريقية ماراً بالكوفة ومكة والمدينة .

كانت القوافل تحمل منتجات الصين والتبت وأواسط الهند . وكانت هذه القوافل تجلب من الصين بخاصة الأقمشة الحريرية وبعض الأوانى الصينيه مقابل المنتوجات المصنوعة فى بيزنطة ، وفى العالم الإسلامى ، ومن التبت كانت تجلب الفراء المستوردة من سيبيريا والجلود التى تسمى جلود استراخان التى تؤثرها الطبقة الموسرة من فارس ومن بيزنطة ، ومن الهند ، كانت تجلب أنسجة ، وأقمشة قطنيه ، وجواهر وأحجاراً كريمة ، وروائح وأعشاباً طبية ، ولكن عن طريق آخر هو طريق نهر الفولجا وبحر قزوين . وكان الأرقاء البيض يأتون من روسيا ومن اسكندينافيا ، والعنبر يأتى من بحر البلطيق ، والعسل من الشمال الذى أوثر استخدامه على السكر ، والشموع الطويلة التى كان العالم الإسلامى يستهلك منها كميات كبيرة فى مساجده . وكان طريق الهند — وهو طريق السندباد البحرى — الطريق البحرى ، الذى يربط بين فارس وموزبيق ومدغشقر بالشواطىء الشرقية والغربية للهند ، ومع الملايو وسومطرة ، وبلاد كمبوديا فى ذلك الوقت والميناء الكبير للصين الجنوبية : كانتون التى كانت فيها الجالية العربية تقيم بأعداد لا حصر لها .

كان الشرق يستورد من هذه البلاد المختلفة المنتجات الأكثر تنوعاً . فمن إفريقية كان يستورد الأرقاء السود ، والعاج ، ومسحوق الذهب ، والعنبر الداكن . وفى جزرها ، كان يكشف أعشاباً طبية ، وتوابل وعقاقير ، ومن الهند كان يأخذ الحديد ، والصلب ، والقصدير ، ومن الملايو خشب البناء ، والأصباغ ، والمواد المعدنية ، وكانت بلاد كمبوديا القديمة تصدر الأخشاب الثمينة .

وكان المسلمون يصدرون إلى الصين العاج والحلى الصدفية من إفريقية والهند ، والنحاس والكافور الذى كان الصينيون يدفعون ثمنه غالياً . وكان التجار يعرضون

كيات صغيرة فى كل مكان من بضائع مصنوعة من زجاج ، وجواهر ، وكبريت ، ومنسوجات قطنية وعطور ، وفواكه ، وخضر. وكانت تجارة الخيل بخاصة مزدهرة . وفى كل سنة ، كانت هنالك عشرات الآلاف من الخيول ترحل من سيراف إلى شاطىء كورومانديل حيث كانت تباع على شاطئه إلى الهنود . وفى الحق ، كان البحر ، المتوسط حتى زمن الحروب الصليبية تسوده جميعه تجارة المسلمين ، التى كانت تجرى بين سوريا ومصر من جهة ، وإفريقية الشمالية ، وإسبانيا وصقلية من جهة أخرى . وكانت هذه التجارة فوق ذلك تصل إلى اليونان وإيطاليا وفرنسا .

ولم يكن النبى (صلى الله عليه وسلم) نفسه يحتقر فوائدالتجارة النزيهة الأمينة . ويروى أنه عند ما كان يحكم المدينة ، كان يشترى جملة ، ويبيع مجزأ ، ويكتفى بأقل ربح ، وكانت لغته غنية باستعاراتها التجارية ، وكان يتوعد بالنار التجار المخادعين ، وكان يندد بالذين كانوا يحتكرون ويضاربون على الحبوب لكى يبيعوها مرة ثانية بأغلى سعر ، وذهب حتى إلى تحريم السلفة بالربا[1] . ولم يملك العرب ، نتيجة ترسم مثله السامية ، تجاه التجارة ، امتيازات الطبقة الارستقراطية الأوروبية فى العصر الوسيط. ولما نظموا الدول ، وحطموا حواجز الحدود ، كانوا يعرفون أن أمثل الطرق لتيسير الاتفاقيات تنحصر فى تعميم لغة موحدة تصبح اللغة التجارية بلا منازع . ومنذ ذلك الوقت ، شوهد تطور تلقائى وسريع للمدن والقرى تحت تأثير البيع والشراء والحركة التجارية ، وانتعشت المعارض ، وجماهير الباعة والمشترين ، والأسواق ودوت بحياة جديدة وسط ضجيج المفاوضات التجارية ومساوماتها[2] . وهكذا انتظمت صلات قوية وانسانية أصبحت تقليدية فى مجتمع مزدهر ، ولم يشك أحد فى ازدهار ثمرة هذه الصلات التى لم يقدر للغرب أن يعرفها إلا بعد ذلك بستمائة سنة أو سبعمائة .

---

(١) هذا التحريم راجع إلى نص القرآن . (المترجم)

(٢) ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى فى خلقه التجارى ، وفى وفائه بوعده ، وإخلاصه للمعاهدات التى يعقدها مع غيره [عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران ص ١٤١] .

(المترجم)

القوافل :

كانت هناك طرق كثيرة تربط المدن الكبيرة ، وكانت قوافل الجمال تسير فى السهول وفى سهوب الصحراء ، وقوافل البغال القوية الصبور فى البلاد الجبلية الوعرة تجوب بانتظام هذه الطرق . وهكذا نقلت البضائع من كل نوع فى (طرود) ، وسلال ، وأقفاص ، وقرب ، وعلب ، وأوانى مختلفة الأنواع .

كان ما يقرب من خمسة آلاف جمل تجوس فى جميع الجهات طرق العالم الإسلامى ومواطئه . وقد أنشأت وكالات ساهرة على طول هذه الطرق فنادق قروية ، ومبرات ، وأحواضاً للمياه ، وفى المناطق الصحراوية خانات رحبة وكثيرة حيث تستطيع الدواب وقوادها أن ينعموا براحاتهم ويتناولوا طعامهم . وكانت هذه المنشآت تستخدم كذلك ملجأ وملاذاً فى أثناء العواصف الرملية التى قد تبلغ من شدتها أن تدفن قوافل بعدتها وعديدها . ففى صحراء الفرس الوسطى ، أقيمت صهاريج عدة على حافة محطات القوافل والطرق ، وفى كل مكان ، كانت هناك إشارات تدل المسافرين وتوضح معالم الطريق ، وفى البلاد الجبلية كانت قناطر مقامة بعناية تجتاز مجارى المياه ، وكانت قنطرة كروم فى منطقة سوسا يبلغ طولها كيلومترا ، وكانت بها اثنتان وسبعون فتحة ولا تزال معظم هذه المنشآت باقية على الرغم من أن طريق الحرير قد فقد كثيراً من قيمته .

الموانىء :

صرفت الشواطىء المنعزلة ، والتى تقوم بأعمال عدوانية من الخليج الفارسى ، أنظار الجغرافيين عن كل نشاط بحرى فى هذه المناطق ، بيد أن ميناء توج كان مشهورا فى عصر الإسكيذيين ، وحتى القرن السادس الذى قضت فيه ميناء سيراف على شهرتها وعرف هذا الميناء الأخير نشاطاً قوياً فى مدة تزيد على الخمسمائة عام وسلبتها جزيرة كيش التى فى مواجهة سيراف تفوقها أثناء القرن الحادى عشر . وفى زمن الفتح العربى ، كانت سيراف تملك من قبل أسطولا تجارياً هاماً ، وملاحين ، وتجاراً حاذقين ، وتوكيلات تجارية لجزيرة بما فى افريقية ، وكيلون على شاطىء مالا بار ، وكوا فى شبه

جزيرة ملقا ، وكانتون فى الصين . وزاد بشكل ملحوظ التقدم المطبوع بطابع الإسلام ، والرخاء الذى نتجت عنه حركة البيع والشراء فى هذا الميناء الكبير . وكان هذا الميناء يتبادل — وحده — أعمالا كبيرة مع جميع هذه البلاد ، ومن ثم كان سكانها غاية فى الثراء . وكان تقدير الثروات مرتفعاً جداً ، حتى لم تعد الثروة التى لا تتجاوز الخمسمائة مليون من الفرنكات بذات شأن ، وكانت الاعتمادات المالية لتجار سيراف ضخمة جداً وسنداتهم متداولة فى كل مكان. لكن المدينة دمرت فى نهاية القرن العاشر (٩٧٨) نتيجة هزات أرضية مما دفع سكانها إلى الاستقرار فى جزيرة كيش على صخرة واقعة فى مواجهة المدينة القديمة . وسرعان ما أصبحت كيش ميناء ذا مكانة مكينة ، ونوعاً من جمهورية تجارية برؤساء جمهوريتها (ملوك) على غرار جمهوريتى البندقية وجنوا . لكن كيش كان ينافسها ميناء آخر — منظم أشد التنظيم وجاد كما أن لها مدير ين أيضاً — تلك هى جمهورية عدن . وكان الأسطولان البحريان يتنافسان على الأسواق حتى فى الصين ، وعاشا فى خلاف دائم ، وما زالا كذلك حتى كان أول القرن الحادى عشر انقسمت المياه الإسلامية فيما بينهما قسمين متضادين ومتنافسين ، فريق الخليج الفارسى ،وفريق البحر الأحمر ، كما انقسم العالم الإسلامى نفسه إلى امبراطوريتين متنافستين : إمبراطورية بغداد وإمبراطورية القاهرة .

الملاحة البحرية :

كان الذهاب من الجزيرة العربية إلى الهند يقتضى من الملاحين العرب قرابة شهر وزهاء شهر آخر لكى يستطيعوا التوجه إلى شبه جزيرة ملقا ، وشهرين للطواف حول شواطىء الصين ، وكانت رحلة العودة تتطلب هذا الوقت نفسه تقريباً ، ولكن كان عليهم أن ينتظروا الرياح الموسمية .

كانت السفن المشيدة عادة فى الهند من نوعين : سفن سريعة وخفيفة مخصصة لنقل الركاب وحدهم وسفن ضخمة (جنك) مخصصة لنقل البضائع ، وقد كانت هذه السفن قادرة على نقل عدد كبير من الركاب . وعندما جهزت هذه السفن (منذ القرن الثانى عشر) بأسطرولابات ومجسات ، ومصابيح بحرية للاشارة ، وأطلس يوضح تيارات المياه والمد والجزر ، وخيط من الرصاص يحدد أعماق المياه ، أصبحت معدة بكل شىء لمواجهة أخطار أعالى البحار . وكانت أشرعتها الممتدة

والمحكة إحكاماً شديداً تهيء لها سرعة خاصة ، وكانت تصفها فى موقف يجعلها قادرة على الدفاع عن نفسها ضد القراصنة الذين كانوا ينهبون الشواطىء والذين كان مأواهم الأصلى جزيرة سوقطرة ، عند منفذ خليج عدن . كان ذلك هو الأسطول التجارى الذى أضيفت له مراكب صغيرة الحجم لا تغوص كثيراً فى المياه وتستخدم بخاصة على الشاطىء الشرقى لإفريقية .

كانت الملاحة منظمة تنظيماً دقيقاً . وكان جدول التقويم يحدد كل عام ولكل ميناء اتجاه الرياح ، والرياح الموسمية . وكانت المنارات المضاءة بوساطة مصباح بالبترول يصونه زجاج ويحيط به كوخ ، قد شيدت بأعداد كبيرة . وهنا ملاحظة تجدر الإشارة إليها ، كان بحارة المحيط الهندى لا يحسبون بالدرجات وبالدقائق مثل الكلدانيين ، بل اعتادوا أن يقيسوا المسافات بالقصبة ، وبالأصابع والعقد .

الملاحة النهرية :

لا يوجد كثير من مجارى المياه فى العالم الإسلامى الشاسع وقليل جداً من هذه المجارى صالح للملاحة. ففى الشرق ، ينبع نهر السند ونهر الأوكسوس من جبال بامير، لكنهما يجريان فى اتجاهين متعارضين ، ونهر الاوكسوس الذى كان يصب قديماً فى بحر قزوين ، ينتهى الآن إلى بحر الأورال ويطلق عليه اموداريا . وإذا اتجه المرء نحو الغرب ، على طول أربعة آلاف كيلومتر فإنه لا يجد غير نهر دجلة ونهر الفرات اللذين ينبعان من الشمال ، ويصبان فى الخليج الفارسى ، وعلى بعد أكثر يوجد النيل الذى ينبع من الجنوب ويصب فى البحر المتوسط ، وهذه الأنهار الثلاثة الأخيرة هى أكثر الأنهار عائدة .

ونهر الفرات الذى كان موازياً فى وقت من الأوقات لشاطىء البحر المتوسط والذى يبعد عنه بمائتين من الكيلومترات فقط يجرى بالقرب من المدن الكبيرة السورية : حلب ، وحماه ، وحمص ، ودمشق . وكان بوسع القوافل التى كانت تنطلق من هذه المدن ، أن تلتقى بالنهر فى مسكن التى يكون النهر عندها صالحاً للملاحة . ثم تسير هذه القوافل بعد ذلك بالطريق النهرى حتى تصل بغداد على نهر دجلة باستخدام قناة عيسى التى كانت تربط النهرين . وبسبب عدم الصيانة يجرى نهر الفرات الآن فى

مستنقعات . ولم تعد هناك مدن كان لها كيانها قديماً مثل الرقة — التي كانت مدينة ملكية — بل كل ما هناك تجمعات في كومات من الرمال . وكانت أخشاب البناء والتدفئة تنقل من أرمينية إلى بلاد ما بين النهرين والعراق فى نهر الفرات على سفن طولها عشرة أمتار .

وفى الحياة الاقتصادية للخلافة ، كانت الشبكة الملاحية ذات مكانة بالغة . وكانت هناك سفن كثيرة تشق الطرق المائية ، وكانت السفن الشراعية الآتية من الصين تلتقى فى هذه الطرق المائية بجلود الخراف المنتفخة بالهواء التى كانت تعبر نهر دجلة محملة بالخضر والفواكه المجلوبة من أرمينية . وكانت الزوارق الطويلة السريعة التابعة لإدارة الخلافة تمرق بين الصنادل الثقيلة المحملة بالبضائع، والقوارب المحملة بالركاب . وفى بغداد كانت ثلاث قناطر من المراكب تعبر النهر الذى يبلغ عرضه مائتين وخمسين متراً . وكانت الحركة التجارية فيه نشيطة جداً تتلامس فيه الصنادل بعضها ببعض حتى يكاد النهر يغطى بها . بيد أن أقصى حد وصل إليه نشاط الحركة التجارية هذه كان فى مقاطعة البصرة التى كانت تجرى فيها أكثر من مائة ألف قناة أو طريق مائى عبر أشجار النخيل والغاب ، ويقدر بما يقارب ثلاثين ألف مركب كانت تغطى الشبكة النهرية فى عصر العباسيين .

الخدمة البريدية :

كان البريد فى يد الحكومة فى بداية الخلافة ثم أصبح تحت تصرف الشعب فى الأزمنة التالية . وكانت رسائل البريد تشحن عن طريق السفن البريدية ، أو بالإبل المهرية أو بالبغال تبعاً للبلاد ، وكانت الرسائل (البرقية) ترسل بوساطة حمام الزاجل أو بوساطة إشارات مضيئة . وقد أقيمت محطات على حدود الامبراطوريتين الصينية والبيزنطية ضمنت سرعة وصول رسائل البريد أكثر مما نظن بين أوروبا والصين .

ويقال إن الرسائل البريدية بين بغداد والمدن الكبيرة ، المحيطة بها ، مثل الموصل ، والبصرة ، والكوفة ، كان وصولها يتم ذهاباً وإياباً فى أربع وعشرين ساعة ، على الرغم من أن هذه المدن المختلفة كانت بعيدة عن العاصمة بما يقرب من ثلثمائة كيلومتر إلى خمسمائة . وفى الأنهار الكبيرة ، كانت سفن البريد تحمل كذلك مسافرين وتقطع مائة

وثمانين كيلو متراً فى النهار . وكان البرق (التلغراف) ذو الإشارات الضوئية يمارس بخاصة فى غرب الامبراطورية ، حتى يمكن إرسال أية رسالة (تلغرافية) من بلاد مراكش إلى مصر فى ليلة واحدة ، وهما على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر . وكان نقل البريد بحمام الزاجل شديد الانتظام ، وكانت هذه الخدمة البريدية تنتهى عند أبراج الحمام الذى كان يقبل عليها من جميع أنحاء الامبراطورية . وكانت نفقات النقل تدفع عند الوصول ، وهى واجبة الأداء لأنها كانت تشكل فى تلك الأثناء دخلا منتظماً للدولة . وكانت إدارة البريد مثل الأفراد تستخدم أختاماً من الشمع ، وكان لزاماً على الخمارين أن يسجلوا جميع الأختام التى كانوا يصنعونها . وكان الحكام يتصلون بالعاصمة عن طريق الرموز (التلغرافية) .

تجارة المال :

احتكر الأجانب تجارة المال فى العصور القديمة فى بلاد المشرق ، فهى فى يد الهنود فى الشرق ، واليونانيين فى الوسط وكان ينافسهم بعض الفرس والفينيقيين . ثم انتقلت فى عصر الإسلام إلى أيدى اليهود .

وجدت منذ وقت بعيد جالية من أصحاب البنوك والتجار اليهود فى أصبهان ، وكان أصحاب البنوك فى بغداد يقرضون أموالهم حتى للوزراء . وكان اليهود فى الشمال والشرق قد أثروا كثيراً عن طريق التجارة بالجملة فأصبحوا أصحاب رءوس أموال أو جباة ضرائب[1]. وفى الغرب كانوا يشرفون على صيادى المرجان من البحر الأحمر ، واقتسموا احتكار هذه التجارة مع المسيحيين . وفى نهاية القرن العاشر ، أتاحت لهم سيطرتهم على المال أن يصلوا حتى إلى منصب الوزارة ، وحدث ذلك فى وقت واحد فى اسبانيا وفى مصر . لكن الفرس الذين صودرت إقطاعياتهم عقب الفتح العربى ، نزلوا إلى هذا الميدان بشىء من الخوف فى أول الأمر . ومنذ أوائل القرن الحادى عشر ، كانت البصرة وهى أكبر مركز مصرفى للخلافة تضم عدداً معيناً من البارسيين الذين انتشروا بعد ذلك فى سوريا ومصر .

---

(١) هم رجال المال الذين كانوا ملتزمين بجباية جميع الضرائب . (المترجم)

وفى منتصف القرن الثالث عشر ، لجأ أصحاب (مصارف) الشرق الأوسط فى أثناء هربهم من الغزو المغولى ، مع رءوس أموالهم ، إلى دلهى التى استعمرها المسلمون منذ وقت طويل . وهذه المدينة أصبحت حى المال ، وكأنها « وول ستريت » لذلك العصر . كانت وحدة الثروة فى الشرق الأوسط هى القطعة الفضية (الدرهم)[١] حتى القرن التاسع ، ثم بعد ذلك أصبحت الثروة تقدر بقطع ذهبية (الدينار)[٢] . وفى وادى النيل ، بلد الفلاحين واليد العاملة النموذجية ، كان أغلب التعامل بقطع ذهبية ، وكانت ثروته أكبر الثروات . وفى الشمال الشرقى من تركستان ، لم تكن توجد غير (عملات) من النحاس . ومن هناك اندفع على الدوام الغزاة يحركهم الفقر نحو البلاد الغنية ، وقد ساد الدينار المصرى وفى قول آخر المغربى — وهو بمثابة « الدولار فى هذا العصر » — على العالم الإسلامى بسبب عياره من الذهب . وكانت قيمته نظرياً تعادل ثلاثة عشر درهماً ، لكن العملة الفضية حين انخفضت قيمتها ارتفع سعر الدينار كل عام حتى لقد أضرب حرس الخليفة فى عام ١٠٠٠ مطالبين بزيادة رواتبهم . وكانت أسعار العملة فى ذلك الزمان خاضعة لتقلبات خطيرة ، إذ يرتفع سعر الدينار كل عام فى موسم الحج . وأخيراً ، عند ما كانت الحكومة تحاول التخلص من الأزمات المالية ، كان بيت المال يوازن الميزانية بالتلاعب فى عيار الذهب . حقاً ، لا جديد تحت الشمس .

كان إقبال رءوس الأموال على دلهى يرفع الذهب الهندوستانى المسمى « تنكا » والذى كان يقرب من الدينار المغربى ، وأدى هذا الارتفاع إلى زيادة انهيار الثقة التى بسببها سقطت الحكومات الإسلامية بعد الغزو المغولى . لكن عندما انتصر السلطان المملوكى الأشرف على الفرنجة والمغول فى نهاية القرن الثانى عشر ، استقر الدينار المصرى فى الشرق كله وأصبح يسمى « الأشرفى » .

---

(١) كلمة درهم مشتقة من كلمة درخمة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوى على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة . (المترجم)

(٢) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الرومانى ديناريوس ، وكان يحتوى على ٥٦ جراماً من الذهب . (المترجم)

(١٢)

بغداد وبلاط الخلفاء

المدينة المستديرة :

حكم فى سنة ٧٥٠ أبو العباس أول خليفة عباسى امبراطورية كانت تمتد من نهر السند حتى المحيط الأطلسى . ولما كان الذين ساعدوه لتولى الحكم من أصل فارسى ، فقد أخذ كل ماهو فارسى من ألقاب ، وشراب ، ونساء ، وألحان ، وأفكار ، وأساليب ، تنفذ إلى البلاط العباسى . وأخذ تأثير هذه الأمور يخفف من جفاء العربى ، ويمهد الطريق لعصر جديد من الثقافة . ومن جهة أخرى عرض الوضع الجغرافى للعاصمة الجديدة هذه الثقافة إلى تيارات آتية من الشرق . وراحت فارس تغزو بالفكر الذين كانوا قد قهروها بالقوة قبل مائة عام . غير أن العرب لم يقبلوا الردة فى أمرين جوهريين : هما الدين واللغة .

ولما توفى أبو العباس سنة ٧٥٤ ، خلفه المنصور وقد بلغ الأربعين من العمر . كان طويل القامة ، نحيل البنية ، صارم الخلق ، شديد الحذق ، قليل الشكوك ، مثقفاً ، محباً للفنون والآداب أكثر من حبه للنساء أو النبيذ ، وقد أعاد تنظيم الحكومة ، والإدارة ، والجيش ، وأعاد كل ما أخذه أو حصل عليه المستغلون بطرق غير مشروعة ، وأدار الشئون المالية باتزان وحكمة ، وجعل على رأس الوزارة خالداً البرمكى ، من أسرة البرامكة المشهورة ، وأنشأ بغداد التى سيبقى اسمها فى التاريخ أسطورة الزمان .

كانت بغداد مدينة قديمة بابلية على الشاطىء الغربى من نهر دجلة ، تخلو من البعوض الذى كان ينتشر فى البصرة والكوفة ، وهى على مسافة طيبة من هاتين المدينتين حيث أخذت تتجمع الطبقة العاملة . وكان الخليفة نفسه يقول : « إنها موقع عظيم لمعسكر حربى » وكان يرى فيها بدون شك موقعاً استراتيجياً عظيماً ، فى مأمن من جهة البر ، وعلى اتصال مع ذلك بدجلة والفرات ، وقنواتهما ، وعلى اتصال كذلك بالمدن

الـكبيرة ، والأقاليم الخصبة الداخلية من جهة ، ومن جهة أخرى بالخليج الفارسى وسائر موانىء العالم . وكان هذا الموقع العجيب سبباً فى الرخاء المباشر لبغداد . وكانت المدينة محاطة بسور دائرى تحميها حصون مزدوجة ، وخنـادق عميقة . وهناك سور ثالث كان يحمى مدخل الأحياء المركزية . وكانت حوائط السور مفتوحـة بأربعة أبواب مذهبة تفضى إلى الجهـات الأربع من الامبراطورية . وفى الوسط شيد قصر الخليفة وباب الذهب ، ثم فى كل جهـة من الجهات الأربع ، بنيت على الفور قصور الأمراء (حكام الولايات) . وحول المدينة المقسمة كأنها ميناء ساعة ، اثناعشر قصراً كان يسكنها رؤساء الإدارات الـكبرى وكانت كل هذه المجموعة تحيط بقصر الخليفة بحسب تخطيط ذى مركز واحد خططه مهندس معمارى فلـكى أراد أن يمثل الصورة المعروفة عندهم للسماء .

القصور :

شيد المنصور خارج الأسوار وعلى نفس الشاطىء مسكناً صيفياً أحبه هارون الرشيد حباً جماً ، لأنه أمضى فيه الشطر الأعظم من حياته ، ومن نوافذه كان يستطيع أن يشاهد السفن والصنادل التى تفرغ البضائع القادمة من جميع موانىء العالم المشهورة على أرصفة نهر دجلة . وبنى المنصور فى مواجهة دجلة على الشاطىء الفارسى ، قصراً لولده المهدى. وحول هـذا القصر قامت مدينة ، لم تلبث أن فاقت المدينة المستديرة ، لـكن المدينتين ظلتا مرتبطتين بجسرين من السفن .

ومن العسير أن نستعيد بكلمات ذكرى روعة القصر الملـكى وترف الخلفاء ، بل إن أبهة القصور الفارسية والبيزنطية وبذخها أضعف من أن تعطى فـكرة صحيحة عن ترف قصور الخلفاء العباسيين . وربما تحدثت الأرقام على الرغم من جفافها — عن هذا الترف على وجه أحسن . فنقـلا عن المؤرخ أبى الفداء ، كان قصر الخليفة مفروشاً باثنين وعشرين ألف بساط على الأرض ، وبثمان وثلاثين ألف بسـاط على الحوائط ، منها ألف وخمسمائة من الحرير المطرز بالذهب . وكانت قاعة العرش ذات تأثير فى النفس وبخاصة بسترها ومساندها المنتقاة من بين أجمـل صناعة فارسية . وكانت زبيدة الجميلة زوجة هارون الرشيد تنتعل حذاء مزيناً بالأحجار الـكريمة ، ولا تحب — شأنها فى

ذلك شأن زوجات العظماء فى جميع العصور — إلا الآنية المذهبة أو الفضية والأشياء الثمينة المرصعة بالماس والأحجار الكريمة . وقد بلغ هذا الميل للأبهة إلى درجة أنه كانت تغطى فى الحدائق جذوع أشجار النخيل التى لا حصر لها بطبقة من خشب «التك» المذهب .

الثروات :

كان زواج المأمون من ابنة وزيره فى سنة ٨٢٥ فرصة للافراط فى تبديد الثروات . « ففى الاحتفال بالزواج : أفرغ ألف لؤلؤة ذات حجم منقطع النظير من طبق ذهبى على رأس الزوجين اللذين كانا واقفين على حصيرة ذهبية مزينة كلها باللؤلؤ والياقوت . وكانت هناك شمعة من العنبر الداكن تزن قرابة مائة كيلو جرام تحول الليل نهاراً .

وأمر المقتدر فيما بعد بإنشاء « قصر الثريا » الذى يمكن أن يتصور اتساعه بتسعة آلاف من الجياد ، والبغال ، والإبل التى كانت ترقد فى اسطبلاته . وبنى المقتفى بالقرب من هذا القصر فى سنة ٩٠٢ قصر التاج الذى كان يشغل بحدائقه وأبراجه عشرين كيلومتراً مربعاً . وفى سنة ٩١٧ أقام المقتفى ، بدوره « قصر الشجرة » وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان قد أقيم فى هذا المكان شجرة صناعية بها ثمانية عشر فرعاً من الذهب والفضة . وكانت تقف على الأغصان وكذلك على الأوراق المغطاة بطلاء مذهب طيور ميكانيكية مصنوعة من نفس المعادن الثمينة . وكانت الأغصان تتراقص ، والأوراق تهتز ، والطيور تبدأ تغرد إذا ما داعبت هذه الشجرة نسمة خفيفة ، وكان سفراء بيزنطة — فى أثناء استقبال المقتدى لهم بأبهة كبيرة ، يأخذهم العجب من منظر قصر بغداد بأروقته المرمرية وزخرفته الفائقة كل تصور ، وأثاثه الرائع وكم كان عجبهم عظيماً عند ما كانوا يشهدون سروج جياد الامبراطورية من الذهب أو الفضة وأغطيتها من خيوط من الحرير أو الذهب أو الفضة ، وبالقوارب الملكية وهى قصور تمخر عباب دجلة — واستعراض الجيش المؤلف من ستة عشر ألف جندى مترجلين وعلى صهوة الجياد فى ملابس رسمية متلألئة ، ومن خلفهم سبعة آلاف خصى أبيض أو أسود ، وسبعمائة من حراس القصر ، ومائة أسد مع مروضيها .

هارون الرشيد :

سيظل هارون الرشيد إلى الأبد (٧٨٦ — ٨٠٩) من بين جميع الملوك العظام

النموذج لخليفة أسطورى فى تقاليد المجتمع الإسلامى وتصفه قصص العصر على أنه ملك مرح مثقف ، ومستبد وعنيف على حسب الظروف ، لكنه إنسانى إلى أبعد الحدود الإنسانية . ويحكى المؤرخون أنه كان دائماً تقياً متمسكا بالدين ، يؤدى فريضة الحج فى مكة مرة كل سنتين ، يطيل السجود فى أثناء الصلوات التى يؤديها كل يوم .

كان الرشيد جليساً مرحاً ، ذواقة للطعام ، وقد بلغ عدد زوجاته سبعاً ، واتخذ مائتين من الجوارى ، وأنجب اثنى عشر ولداً ، وسبع عشرة بنتاً ، كلهم من أبناء الجوارى ، ماعدا الأمين الذى أنجبته له زبيدة . وكان المال يتدفق من بين يديه فأغدق على الشعراء ومنحهم منحاً جزيلة تفوق كل وصف . فقد منح « مروان » (ابن أبى حفصة) فى قصيدة مدح واحدة قصيرة خمسمائة ألف قطعة من الذهب ، وخلعة سنية ، وستة أرقاء صغار يونانيين ، وجواداً من جياده المفضلة . وكان كرمه الفائق يجذب ذوى الكفايات والمواهب تجاه العاصمة كأنه قوة جاذبية لا يمكن دفعها . ولذا كان يتجمع حوله « مجلس لا يبارى » من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحاة ، والأدباء ، والموسيقيين ، والمتفننين . وذوى العقول الراجحة ، وكان على دراية بتقييم آثارهم وأعمالهم بروح الانصاف وكان يكافئهم بسخاء . وكان هو نفسه شاعراً ، وعالماً متبحراً ، وخطيباً بليغاً مفوهاً . ولم ينتظم أى بلاط فى التاريخ كله جماعة متألقة من رجال الفكر مثل هذه الجماعة .

اختص الرشيد بندماء ذوى مواهب منقطعة النظير لا تزال شهرة بعضهم باقية حتى اليوم . وقدور ثواجميعاً البديهة الحاضرة ، والذاكرة الواعية ، والمواهب المتنوعة ، وكانوا فى الوقت نفسه مغنين ومؤلفين ، وشعراء ، وعلماء متبحرين ، وذات مساء عند ما كان مخارق يغنى فى زورق على نهر دجلة ، شوهدت من جميع الجهات ، وفى الشوارع ، وعلى المياه مشاعل مضيئة وقد أخذت فى التحرك فى اتجاهه ، وفى سنى الليل ، كان كل فرد متعطشاً لسماعه عن قرب قريب .

كان الشاعر الماجن أبو نواس أحد أصفياء هارون الرشيد ونديمه المرح . وكان يثيره دائماً بجوره ومباذله ، لكن أبا نواس كان يتخلص ببراعة من كل ورطة يقع فيها ، وربما استعطفه بأبيات من الشعر الجميل . وقد وصف أبو نواس بطريقة واضحة

كل الوضوح فى « ديوانه » الشعرى الحياة الخرافية والجليلة لهـذا البلاط الذى كان يجمع بين اللذة والجد . وها هوذا أبو نواس يروى قصة احتفال مشهود قاد فى أثنائه الأمين نفسه طيلة ليلة كاملة — رقصاً تمثيلياً منقطع النظير شارك فيه عدد لا يحصى من القيان الجميلات . وغنين فيه حتى الفجر على لحن فرقة موسيقية ، على حين كان المتفرجون يشاركونهم فى فرحتهم . والأمين نفسه هو الذى أمر بتشييد قوارب فاخرة من أجل هواياته فى التجديف على نهر دجلة تمثل حيوانات : على هيئة الدلافين ، والأسود أو النسور وقد تكلف كل قارب من هـذه القوارب بضعة ملايين من الدراهم .

وتوجد كذلك أمثلة أخرى على هذا البذخ الذى لا ينسى من حياة الخلفاء فى بغداد . وروى أن ابراهيم المهدى أولم لأخيه هارون وليمة ، فقدم طبقاً يتكون من ألسنة الأسماك شديدة الرقة والصغر إلى درجة لا توازن ؟ ويحدد صانع هـذا الطبق عدد الأسماك التى استخدمها وقيمة هذا الطبق ، ومن الخير لنا أن ننساه حتى لا نجهد ذاكرتنا بما يمكن تصوره من هذه الخدمات الفائقة فى إعداد مثل هذا الطبق الفريد فى نوعه[1] . كان الخلفاء مشبعين بالرقة ، والشعر ، وألوان من الموسيقى ، والعطور العبقة ، والحلى من اللؤلؤ ، والأحجار الكريمة ، ولعله من المستحسن أن نترك هذه الأبهة المفرطة لنرى كيف كان الناس يعيشون خارج البلاط .

المجتمع :

لم يكن مثل هذا الترف ممكناً لو لم يكن سكان الإمبراطورية الإسلامية قد أفاضوا بنشاط زراعى ، وتجارى ، وصناعى . فقد كان الرخاء يعم وديان نهر دجلة ، والفرات ، والنيل ، ومدرجات إيران وسورية ، وكذلك المصانع الصغيرة فى المدن الكبيرة وأطورة (أرصفة) الموانى .

ومن كل جهة ، كان الصناع والتجار يسعون إلى خلق المنتجات النادرة وصنعها وكشفها مما كانت تتطلبه عظمة بلاط الخليفة وترفه . وابتداء من المبانى الملكية على

---

(١) لاشك أن هذه إحدى المبالغات التى يلجأ إليها المؤلف فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب (المترجم) .

ضفاف نهر دجلة خططت شوارع ضيقة ومتعرجة للوقاية من الشمس ، محفوفة على جانبيها بمحال تجارية كبيرة صاخبة ، وتنتهى إلى الحى الذى كانت الطبقة الميسورة قد أقامت فيه مساكنها . وفى المدينة ، وفى ضواحيها ، وعلى امتداد كثير من الكيلومترات، كانت ترتفع منازل متواضعة وبسيطة فى مظهرها الخارجى؛ لكنها موشاة بالذهب والفضة فى الداخل . وفى الريف المجاور ، كان الاثرياء من بين رعايا الخلفاء يملكون منازل (فيلات) فاخرة ، مشيدة وسط حدائق تشبه البساتين . ولم تكن هذه الحدائق إلا حمامات ونافورات ، وجداول ، وشلالات من المياه الصافية ، وأزهاراً ، وفواكه ، وغابات صغيرة ظليلة ، كانت هذه البيوت على غرار ما وصفه فيما بعد فوكيه Fouquet أمين شئون لويس الرابع عشر . ويحكى أن جعفر الوزير ، البرمكى ، كان قد نشر هذه الطريقة ، وابتنى لنفسه منزلا فاخراً جداً استرعى الانظار ، وأثار على الفور الحسد ، ولكى يخمد غضب الحاقدين ، تظاهر بتقديمه إلى الخليفة ، ثم حاول أن يبقى فيه ، لكن قيل أن مصيره قد انتهى إلى أفظع مأساة .

قد لا يكون من لغو الكلام أن نقدم هنا الأسباب لنكبة منقطعة النظير ، لأنها تبدو انعكاساً لأخلاق بلاط الخلفاء ، وكان هارون يحب جعفراً حباً جماً . وقد جاء فى أحد توقيعاته ما يشير إلى هذا الحب . وهذا التوقيع أصدق من أية وثيقة أخرى « أربعمائة ألف قطعة من الذهب ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير » مثل هذه المنة وغيرها من المنن الاخرى الكثيرة ، مما كان يبعث على التشنيع والمكيدة ، لم يقدر لها أن تستمر طويلا . وفى ذات يوم أغضب جعفر الخليفة لسماحه لمتمرد بالهرب كان هارون قد أعطى الأمر بإعدامه . وكان أن فقد المحبوب حظوته . على الرغم من أن أخت هارون العباسة كانت تشغف حباً بجعفر ، وقد أضيفت إلى التهم التى كان الخليفة قد جمعها ضده تهمة أخرى هى أنه كان فارسياً . واعتماداً على تلك الحجج لم يوافق الخليفة ، وهو العربى ، الغيور ، على تزويج أخته إلا على شرط عدم رؤية الزوجين كل منهما الآخر إلا فى حضوره . وأى شرط هذا ، وا أسفاه ، إنه شرط من الصعب احترامه ، وجعفر والعباسة اللذان كانا يداومان على اللقاء خفية ، قد أنجبا بعد قليل طفلين ، وربما فى خفية أشد . وعندما علم هارون بهذا الخبر ، استولى عليه الغضب ، فنفذ حكم الإعدام فى أخته ، وأطاح برأس جعفر ، ثم عندما تيقن من تنفيذ حكم الإعدام فى الاثنين ، طلب أن يرى الطفلين ، وتحدث إليهما طويلا ، ولاطفهما ،

ثم أمر بخنقهما(١) . وانتهى الأمر بوالد جعفر الوزير يحيى الذى كان وزيراً كبيراً ، وأخيه الموظف الكبير — انتهى الأمر بهما إلى السجن ، وصودرت أموالها الضخمة.

بحث المؤرخون عن أسباب أكثر عمقاً لهذه النهاية القاسية لحكم البرامكة . فيرى ابن خلدون فى هذه النهاية أن « السبب الحقيقى » يرجع إلى : « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه » . وربما لم يحتمل الخليفة أن يشاهد إلى جانبه سلطانا كبيرا مثل سلطانه ، وبلاطاً آخر غير بلاطه . والحق أن الوزراء الذين فقدوا كل اتزان ، كانوا ينافسون القصر ، ويسابقونه فى البذخ ، وقد حوطوا أنفسهم بشعراء ، وبمهرجين ، وبفلاسفة ، فكان لا يمكن هذا الوضع أن يدوم .

لم تكن الحياة إذن فى بغداد خالية دائماً من الهموم والدسائس والمآسى ، لكن المجتمع الراقى كان يتناساها بسرعة فى الترف والملاذ ، وفى الصيد ، وفى سباق الخيل ، والبولو ، وقذف الرمح ، ورمى القوس والمبارزة بالسيف ، واللعب بالكرة ، والمطارق الخشبية ، كما يتناساها أيضاً فى المطاعم الريفية على صفاف نهر دجلة التى كانت الطبقة الراقية فيها تتذاوق الفراخ المسمنة مع بعض الجوز الطازج ، وهناك أيضاً ، كانت تعد الولائم باللوز وباللبن ، وبالمسكرات اللذيذة ، وبالأشربة المعطرة مع مستخرجات البنفسج والورد ، أو توت العليق وبعرق البلح ، وبالنبيذ ، هذا الشراب المفيد الذى سمح بتناوله منذ أن أفتى الامام أبو حنيفة بشربه(٢) . وكان هناك احتفال يزكى بخاصة تناول هذا الشراب ، هذا الاحتفال هو الاحتفال الأول بيوم الثلاثاء السابق للصوم الكبير عند المسيحيين . وبمناسبة هذا الاحتفال ، كان الرجال المتنكرون فى ملابس سيدات .

---

(١) قصة ظاهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها أخلاق الرشيد ، ولم نجد لحادث خنق الطفلين ظلا من الحقيقة فى كتب المؤرخين المعتمدة . (المترجم)

(٢) يغلب على الظن أن المؤلف لم يتعمق رأى « أبى حنيفة » بصدد تحريم الخمر ، وقد جاءت السنة متواترة أن النبى عليه السلام حرم الخمر وعليه انعقد الإجماع ، ولأن قليله يدعو إلى كثيره ويوجب الحد. (المترجم)

والنساء المتنكرات فى ملابس رجال، تحت وجه مستعار يستطيعون أن يرقصوا ويضحكوا دون حذر ، ولكن أصل الرقص التنكرى لا يرجع تاريخه إلى هذا الرقص القائم فى الاحتفال بليلة الثلاثاء السابق للصوم الكبير ، بل الحقيقة ، أن هذا الرقص التنكر كان جزءاً من منهاج معظم الاجتماعات العامة التى كانت تنطوى كذلك على روايات تمثيلية بالحركة فقط ، وأشباح غريبة تعرض بوساطة الفانوس السحرى . ولكى يذهب الرجال والنساء إلى هذه الحفلات المسائية كانوا « يتحلون بالجواهر ، ويرتدون ملابس فاخرة وملونة من نسيج مطرز بالحرير والذهب » وكانوا يتعطرون بالعنبر الداكن وبالبخور . وكان نساء المجتمع لا يشتركن فى مجتمعات الرجال ، وكانت تحل محلهن جوار أنيقات تفوق موهبتهن الفنية فى الرقص وجمالهن الفتان كل تقدير .

وبخلاف الأعياد والحفلات المسائية الراقصة كانت النخبة من الرجال ينظمون مجتمعات شعرية ، ومجالس فلسفية كان المرء فيها يجادل عن علم وبصدر رحب . وكانوا يجتمعون أيضاً على الملأ لتلاوة القرآن وتفسيره . ولقد كان هذا العصر المرح حقاً لا يخلو من متع أكثر سمواً فكان يفاخر بالمذهب الصقلى : وكانت المدارس الفكرية لا حصر لها وكانت الفنون والعلوم تشجع عن حكمة ، وكان الجو كله يموج بالشعر ، وبالمتعة الكاملة فى الفهم، وكانت حياة بغداد تنطوى على شىء من التسامى . وفى زمن الرشيد، لم تكن المدينة قد بلغت بعد من العمر خمسين عاماً ، لكنها اعتبرت مركزاً عالمياً فى الدرجة الأولى من القدر ، وكأنها مكان مقدس للفكر . وإذا كانت عظمتها قد نمت فى عصر الامبراطورية، فإنها أصبحت بسرعة المنافسة لبيزنطة ، وتبعاً لبعض التقديرات ، كان يبلغ تعدادها فى القرن الحادى عشر مليوناً ونصف المليون من السكان الذكور ، على فرض أن التقدير الإحصائى لا تذكر فيه النساء ، ويتيح هذا الرقم تقدير عدد السكان الكلى فى بغداد بثلاثة ملايين من السكان . ومن المؤكد أنه كان يوجد فى ذلك الزمان فى قلب المدينة ستة آلاف حمام ، وثلاثون ألف زورق ، وسبعة وعشرون ألف مسجد . وينبغى ألا ندهش من هذه الأرقام الأخيرة . وفى بداية الإسلام ، كانت تطلق كلمة « جامع » على كل مكان لاجتماع أمين ، وقد يكون هذا الجامع مدرسة أو نادياً أو حتى سوقاً ، أما الحمامات ، فلم تكن فقط أمكنة للطهارة ، بل كانت كذلك أمكنة للهو والترف .

جميع الأديان كانت ممثلة فى هذه المدينة . وكان المسيحيون يملكون تحت تصرفهم

عددا لا يحصى من الأديرة . وكانت الطائفة اليهودية لها محكمتها الخاصة وسجنها . وكان بعض الوزراء مسيحيين ، أو فرساً أو يهوداً ، وفى قصيدة هجائية تجاه أخلاق « آخر الزمان » يؤكد ابن المعتز أنه فى سنة ٨٩٠ أخذ « الذميون » فى الطواف على صهوة الجياد ، وكنا نسمع التحدث منذ وقت طويل عن مجلس من عشرة أعضاء كانت اجتماعاته تتسم بالتسامح المتبادل وكان هؤلاء العشرة يتكونون من سنى ، وشيعى وخارجى ، ومانوى وشاعر غزلى ، ودهرى ، ومسيحى ، ويهودى ، ومجوسى ، وزراد شق . وفى الحقيقة ، ظلت هذه المدينة الجامعة لكل طوائف البشر نموذجاً للتسامح ، والادارة الحكيمة ، وللأناقة .

الشعب :

ما الذى كان يصنعه عامة الناس ، وسواد السكان أثناء هذا العصر ؟ إن الشعب كان يحمل بكل سهولة على أكتافه — عبر كل العصور — كل ثقل هذا الصرح من العظمة . وكان العمال والأجراء والصناع — غير المبالين بجولات المتطلين المتأنقين — يؤدون عملهم المرهق بجهد تخففه البشاشة على ظهور السفن ، وعلى الأطورة (الأرصفة) ، وفى المشاغل ، وفى الأسواق ، وكانت كل طائفة تملك مشاغلها أو حوانيتها ، ومعالمها أو مصانعها المتجمعة فى نفس الحى .

كان سوق الحدادين يضاء بمجموعة من الأضواء فى شكل حزمة . وكان سوق النحاسين يدوى بضربات المطارق . وكان صناع السكاكين والآلات الحادة وصناع الأقفال ، وصناع الأسلحة يطرقون ، ويبردون ويصقلون الحديد ؛ وكان سوق صناع الجواهر يشع بالأحجار الكريمة المركبة على فن عربى من الذهب أو من الفضة ؛ وفى دكاكين الخياطين ، كانت تباع وتوزن الأنسجة ؛ وكان صناع الأحذية يصنعون نعالا أنيقة ، وقباقيب ضخمة ؛ وكان صناع الفخار ينحنون على (طولاتهم) ويحركون مخاريطهم بالقدم فيشكلون آنية من كل نوع . وينتظر صناع الأمشاط والسلاسل وهم جالسون على الطريقة التركية بيع ثمرة ما صنعوا . وفى وسط الشارع ، كانت صفوف من الإبل والحمير والبغال تملأ الجو بقرع أجراس جلاجلها التى يصاحبها بغير ملل رنين الأجراس الصغيرة وصياح الباعة المتجولين . وكان عابر الطريق وهو ضال بين هذا الجمع من الناس المزدحم يستطيع أن يتناول كعكاً ، وزلابية ، وأشربة مسكرة ،

وحلاوة ، وكذلك سمكاً مقلياً ، وباذنجاناً ، وقرعاً كان يبيعه أصحاب المطاعم المتواضعة . ثم بعد أن يحصل على نبيذ فى الأديرة المسيحية ، كان يذهب ليتعاطاه فى مقاه صغيرة يملكها اليهود ، وفى طريقه ، كان يمر بسوق الخشب ، والأعشاب ، والفواكه ، والأزهار ، والتوابل التى كانت تعبق الجو بأريج معطر عطراً شذياً ، وكان مثل هذا المنظر يتكرر كل يوم فى بغداد .

كان البناء يجرى بهمة ونشاط فى بغداد : فكان النجارون والبناءون ، والحفارون ، والرسامون يشكلون فى حى (الأسواق المالية) مؤتمرات حقيقية صغيرة للعمل الذى لم تكن تعريفته تقررت ، وأجر اليد العاملة فى اليوم ، بل كان يرى جميع كذلك فى هذه الأحياء استخدام العمال أثناء الفترة التى تتوقف فيها الأعمال . ومن بين هذه الطوائف ، توجد طائفة كانت تتحرك بسرعة على طول أطورة (أرصفة) النهر وهذه الطائفة هى طائفة الحمالين ، وعمال السفن ، وملاحى السفن النهرية . وكانوا يتوقفون عن العمل لأسباب سياسية ، وكذلك بسبب مشكلات الأجور . وكان يحدث أحياناً كأية مدينة معاصرة ، أن تفتقر بغداد إلى الدقيق أو الملح أو الزيت فيتدخل رجال الشرطة فى الحال ويهدئون من ثورة المضربين عن العمل ويعيدون النظام من جديد .

وعلى الجملة ، كان هذا العالم الصغير من جمهور العامة الخالى من الاهتمامات الفلسفية ، يعمل دائماً بذكاء وبشاشة . وبين الوقت والوقت ، كان دولاب العمل اليومى يقاطع فى الشارع بموكب عرس أو ختان ، لكن الضوضاء كانت تتوقف مع أى إجراء للشرطة ، وتعود الحياة اليومية إلى مجراها الطبيعى ، وكان رجل الشعب المسلم وهو القنوع حتى بالنسبة للضروريات فخوراً بمسجده ، وبمدينته ، وبخليفته وكان يشعر شعوراً مبهماً بأن بعض ذلك المجد يرجع إليه .

(١٣)
الإسلام فى الغرب

الأمير عبد الرحمن :

فى سنة ٧٢٥ ، كانت شخصية روائية تلقى عصا التسيار فى أسبانيا .. هذه الشخصية ذات مظهر غريب ، صاحبها طويل القامة ، نحيل الجسم ، ذات سمات واضحة ، وأنف أقنى ، وشعر أحمر ، وهى الشخصية الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة من سائر الأمراء الأمويين : إنه عبد الرحمن .

فى سن العشرين ، كان عبدالرحمن قد قذف بنفسه فى نهر الفرات فارا من فرسان العباسيين الجدة فى طلبه ، فعبر النهر سباحة وتنقل من قبيلة إلى قبيلة ، وطورد دون توقف فى كل مكان . وقد عبر سوريا وفلسطين ، ومصر ، وصحراء ليبيا ، وطرابلس ، وإفريقية ، وبلاد المغرب بغير مال ولا صديق،ولا دابة ، متخفيا بإحكام من الجواسيس الذين كانوا يتتبعونه حتى فى آخر العالم . وأعاد ثانية — وهو متخف — الطواف بالبحر الشاسع الذى كان أسلافه قد اجتازوه فاتحين قبل ذلك الوقت بأقل من نصف قرن ، وعند ما وصل الفارس الضال إلى أسبانيا نصب نفسه أمير قرطبة بمساعدة فرق سورية ، وفدت من دمشق ، وظلت على ولائها للأمويين ، وبمعاونة هذه الفرق ، قهر جيشاً كان مكلفاً عزله ثم أرسل هدية إلى الخليفة فى بغداد ، لم تكن سوى رأس الحاكم الذى كانت عليه مهمة ذبحه . . وقد لف هذا الرأس فى علم العباسيين الأسود ، وحفظ فى الكافور والملح . وشهق الخليفة المنصور — الذى تعرف على هذا الرأس بقوله : « حمداً لله الذى جعل بينى وبينك بحراً بأكمله » .

لم تتوقف هذه القصة الشرقية الخالصة والحقيقية أيضاً عند هذا الحد . وراح هذا الهارب الخالى الوفاض ، والمزود فقط بدمه الملكى وصاحب الشجاعة النادرة يؤسس أسرة قدر لها من الحظ والشهرة أن تعدل أسرة خصومه الأقوياء . وتواصل القصة الحديث . كان هذا البطل الخيالى رجلا رقيق القلب ، وفى أوج سلطانه ، كان يتلهف

على مواطن طفولته إلى حد المحافظة فى شغف على شجرة النخيل الوحدة فى الأندلس والتى كان يهدى إليهـا أبيات شعره . لـكن هذا الرجل الرقيق ، وصاحب قصائد الرثاء الصغيرة لم يكن رجلا ضعيفاً ، فقد كون بسرعة لنفسه جيشاً من أربعين ألف بربرى منظمين ومدربين . ومنذ ذلك الوقت تحقق أمن مملكته ، وتكشف كذلك عبد الرحمن عن أنه أمير عظيم فى السلم والحرب معاً .

كان مولعا بالبناء ، شغله الشاغل إسعاد رعاياه ، فأمر أولا بتشييد مجرى ماء يحمل المياه العذبة إلى قرطبة ويقوم بتوزيعها فى المنازل والحدائق والنافورات والحمامات ، ثم أقام حصوناً حول المدينة ، وشيد خارج الأسوار القصر الملكى فى الرصافة لـكى يعيد به ذكرى قصر طفولته فى سوريا البعيدة ، وأخيراً ، أسس المسجد الكبير فى قرطبة الذى أصبح قبلة الإسلام فى الغرب ، وأقام جسراً على نهر الوادى الكبير ، وأخيراً ، بعد أن وسع مدن إمبراطوريته ، وجملها ، شرع فى جمع شمل العناصر المختلفة للشعوب فى الغرب : من عرب وبربر ونوميديين وأسبان . . الخ ، ثم يبقى على كاهل هذه الحركة التى ستمتد عبر القرون التالية أن ترفع من شأن أسبانيا الإسلامية إلى المكانة الأولى من الحضارة . وعند ما مات عبد الرحمن فى سنة ٧٨٨ كانت الثقافة ، والشعر ، والفن ، والطريقة الفنية الأسبانية المغربية قد أخـذت فى توجيه أتباعها ناحيـة العالم الغربى .

تابع عبد الرحمن الثانى هذا العمل السلمى المزدهر على الرغم من أعمال الـكفاح التى كان عليه أن يقوم بها ضد النورمنديين الغزاة ، وضد المسيحيين على الحدود ، وقد قيل إنه كان — على غير علم منه — المصدر الأول للاضطرابات التى ظهرت فى أثناء حـكم خلفائه على الرغم من تساهله المتزايد تجـاه بعض الثوار . وفى الأقطـار الإسلامية سواء فى الشرق أم فى الغرب ، كانت السلطة التى لا تفرض نفسها ، تمهد الطريق لسقوطها . فقد دمرت فى الحال ثورات من القبائل واضطرابات أهلية ، ومعارك دينية أو عنصرية ، وأعمال قطع الطرق دمرت هذه الأعمال تماسك الامبراطورية واتحادها اللذين أقامهما بجهد جهيد ، عبد الرحمن الأول . وكانت الدولة الجديدة تهتز من أسسها وكانت طليطلة وأشبيلية تسعيان لاسترداد استقلالهما .

خلافة قرطبة :

عند ما تولى عبدالرحمن الثالث الحكم فى سنة ٩١٢ ، كانت البلاد مفككة ، لكن هذا الفتى البالغ من العمرو واحداً وعشرين عاماً ، راح يصعد على قمة الظروف ، فقد قهر بذكائه وعزمه مثل سلفه الشهير المدن الثائرة ، وأعاد فتح الإمارات الواحدة بعد الأخرى ، وأخضع الطبقة الارستقراطية العربيـة التى كانت تستعد لإعادة تأسيس نظام إقطاعى .

كان سياسياً محنكاً ، وخبيراً يعرف كيف يجمع حوله رجالا مختلفى الولاء بدقة متناهية ، فنجح عن طريق محالفات بارعة فى المحافظة على التوازن بين الدول المتنافسة ، وحكم بيقظة وبعناية وبمتابعة جديرة بأعظم الملوك فى التاريخ ، فلما استتب له الأمر قضى أخيراً على أعدائه . لقد رد هجمات دون سانكو ملك نبرا واستولى على عاصمته ودمرها فكف المسيحيون منذ ذلك الحين عن إقلاقه . والحق أنه ، لم يحصل على هذه الانتصارات الباهرة بدون مشقة بالغة . فبخلاف حرصه الخاص القوى — الذى يربو على أكثر من ثلاثة آلاف جندى والذى كان نواة عسكرية منتخبة لجيش دائم — كان قد شكل جيشاً من أكثر من مائة ألف رجل مجندين من بين الأسرى الصقالبة الذين أسرهم الجرمان وباعوهم . وكان جنود حرسه يؤخذون فى سن المراهقة ويدربون ويثقفون بسهولة وفقاً للنظم العربية . وقد اتبع فيما بعد هذا النظام نفسه فى مصر مع المماليك ، وفى تركيا مع الانكشارية . وبفضل هذه الفرقة من المرتزقة ولكنها الأمينة الخاصة استطاع الخليفة أن يقلل من الانقسامات وأعمال النهب . وأن يقمع النزعات الاستقلالية للطبقة الارستقراطية العربية وقد ظفر عبد الرحمن الثالث بعد أن امتعاد سلطانه بشهرة عظيمة كرجل مهذب ، وكريم ، وملاطف . ولما عمل حساباً دقيقاً لقوته الخاصة وفى الوقت نفسه لأفول سلطان بغداد ، فقد نصب نفسه بنفسه فى سنة ٩٢٩ خليفة وأميراً للمؤمنين وحامى حمى الدين .

وسيبقى عبدالرحمن الثالث أعظم شخصية للأمويين فى أسبانيا . وتمثل فترة حكمه — وهى فترة غريبة كل الغرابة إذا قيست بالفترة التالية لها فى ظل الخليفتين اللذين سيخلفانه تباعاً — ذروة التسلط الإسلامى فى الغرب . وهذا الرجل الذي كان

عظيماً ترك — عند ما مات فى سنة ٩٦١ — شهادة للتاريخ تستحق التأمل بالنسبة لحظه المتواضع من الحياة الإنسانية :

« أيام السرور التى صفت لى دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويوم كذا من كذا ، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها » .

هـذا الخليفة الناصر حليف السعود المضروب به المثـل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ، ملـكها خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، لم تصف له إلا أربعة عشر يوماً ، فسبحان ذى العزة القائمة والمملـكة الدائمة ، لا إله إلاهو » ..

استمد ولده ، الحكم ، من الخمسين سنة الرخية الخالية من السعادة ، نظاماً حكيماً ، فقد انتفع بحـكم سلمى ، واستطاع أن يكرس نفسه فى تجميـل المدن ، وأمر بتشييد ملاجىء للفقراء ، ومستشفيات وحمامات وأسواق ، ومدارس ، ومساجد ، وأصبحت جامعة قرطبة فى ظل قوته الدافعة أشهر جامعة بين سائر الجامعات . واستفاد على الدوام الشعراء ، والمتفننون والعلماء من مساعدته الـكريمة ، ولـكن فى الوقت الذى كان ييسر فيه نشر كتبهم كان يجمع كذلك لنفسه أكبر عدد من المؤلفات الأصلية . كما أن مكتبته الخاصة التى نسقها كانت تحتوى على أكثر من أربعمائة ألف كتاب . وكانت العناوين الفريدة تشكل فهارس من أربعة وأربعين مجلداً . فى كل فهرس منها عشرون صفحة كانت مخصصة للمؤلفات الشعرية .

ولم يكن خليفته هشام قادراً على الحكم فتولى المنصور (بن أبى عامر) وهو قائد مشهور الاسم . الحـكم من بعده ، وأنشأ جيشاً يدين بالولاء له . كان سياسياً داهية فعمل على كسب تأييد المفـكرين والفقهاء . وفى الوقت نفسه كان يجيد ملاطفة الشعب . وانطلق فى حملاته كل ربيع كما ينطلق الشعراء إلى الحقول حيث دمر الدول المسيحية المجاورة على التوالى . وقلب رأساً على عقب كاتدرائية سان جاك دى — كومبوستل . وأمر بعض الأسرى بحمل أجراسها البرنزية من برجها الشهير على أكتافهم ، وعادت فيما بعد هذه الأجراس إلى الـكاتدرائية بالطريقة نفسها لـكنها فى هذه المرة كانت محملة على أكتاف المسلمين . ومات المنصور فى سنة ١٠٠٢ عند عودته من حملة مدمرة فى قشتالة ..

لم يعد تاريخ أسبانيا العربية من بعده إلا مغامرة تتميز — بالاضطراب والحيرة . وقد اتحدت مختلف الطبقات الاجتماعية ضد خلفاء المنصور وعزلوهم سنة ١٠٠٢ فاستولى البربر سنة ١٠١٢ على قرطبة ونهبوها . وشقت المدن عصا الطاعة بعد أن كانت موالية لحكم الأمويين . وفى سنة ١٠٢٣ طرد أهل قرطبة البربر، وقامت دكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة) ، لكن لم تلبث أن قبضت الطبقات العليا بيدها على السلطة فى سنة ١٠٢٧ وتفككت أسبانيا الإسلامية التى حازت قصب السبق على قرطبة . وحكمها المتضد بقسوة طيلة سبعة وعشرين عاماً . يالسخرية القدر ، فقد كان لزاماً على ولده المعتمد أن يصبح أعظم شاعر فى أسبانيا الاسبانية وأن يبقى طيلة جيل على رأس حضارة مشرقة كحضارة بغداد ، وقرطبة فى عصر أوجهما .

ونافسه فى الحال بلاط سرقسطة وبلنسيه وطليطلة فى الأبهة ، ويقصر الحديث عن الابهة عندما تتحدث عن مثل هذه المدن التى كانت مواطن ثقافة قوية قدر لها أن تؤثر فى العالم المسيحى تأثيراً عميقاً [١] .

---

(١) وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين الذين يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أوروبا المسيحية إلى قرطبة أو طليطلة أو أشبيليه طلاباً للعلم أو زائرين أو مسافرين وقد شكا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اصطباغ اليهود بالصبغة اليونانية فيقول : « إن إخوانى المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين ، وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ، فهم يقبلون فى نهم على دراسة كتب العرب ويملؤون بها مكتباتهم ، وينفقون فى سبيل جمعها أموالاً كثيرة ، وهم أينما كانوا يتغنون بمدح علوم العرب [عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — تأليف ول ديورانت . ترجمة محمد بدران ص ٢٩٧] . (المترجم)

الإدارة :

كانت إدارة الأعمال العامة فى الاندلس — وهكذا كانت تسمى أسبانيا الإسلامية — أكثر الأعمال تطوراً بلا جدال فى ذلك العصر وكانت قوانينها المبنية على العقل والمتقنة الوضع فى ظل نظام شرطى (بوليسى) منظم تنظيماً كاملا ، مطبقة بطريقة إنسانية على أيدى قضاة غاية فى النزاهة وكانت الضرائب معقولة وميسرة التحصيل ، وأقل نسبياً من ضرائب البلاد الأوربية بفضل تطبيق اقتصاد موجه توجيهاً حسناً . وكان دخل إمارة قرطبة وحدها أعلى من دخول جميع العالم المسيحى اللاتينى . وكان يستخدم ثلث الدخل لدفع نفقات الجيش . والثلث الثانى للنفقات العامة والثلث الاخير للاحتياطى .

وعلى الجملة ، أحدث النظام الإسلامى تقدماً ثابتاً بموازنته بالنظم القوطية الغربية السابقة . حتى قيل إن « بلاد الاندلس لم تعرف أبداً من هذا اللون فى الهدوء ، والعدل ، والحكمة مثلما عرفته فى ظل الفاتحين العرب[1] » . نعم ظهر بعض الأمراء أحياناً بمظهر البرابرة بلا طائل ، مثل المعتضد فى أشبيلية ، ولكن فى مقابل هذا — كم من سمات الكرم والفروسية أظهرها الملوك الأمويون فى قرطبة .

الاقتصاد :

تفتتت عند الفتح الإسلامى أملاك أمراء القوط الغربيين الشاسعة وكان هذا خيرا بالنسبة للفلاحين ، لكن النظام الإقطاعى الذى كان يمهد لنفسه من قبل فى أوروبا ، اتجه نحو الرجوع إلى الملكية الكبيرة لحساب الحكام العرب . ومع ذلك ، ففى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الذى يمتاز بمناخه وأرضه كان عدد من السكان المستأجرين يعملون أيضاً بالحصة مع الملاك .

---

(١) « لم تنعم الاندلس طوال تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به فى أيام الفاتحين العرب » ، ذلك حكم يصوره مستشرق مسيحى عظيم هو استانلى لين بول فى كتابه « حكم المسلمين فى أسبانيا » . (المترجم)

وتحت القوة الدافعة الإسلامية ، تفوقت الزراعة فى أسبانيا بشكل واضح عن بقية الغرب . فقد جلب العرب الزراع ذوى الخبرة من آسيا وحفروا قنوات للرى ، وأدخلوا زراعة الكروم ، والحنطة السوداء[1] ، وأشجار الزيتون فى الجنوب ، وأشجار بلح النخيل فى ميورقة ، وزراعة شجرة التوت لتربية دود القز ، وقصب السكر ، والأرز ، والهليون ، والسبانخ ، وكميات من الفواكه لم تكن معروفة بعد فى هذه البلاد : من رمان ، وبرتقال ، وسفرجل ، وليمون هندى ، ومشمش ، وتين ، وليمون ، وخوخ .

بلغت وقتئذ ضواحي قرطبة وغرناطة « والسهول الخصبة فى بلنسيه ومرسية » شهرة عالية زماناً ومكاناً . واليوم ، تملك أيضاً حدائق هـذه المناطق الممتازة شيئاً غريباً بدون شك . لكن هذا الانتشار المظم للزراعة هو أحد المكاسب الأكثر بقاء والتى تدين بها أسبانيا للحضارة العربية . وفى ميدان تربية الحيوان كان لزاماً على تهجين أجناس الخيول العربية والمغربية أن تقدم الجياد المطهمة لفرسان أسبانيا ، وكانت الصناعة المعدنية منتشرة ، كما كانت دروع قرطبة ، وسيوف طليطلة ذات شهرة عظيمة . وكانت مرسيه تتقن صناعة النحاس والحديد . وكانت مدينتا جيان والجرب علىكان مناجم من الذهب ومن الفضة ، كما وجـد القصدير ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والزئبق . وانتفع بالكبريت وبحجر الشب . وكانت باجه وملقه مشهورتين بياقوتهما الأحمر . وتشتق كلمة «صانع أحذية» Cordonnier ، من Cordoüe (قرطبة) التى كانت فيها صناعة الجلد مزدهرة . وكانت هذه المدينة تزهى بمن تضمهم من عمال النسيج البالغ عـددهم ثلاثة عشر ألفاً . وكانت سجاجيدها ، وستائرها الحريرية مرغوباً فيها فى العالم جميعه مثل الأنسجة الصوفية والحريرية لمالقة والمرية .

كانت حكومة الخلفاء تشرف على خدمة بريدية منظمة . وكانت هنـاك ألف من من المراكب القادمة من برشلونة ، وبلنسية ، وقرطاجنة ، والمرية ، ومالقة . وقادس ، والميناء النهرى لأشبيلية ، مهمتها تأمين حركة التجـارة مع أفريقية وآسيا . وكان

---

(١) نبات ينمو فى ألمانيا وبريطانيا وتستخدم حبوبه طعاماً للخيل والدجاج والماشية ، ويستخدم دقيقه لصناعة الكعك . (المترجم)

التعامل يجرى بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ، وهى ثابتة نسبياً ، فى الممالك المسيحية الشمالية التى كانت لاتعرف طيلة أربعة قرون غير هذه العملة ، وعملة ملك فرنسا .

كان ملاك الأراضى الشاسعة والتجار يستغلون — كما هو حادث اليوم أيضاً — المنتج والمستهلك فى أسبانيا الإسلامية لكن الأمراء كانوا يحافظون على التوازن بتخصيص ربع الدخل العقارى لمساعدة الفقراء .

الدين :

كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة فى عبادتها . . وكان اليهود المطاردون حتى هذه البلاد لديهم مطلق الحرية فى اقتناء الثروات ووصلوا أحياناً إلى مراكز سامية . واختلط المسيحيون مع المسلمين . واتجهت العادات نحو التشابه بعضها مع البعض . وحدث أن مسيحيين ومسلمين احتفلوا بأعيادهم معاً فى المسجد وفى الكنيسة . ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد ، شوهد بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوج على الرغم من تحريم الكنيسة . بيد أنه عندما بهرت هذه الحضارة المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوروبا المسيحية كلها ، أخذوا يزحفون — حباً فى هذه الحرية — إلى قرطبة وطليطلة ، وأشبيلة لكى يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها .

ثم حدث ماكان مقدراً له أن يحدث . فأمام هذا الكلف الزائد بهذه الحضارة ، بدأ بعض المسيحيين فى مقاومته أحياناً بكل قوة بالشكوى من هذا الميل الذى كان يشعر به الكثيرون منهم تجاه أفكار الإسلام ومؤلفاته .

وبعد أن ورث بعض الأمراء عن الملوك القوطيين الغربيين حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، أساءوا استخدام هذا الحق ، وانهمك كثير من فقهاء المسلمين فى الوقت نفسه فى أحكام نقدية تجاه الدين المسيحى . ولم يتردد المسيحيون — مدفوعين بغضبهم من هذه الأحكام النقدية فى تعريض أنفسهم لأخطار كبيرة فى أثناء ردهم على هذه الانتقادات . وتأزمت بعد قليل الأمور . وفى ظل السخط الذى أثاره رد الفعل من جانب المسلمين ، تكونت مجموعة من «الغيورين» المسيحيين الذين ذهبوا إلى حد إثارة

الاضطهاد على الرغم من التسامح الديني . وسعى بعض الرهبان ، والقساوسة ، والنساء إلى الاستشهاد ، وارتضوا به عن غبطة . وقد تم تنفيذ خمسة عشر حكماً بالإعدام فيما بين عامى ٨٥٠ و ٨٥١ ، لكن الحركة انتهت بالهدوء ولم يستشهد إلا اثنان طيلة القرن التالى ، ثم لم يستشهد أحد بعد سنة ١٠٠٠ ..

ذلك أن حمية المسلمين وإيمانهم كانتا تقترنان مع الثروة والرخاء . وهبت بعد قليل رياح من الشك على العالم العربى . وتكونت مذاهب إلحادية استنكرت جميع المعتقدات وجميع الممارسات الدينية ؛ ومن ثم ، عندما أخذت النوازل تهبط على العالم الإسلامى ، عزا رجال الدين سبب هذه النوازل إلى الإلحاد والمعصية . وحاول الملوك بكل سلطانهم أن يساندوا رجال الدين ، وقد ساندت العقيدة « القرآن » والسلطان والإيمان بعضها بعضاً بطريقة متبادلة . ذلك أن المناقشات الفلسفية لم تعد تقتصر على تسليات البلاط ؛ فعلى الرغم من آراء الخلفاء المتحررة رأوا أنفسهم أحياناً ملزمين بالترابط مع السواد من رعاياهم ضد المفكرين الذين كانوا يرغبون فى تحرير أنفسهم من تأثيرات المعتقدات الإسلامية ، وكانوا يتظاهرون بالنظر بشىء من الاحتقار إلى صرامة العقيدة .

المعمار :

كانت أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر بلا شك أكثر بلاد أوروبا ثروة ، وكان بها عدد كبير من المدن ، ومن الأمصار العامرة بالسكان ، ويقال إن تعداد قرطبة فى عهد المنصور بلغ نصف مليون من السكان ، ومائتى ألف منزل ، وستين ألف قصر ، وستمائة مسجد ، وسبعمائة حمام شعبى ، وسبعين مكتبة . وقد رأينا من قبل كيف كان فى قرطبة عدد وافر من الشوارع المرصوفة بأطورة (أرصفة) مرتفعة ، وكان المرء يستطيع أن يسير عشرة كيلومترات على ضوء المصابيح فى الوقت الذى لم يوجد فيه بعد ذلك بسبعمائة عام فى شوارع لندن إلا مصباح واحد . وفى القصر الملكى الذى شيده عبد الرحمن الأول ، أضاف الخلفاء أيضاً بما كان لهم من همة ونشاط مساكن أخرى فاخرة : قصر الزهور ، قصر المحبين ، قصر الرضا ، قصر التاج .

وقد بنى عبد الرحمن الثالث بعد ذلك فى النصف الأول من القرن العاشر ، وعلى

بعد بضعة كيلومترات من جنوب المدينة ، قصر الزهراء[١] الذى عمل فيه طيلة خمسة وعشرين عاماً أكثر من عشرة آلاف رجل وخمسمائة ألف دابة . وكان القصر مسكناً ضخماً يستطيع أن يتسع لسكنى ستة آلاف امرأة . وكانت لقاعة الاستقبال سقوف وحوائط من المرمر ومن الذهب ، وبها ثمانية أبواب محلاة بالأبنوس ، والعاج والأحجار الكريمة ، وحوض من الزئبق ، الذى كان سطحه المتموج يراقص أشعة الشمس . وكان بالقصر مائتا ألف عمود من المرمر . وكان هذا القصر طيلة نصف قرن الموطن الأول فى الأناقة ، والرشاقة ، والرقة ، ومهد الفكر والمذهب العقلى . وفى الطرف المضاد للمدينة ، شيد المنصور بعد ذلك بثلاثة عقود أو أربعة ، قصر الزاهرة الذى كان يستقبل فيه رجال البلاط والشعراء ، والشعراء المتجولين ، وفى سنة ١٠١٠ فى غضون الحركات السياسية الموجهة ضد الخلفاء ، نهب هذان القصران ، وأصبحا رماداً بسبب الأحزاب الثائرة[٢] . أما فى قرطبة ، فقد أسس المسجد الأزرق المشهور . ولقد أقام الرومان قبله وفى نفس الموضع معبداً ليانوس وأقام المسيحيون من بعدهم كاتدرائية . وبعد أن اشترى عبد الرحمن الأرض من المسيحيين ، هدم الكاتدرائية ، وبنى بدوره المسجد الأزرق . لكن فى سنة ١٢٣٨ كان لزاماً على « الاسترداد » أن تحول المسجد مرة أخرى إلى كاتدرائية . وهكذا يتغير الحق مع أحوال الحرب . وثمة شىء مما لم يتناوله التغيير فى غضون ذلك — ويسلم به المؤرخون فى الجملة : ألا وهو منظر المكان وموقعه وهو فريد فى بابه . وهو المنظر الوحيد الذى كان يأتى برجال من مواطن بعيدة جداً من الأرض الأسبانية . وكانت العبادات المتعاقبة تختار هذا الموقع كإطار لمظهرها . وكانت أعمالها الخاصة تقترن بهذا المكان ، وهى شبيهة بزخرفة تكاد تكون عابرة ، لكن فكرتها كانت تبقى مرتبطة بنفس المكان الذى نظر إليه على

---

(١) اطلق على هذا القصر هذا الاسم تيمناً باسم جارية أثيرة لديه وفى قول آخر زوجته . (المترجم)

(٢) ولقد كان المنصور بن أبى عامر يحس بسوء المصير لمدينته فهو يعلم قطعاً أنه إنما أنشأها مغالبة واستبدادا وابتزازا لأموال الناس وحرماناً لكثير من المستحقين [عن تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى — تأليف الدكتور على محمد حمودة ص ٣٨٢ . (المترجم)

أنه معبد روحي جامع . وكان الإنسان لا يملك إلا أن تتجد روحه فى هذا المكان مع كل ما هو إلهي : وهذا ما كان ينبغي أن يكون عليه أكثر من الاحتفالات الدينية والطقوس الخاصة . وفى هذا ، يجب البحث عن المفهوم الفردى — غير المبالى بأحوال الحرب — فى أن كل كائن إنسانى يملك بعض الحقيقة وبعض الجمال وبعض الخير ثابتة ودائمة .

ومن بين أعمال البشر ، يظل المسجد الأزرق لا نظير له بأبعاده ونقوشه وأسهم كل خليفة طيلة قرنين فى تجميله لكى يجعل منه أيضاً تعبيراً أكثر كمالا وأكثر صفاء . وفوق أبراجه ، وحائطه المسنن الذى يحيط به ، تبرز مئذنة مربعة ذات نمط سورى تعلو جميع مبانى المدينة . وهناك تسعة عشر مدخلا فخماً مركبة عليها أقواس مبرقشة تتيح الوصول إلى ساحة الوضوء ، التى تنفجر فيها أربعة صنابير ثبت كل منها فى عمود من الرمر يصعب على سبعين ثوراً نقله . وبالداخل ألف ومائتان وثلاثة وتسعون عموداً من حجر اليصب ، ومن الرخام السماقى ، ومن الرخام الأبيض ، ومن الرمر تبرز جميعها سعة لا نهائية مزعجة .

وقديماً ، فى السقف الخشبى المبرقش ، علق مائتا (شمعدان) كبير مصبوبة فى برنز أجراس الكنائس ، كما كان هناك سبعة آلاف قنديل من زيت معطر معلقة فى فروعها تشتعل ليل نهار ، وتتلألأ الحوائط أيضاً من الفسيفساء المزين بمختلف الألوان اليوم « ويظل كذلك المحراب الموشى بالذهب والمتوج بأعمدة رقيقة ، وبأقواس مسننة يظل هذا المحراب نموذجاً لأجمل تحفة قوطية » وأمام المنبر المصنوع من سبعة وثلاثين ألف صفيحة صغيرة من العاج ، ومن الخشب الثمين ، يقف الزائر مذهولا من الدهشة بسبب ضخامة وسمو العمل المتقن.

العلوم:

لقد كان نصيب هذا العصر من الفكر أكثر من حظه من الثروة أو القوة، وكانت قرطبة فى الذروة من ذلك المجد مع أن إشبيلية وغرناطة وطليطلة كان لكل منها نصيبها المشترك فى هذا المجد. فقد زاد الخليفة الحكم الذى كان عالماً متبحراً عن المعرفة فى جميع صورها .

وفى ظل حكمه ، وصلت جامعة قرطبة إلى مرتبة الصدارة وتبوأت مكانتها قبل جامعتى القاهرة وبغداد ، وكان أساتذة من الشرق يدعون إلى إلقاء الدروس فيهما . وأضاف الحكم سبعاً وعشرين مدرسة مجانية إلى مدارس كثيرة كان من المعتاد أن يدفع لها نفقات التعليم . ووصل مستوى الثقافة إلى حد أن المستشرق الهولندى دوزى[1] استطاع أن يقرر أن كل شخص تقريباً كان يعرف القراءة والكتابة فى الأندلس ، فى عصر كانت أوروبا لا تملك فيه غير مبادىء فى المعرفة ، هذا إلى أن هذه المبادىء نفسها كانت محتكرة لأقلية من رجال الكنيسة . وقد أسست أيضاً مدارس أخرى ومدارس ثانوية فى غرناطة وطليطلة وأشبيلية ومرسية ، والمرية ، وقادس ، وكانت المدن المغربية قد أصبحت خلايا حقيقية تزخر بالعلماء ، والمشرعين ، والأطباء ، والأدباء . والشعراء . وكان الفقهاء النحاة يعدون بالمئات كما كان عدد المؤرخين ، وكتاب السير كبيراً . ويقول المقرى : « وسنمسك عن ذكر الشعراء الذين ظهروا فى أيام هشام الثانى والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر » . وكانت موضوعات شعرهم كما هى دائماً « الحب والحرب » ، وهم الذين مهدوا لظهور الطريقة المبتكرة لشعراء العصر الوسيط فى أوروبا الغربية المعروفين باسم المنشدين والشعراء المتجولين .

وكان ينظر إلى العلم والفلسفة — فى هذا العصر المتسامح دينياً والمتشدد عقائدياً — على أنهما مشكلتان فى الدين ، بيد أنهما تألقا تألقاً وضاء . ففى مدرسة قرطبة ، كان هناك حماسة شديدة تتمثل فى مسلمة المجريطى الذى كان تلاميذه يدرسون الرياضيات والفلك ، والطب ، والكيمياء ، ويدرسون فى الوقت نفسه الفلسفة . وشرح جراح كبير — هو أبو القاسم الزهراوى ، طبيب عبد الرحمن الثالث — علم الجراحة ، واخترع طرائق جديدة فى الجراحة التى امتد نجاحها فيما وراء حدود أسبانيا الإسلامية بكثير . وكان الناس من جميع العالم المسيحى يذهبون لإجراء عمليات جراحية فى قرطبة، فتقدم الطب فى هذه البلاد . وفى أشبيلية أنجبت أسرة ابن زهر سلالة مهيبة من الأطباء اشتهرت طيلة أكثر من ثلاثة قرون . وكان الأكثر شهرة من بين أعضاء هذه الأسرة

---

(١) مستشرق هولندى (١٨٢٠ — ١٨٨٣) ، له مؤلفات شهيرة عن الجزيرة العربية وأسبانيا الإسلامية . (المترجم)

والذى نظر إليه على أنه رائد وتلميذ تابه هو ابن رشد الذى كان طبيباً ذائع الصيت وفى الوقت نفسه أحد الشخصيات الكبيرة فى الفلسفة . وفى ميدان الطبيعة برهن صانع للآلات البصرية ليس بأقل شهرة عن سابقه ، هو ابراهيم الزرقالى للمرة الأولى على انتقال البعد الأقصى للشمس بالنسبة للنجوم .

أفريقية الإسلامية :

كانت أفريقية الإسلامية ، إبان الفتح العربى مقسمة ثلاث ولايات : مصر وإفريقية ، والمغرب تعترف كلها بسيادة خليفة الشرق ، ولكن نظام الخلافة المترامى الأطراف ، وغير الواضح ، وبعده المتزايد أيضاً بسبب نقل العاصمة فى بغداد ، وصعوبات المواصلات والنقل أدى بهذه الولايات إن لم يكن إلى قطع علاقاتها جملة مع الحكومة المركزية فلا أقل من أنها لم تعد تتبعها إلا من وجهة نظرية . ونتج عن ذلك أن ثلاث أسرات مستقلة ظهرت تقريباً فى وقت واحد فى بداية القرن التاسع : الادريسيون فى فاس ، والأغالبة فى القيروان ، والطولونيون فى مصر . وهذه الأسرات التى لم يكن لديها قاعدة شعبية ، أسست نفسها على القوة وتفككت عندما أضعف الرخاء العظيم قدراتها العسكرية .

بيد أنه فى سنة ٩٠٩ ظهر فى بلاد تونس أسرة قدر لها أن تستمر قرنين من الزمان هى : أسرة الفاطميين ، من سلالة فاطمة بنت النبى عليه السلام . إذ بفضلهم وبفضل الأغالبة عرف شمال أفريقية رخاء يشبه ما كان سائداً فى قرطاجنة وروما . فشقت طرق تجاه الصحراء الكبرى ، وأنشئت موانى بونه ، ووهران ، وسبته ، وطنجة . وفى سنة ٩٦٩ ، استولى الخليفة المعز على مصر ، وأقام عاصمته فى القاهرة ، وبسط سلطانه على الجزيرة العربية وسوريا . وأعاد الوزير يعقوب بن كلس — وهو يهودى اعتنق الإسلام — تنظيم الإدارة فى مصر ، وجعل من ملوكها أكثر الملوك ثروة فى عصرهم . واضطهد وياللأسف الخليفة الحاكم (٩٩٦ — ١٠٢١) اليهود والمسيحيين ، وأمر بتدمير كنيسة قبر المسيح فى أورشليم ، ولعل هذا التصرف كان سبباً من أسباب الحروب الصليبية[١] .

---

(١) لم يكن هذا هو السبب ، بل إنها دعوة زائفة وافتراء كاذب من بعض المؤرخين الغربيين المتعصبين ، راجع تعليقنا بهذه المناسبة ص ٣٢٢ من هذا الكتاب . (المترجم)

ازدهرت مصر طيلة فترة حكم الفاطميين . ووصف فارسي عاش في مصر من سنة ١٠٤٦ إلى سنة ١٠٤٩ العاصمة بمنازلها التي يبلغ عددها عشرين ألفاً وحوانيتها التي لاحصر لها . وشوارعها العريضة والمضاءة ليلا ، وبالرقابة المفروضة على التجار للبيع بثمن محدد ، وبالأمن الشديد إلى درجة أن الصيارفة والصاغة كانوا لايستخدمون أقفالا لأبواب منازلهم ، وبقصر الخليفة الذى كان يسع ثلاثين ألف شخص منهم إثنا عشر ألفاً من الخدم . ويختم الرحالة قوله — وهو مذهول بالإعجاب على هذا النحو — قد لا أستطيع أن أضع حداً لثروتها ، لأنني لم أر شيئاً في أي مكان آخر يقترب من هذا الرخاء » . وبلغ هذا الرخاء أوجه في منتصف القرن الحادى عشر ، ثم خبا شيئاً فشيئاً بسبب الثروة ، والترف ، ونتائجهما المفسدة للآداب والأخلاق وانهارت مصر الفاطمية . وتفكك الجيش إلى أجزاء متنافسة بربرية . وسودانية وتركية . ثم استردت أفريقية والمغرب استقلالهما ، وفقدت فلسطين وسوريا . وفى سنة ١١٧١ مات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . ولم يكن له من يخلفه واعترف صلاح الدين الذى كان حاكماً على مصر ، بسيادة الخليفة العباسى فى بغداد .

الحضارة الأفريقية :

شجعت الأسر الحاكمة في العواصم الثلاث من أفريقيه الشمالية : القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، الآداب والعلوم والفنون . وقد اختفت اليوم الآثار الفنية ومخطوطات ذلك العصر ، أو أنها لم تستخرج بعد من تحت الانقاض . ولكن المساجد لا تزال على الدوام باقية ، وهى الوحدة التى صورت على غرار قلاع حقيقية . وفى القيروان ، لم يكن مسجد « سيدى عقبة » الذى شيد سنة ٦٧٠ ، إلا عدداً كبيراً من أروقة معظمها جلب من أنقاض قرطاجنة . وفى القاهرة أول ما يلاحظ جامع عمرو (٦٤٢) بأعمدته الجميلة المشيدة على الطراز الكورنثى والرومانى والبيزنطى : وجامع ابن طولون (٨٧٨) وجامع الأزهر (٩٧٠) الذى اتسمت أصالته بعقوده الفاخرة القوطية . وجامع الحاكم (٩٩٠) الشهير بأناقة زخارفه العربية ، وكانت هذه المساجد فى قديم الزمان مزخرفة بنقوش وفسيفساء رائعة ، وفخار يكاد يكون شفيفاً وقد لايثيرنا اليوم مدى مابلغته دقة صناعة النقوش والعناية الفنية الفائقة التى مورست حتى فى أقل التفاصيل . واشتهر أيضاً هذا العصر المتفوق فى الحضارة العربية بالفن الدقيق

الدقيق الذى صنعت به المنسوجات الفاطمية والتى كان لها تقدير خاص فى أوروبا . وبرع هذا العصر — من بين الصناعات الأخرى — فى صناعة الخيام من القطيفة ، والأطلس ، والحرير الموشى بشكل أزهار ، والحرير ، والصوف المذهب . وتطلب مسجد الوزير اليازورى عمل مائة وخمسين صانعاً طيلة تسع سنوات ، لكى ينتهى على أحسن ختام ، يسترعى الأنظار . ومثلت رسومه جميع أنواع الحيوان ، لكن لم يمثل فيها الإنسان .

وفى الجامع الأزهر ، فتحت الجامعة الأولى فى سنة ٩٨٨ التى قدر لها أن تستقبل التلاميذ من العالم الإسلامى بأسره . وقد أخذ الخلفاء ورعاة الآداب والفنون على عاتقهم صيانته ، وهو باق على مر الأيام وبه اليوم عشرة آلاف طالب وثلثمائة أستاذ ، وهبوا أنفسهم للمحافظة على التراث وحماية تعاليم الدين الحق . وأنشأ كذلك الحاكم فى القاهرة «دار الحكمة» التى كان المرء يدرس فيها المذهب الشيعى ، وعلم الفلك ، وعلم الطب ، وأسس فى نهاية القرن العاشر مرصد على بن يونس وهو أعظم فلكى مسلم . وعاش على ابن يونس فى الوقت الذى عاش فيه الحسن بن الهيثم أعظم اسم فى المعرفة فى هذا العصر ، ومؤلف كتاب المناظر الذى استخدم كأساس لأعمال روجيه[1] باكون Roger Bacon وكيلر[2] Kepler الأوروبية .

كانت النتيجة المثيرة للعجب العاجب للفتح الإفريقى هى الاختفاء التام للمسيحية التى كانت قد أشرقت طيلة قرون كثيرة فى عهد ترتوليان[3] ، والقديس

---

(١) راهب انجليزى من الفرنسيسكان ، كان يلقب بالطبيب العجيب ، أحد كبار العلماء فى العصر الوسيط ، وكان يهاجم بعنف الطرائق الفلسفية فى عصره ، ونادى بالتجربة . (المترجم)

(٢) فلكى ألمانى (١٥٧١ — ١٦٣٠) ، له قوانين فى الفلك أطلق عليها قوانين كبلر استخلص منها نيوتن قانون الجاذبية . (المترجم)

(٣) من كبار المدافعين عن الدين المسيحى ، ولد فى قرطاجنة (١٥٥ — ٢٢٠) تقريباً ، وهو كاتب لايشق له غبار ، وصاحب حجة قوية . (المترجم)

سيبريان[1] ، والقديس أوغسطين[2] والقديس فولجانس[3] من أهل روسب . واندثرت الكنائس المشهورة فى الاسكندرية وقرطاجنة وهيبون . لحياة البربر البدو التى كانت تتشابه كثيراً مع حياة العرب ، كانت تهيئهم لاعتناق الدين الإسلامى أكثر من الدين المسيحى . وساعدت بعض الاضطهادات المحلية ، مع الإعفاء من الضريبة الذى تطبق على المسلمين الجدد — على إضعاف الدين المسيحى .

الإسلام فى حوض البحر المتوسط :

كان معاوية ، مؤسس الأسرة الأموية أول من أدرك الحاجة الملحة إلى أسطول فى حوض البحر المتوسط ، فكانت النتيجة الأولية لهذه الضرورة فتح قبرص ورودس . وقد احتلت كورسيكا فى سنة ٨٢٧ ، وسرديليا فى سنة ٨١٠ ، وكريت فى سنة ٨٢٩ ، وصقلية فى سنة ٧٢٧ . وكما حدث فى أيام قرطاجنة ، يبدأ من جديد نضال فى حوض البحر المتوسط ضد المدن التى أقامتها اليونان فى صقلية . واضطلع حكام القيروان بهذا العبء فتتابعت غاراتهم على هذه الجزيرة ، وسقطت بالرمو فى سنة ٨٣١ ، ومسينا فى سنة ٨٤٢ ، وسراقوسة فى سنة ٨٤٨ ، وطرمين فى سنة ٩٠٢ . وأصبحت الجزيرة كلها تحت السيطرة الإسلامية وازدهرت فيها حضارة مشرقة .

وفى هذه الفترة ، كانت قد تعرضت غارات سريعة لبارى فى سنة ٨٤١ ، وأوسق فى سنة ٨٤٦ متبوعة بغزوات ناجحة إلى ما تحت « أسوار روما البابوية » وقاوم هؤلاء البابوات هذه الغزوات . وفى سنة ٨٤٩ ، ولى أسطول عربى أفريقى الأدبار .

---

(١) أسقف قرطاجنة ، وربما ولد فى هذه المدينة فى عام ٢١٠ تقريباً ، واستشهد فى عام ٢٥٨ . ويحتفل بذكراه فى ١٦ سبتمبر من كل عام . (المترجم)

(٢) لاهوتى وفيلسوف (٣٥٤ — ٤٣٠) ، فلسف المسيحية ، وله مؤلفات كثيرة منها : مدينة الله ، والاعترافات . (المترجم)

(٣) أسقف مدينة روسب فى أفريقية (٤٠٨ — ٥٣٢) ، كرس نفسه للرد على مذهب آريوسي ، ويحتفل بذكراه فى أول يناير من كل عام . (المترجم)

واسترد وقتئذ البيزنطيون قواعد النزول العربية فى بارى فى سنة ٨٧١ ، وفى تورنتو فى سنة ٨٨٠ . ولـكن بدئت من جديد غارات النهب السريعة تجاه الحملة الرومانية ، ووادى الأنيس ، وجبل كاسين . وأمام هذه التهديدات المتجددة ، تحالفت قوى إيطاليا ، وغلب العرب على أمرهم عند نهر جاريجليانو فى سنة ٩١٦ .

وربما وجدت أيضاً فى ذلك المكان معركة من هذه المعارك الحاسمة ، عند مايتعرض التاريخ لذكرى عدد معين منهـا . فـكانت روما والبندقية أهدافاً جديرة بالاختيار . وكانت هناك غارات سريعة جريئة تراجـع العرب أمامها إلى ماتحت أسوارها . ومع هذه المرانة التى كانت خاصة بهم فى ركوب الخيل عبر العالم لم تـكن المسافة كبيرة من البندقية إلى بيزنطة ، ومع ذلك كانت هذه المدينة الأخـيرة تجتذب دائماً « المؤمنين » الذين بقوا فى آسيا . ولو كان العالم الإسلامى فى الغرب والعالم الإسلامى فى الشرق قد تبادلا سلامهما لدى الـكنيسة البيزنطية سانت صوفيا فى القسطنطينية ، لـكان العـالم المسيحى قد قضى عليه . وعند ماتسلل الأتراك إلى هذه الـكنيسة فيما بعد بستمائة عام ، كانت المسيحية قادرة على أن تسد عليهم الطريق .

الباب الثالث

تأثير الحضارة العربية فى الحضارة الغربية

(١٤)

الآداب والفنون

الحياة الثقافية فى أسبانيا الاسلامية :

قدمنا فى فصل سابق ، نظرة جامعة عن الحياة الثقافية عبر جميع بلاد العالم الإسلامى . وفيما يختص بالإسهام الأدبى والفنى الذى كان من واجب العالم الإسلامى أن يؤديه إلى الحضارة الغربية ، كانت أسبانيا الإسلامية تستحق مكاناً مرموقاً فى هذا الميدان .

كانت أسبانيا الإسلامية تكتب بحروف من الذهب على باب جامعاتها : « يستند العالم إلى أربعة أركان : علم الحكماء ، عدل العظماء ، دعاء الصلحاء ، شجاعة الشجعان » .

لم يكن بطريق المصادفة أن تحتل المعرفة فى هذا البلد المرتبة الأولى . ذلك أنه بالعلم تأصلت حقاً الحضارة الاسلامية فى أسبانيا واستمرت بطريقة دائمة لم تأذن لذكراها أن تمحى بعد .

كانت لبسالة العرب العسكرية نتائجها المذهلة ، لكنها لم تستمر طويلا . وسرعان ما ملك المغلوبون جأشهم ، وظل الدين الاسلامى على الرغم من جاذبيته التى لاريب فيها دون أثر على الفكر فى الغرب ، ولم يكن لشريعة القرآن كثير من الانعكاسات فى الحياة الاجتماعية للعصر الوسيط الأوربى ، وعلى العكس من ذلك نفذ العلم الاسلامى والصناعة الاسلامية بعمق إلى الثقافة الغربية .

وعندما نتصدى لهذا الفصل المهم ، يجدر بنا أن نعود إلى الأدب لكى نتتبع انتشاره فى أسبانيا الاسلامية .

وكان الولع بالشعر قوياً فى الأندلس ، فكان الملوك أنفسهم يقرضون الشعر ، وكان الجميع يستمتعون بجرس الألفاظ ، وكانت قرطبة قد توهج فيها لهيب الشعر ، واشتد إشراقه أيضاً فى أشبيلية ، وطال بقاؤه فى غرناطة ومن خلال القصائد ، وأغانى الحب ، نستشف رومانتيكية تكشف سلفا عن فروسية العصر الوسيط ، ويتكشف الشعر الغنائى العربى عن عامل من أهم العوامل فى تمثل المسيحيين الأسبانيين لدرجه أننا نجده دائماً فى الشعر الشعبى الأشبيلى وفى التراتيل المسيحية .

وإذا كان الحب الأفلاطونى والعاطفى منذ القرن الثامن موضوعاً أدبياً محدداً فى الشعر العربى ، فمن المهم أن نعد هذا الموضوع قد انتشر فى جنوب فرنسا فى نهاية القرن الحادى عشر برحابة ووفرة لا نظير لهما . كما أن الشعراء المتجولين قلدوا بطريقة واضحة منشدى الزجل . والحق أن الاحترام الفائق للمرأة إذ كان الفرسان يخيونها بالرمح ، عندما كانوا يذهبون إلى القتال ، والتى من أجلها كانوا يتحملون كل أنواع المحن ، لم يكن هذا الاحترام إلا تذكيراً بالشعر الأسبانى — الاسلامى .

وملحمة رولان La Chanson de Roland التى ظهرت فى سنة ١٠٨٠ ، والتى تشكل أثراً أدبياً بدائياً غربياً مدينة بوجودها إلى الاحتكاكات الحربية التى حدثت من جهة جبال الأندلس وعبره .

وبوساطة أسبانيا الاسلامية أيضاً خضع بوكاشيو(١) وشوسر(٢) وكثير من المؤلفين القصصيين الألمان للتأثير العربى . وهى التى أوحت بأعظم أشعار تينيسون Tennyson

---

(١) شاعر إيطالى معاصر لدانتى وصديق له (١٣١٣ — ١٣٧٥) ، له كثير من القصائد . المترجم

(٢) شاعر انجليزى (١٣٤٠ — ١٤٠٠) ، مؤلف قصص كانتربرى ، وحاكى الفن الكلاسيكى والايطالى ، ويعد أحد مؤسسى الأدب الشعرى فى انجلترا .
(المترجم)

وبراونيج Brawing جمالا ؛ و « الكوميديا الالهية » لدانتى مدينة كثيراً إلى الفيلسوف المتصوف ابن العربى فى القرن الثالث عشر . وهذا الشعر الخالد من جهة أخرى ملىء بالأوصاف العربية فى النصوص التى تحكى الرحلة عبر ملكوت السماء والجحيم .

أما من جهة القصة الأسبانية الخاصة بوصف الدساسين والسفلة من الناس ، والتى أثرت تأثيراً يمكن أن نلاحظه عن طريق الصور التقليدية فى مؤلف لوساج Le Sage فإنها تتشابه بكل دقة مع الوثيقة العظمى المكتوبة فى نثر عربى مسجوع ، والمخصصة للشر دروس أخلاقية من خلال مغامرات بطل . وبفضل تأثير الصورة الشرقية ، استطاع الخيال الأوربى أن يحرر نفسه من القيود الضيقة والصارمة التى كانت تقيده ، وهذا فى مجموعه تم بفضل المساهمة الهامة من جانب الشعر العربى . وصورة دون كيخوته Don Quichotte الرومانسية هى من جوهر عربى . وكان قد أسر سرفنتس Crvantés[1] مؤلف هذه القصه فى مدينة الجزائر ، وكان يقول أحياناً إن كتابه قد كتب أولا بلغة عربية ، وكانت القصة الفلسفية « حى بن يقظان » لابن طفيل قد أوحت إلى دانيل دفو Dainel Defoe بكتابة قصة روبنسن كروزو .

كان الكاتب الكبير على ابن حزم (٩٩٤ — ١٠٦٤) ، الذى ينسب إليه أربعمائة مؤلف من مختلف العلوم مؤرخاً متبحراً . وكتابه عن الملل والنحل إحدى المحاولات الأولى فى الدين المقارن ويبين فى هذا الكتاب ما فى قصص التوراة من متناقضات لم تعرف فى أوروبا إلا فيما بعد بخمسمائة سنة تقريباً . وقد لا يكون من لغو الكلام أن نعيد هنا ما كان يكتبه عن المسيحيين :

« فى وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابهين ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وأن هؤلاء الثلاثة الأب والثانى الابن . وأن الانسان إله وليس إلهاً . وأن المسيح قديم موجود من الأزل ومع ذلك فهو مخلوق » .

---

(١) ولد الكاتب الأسبانى ميجل دى سرفنتس سافيدرا مؤلف الراوية المشهورة « السيد المبقرى دون كيخوته دى لامنشا » فى قلعة هنارس — على أرجح الأقوال — من ولاية قشتالة بأسبانيا فى عام ١٥٤٧ . (المترجم)

وينبغى أن ننوه هنا بابن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦ ، والذى يمكن المرء أن ينظر إليه على أنه أكبر مؤرخ فى الاسلام وأحد العظماء فى جميع العصور . فقد عرض ابن خلدون للمرة الأولى فى مقدمته لدراسة التاريخ نظرية الواقع التاريخى الذى يأخذ فى اعتباره المعلومات الطبيعية فى الجغرافيا وفى المناخ كما يأخذ فى الاعتبار القوى الأخلاقية والروحية . وهو أول من بحث ، وصاغ القوانين التى يخضع لها تطور الشعوب وعظمتها وسقوطها ، وأبان المعنى الحقيقى للتاريخ ، وبدون شك لم يكن لدينا من هذا المعنى الحقيقى للتاريخ مفهوم واضح كل الوضوح . وقد أوضح المستشرقون الأوربيون فى القرن التاسع عشر نظرياته المبتكرة عن تطور المجتمعات .

الفن الإسلامى :

فى بداية التاريخ الهجرى ، لم يكن العرب يمارسون بعد أى نشاط فكرى أو فنى . وقد أعيد هذا القول عدة مرات . ومع هذا فما زلنا بحاجة إلى تأكيد هذه الحقيقة . لقد كان من الصعب على رجال مكرهين على حياة بدائية ، وشاقة ، ومهلكة أيضاً أن يدركوا ماذا يمكن أن يكون الفن .

وعند وصول محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، كان قد رسم على الأرض مربعاً من مائة ذراع ، ثم سوره بسياج صغير مصنوع من لبن (طوب) من الصلصال ، وبنى على أحد الجوانب بعض أكواخ صغيرة غطاها بسقف من الجريد المتشابك ، وفى ركن من الفناء كان يجلس النبى صلى الله عليه وسلم على حصير ليستقبل أصحابه فى ساعة الصلاة .

وكان هذا أول مسجد فى الاسلام . .

فأى تضاد بين هذه الثلاثة أو الأربعة الجذوع من شجر النخيل التى تسند السقف المتواضع من الطين المجفف فى المدينة وبين الآلاف من أعمدة الرخام المميزة بنمط الحضارات القديمة التى راحت تسند — بعد مائة عام — قباب مساجد العالم الاسلامى المرصعة باللازوردى والذهب .

ياله من طريق قدر عليهم أن يسلكوه كيما يفيدوا مما كانت تملكه تلك

الحضارات من خير ، وكيما يبشروا بها عبر العالم فى نفس الوقت الذى يبشرون فيه بكلام الله .

وعند ما بدأ الخليفة عمر فى السنة السادسة عشرة من الهجرة ، الرحيل ليخطى بقدم بيت المقدس ، كان كل ما يملكه من متاع : قصعة صغيرة من الخشب ، وقرعة من المياه الصافية ، وسلة من البلح ، وقميصاً وعباءة متواضعة كان يرقعها بنفسه ، وكان يقذف وهو غاضب الحكام القادمين لملاقاته بحفنة من الحصى فى وجوههم بسبب أناقة ملبسهم وأثوابهم المضحكة .

ولكن ، لكى يغزو العرب العالم ، كان واجباً عليهم أولا أن يرتفعوا إلى عظمة عمر .

كان لزاماً على قرن واحد أن يسد حاجة الحضارة العربية لكى يسترجع الوقت الضائع . فكان هؤلاء البداثيون ، وهؤلاء البدو المتعودون الحياة المتقشفة على غير معرفة بالفن أو الثقافة الفكرية بمقدار ماهم عليه من جهل بأناقة الملبس ، لكنهم كانوا يملكون إلى أقصى حد ميلا طبيعياً خارقاً للعادة إلى المعرفة وقدرة فائقة على التمثل . ومضى كل شىء وكأن استعدادات خامدة ، وأذهاناً ساكنة أخذت تنشط فيهم .

الحق أنهم كانوا ورثة جيرانهم الأغنياء بحضارات فارسية وهندية وصينية ويونانية فلم ينتظر تقدمهم الفكرى سوى الظروف الملائمة لكى يتجلى .

أجل ، كانت المعارف المتجمعة فى غضون الفتح العربى فى الميدان الفنى ضخمة من قبل ، ومع ذلك فلا شىء يجارى احتكاكهم باليد العاملة الأجنبية الصناع فى تمام تملكها لمهارتها الهندسية أو بمعرفتهم ببعض الطرق الفنية الموروثة عن الماضى وبعبقريتها الأصيلة .

ولم يكن ممكناً أن يكون نتيجة هذا الاتصال تقليداً أعمى لمفاهيم فنية لشعوب مغلوبة على أمرها . وفى أقل من قرن ، خلق العرب فى الحجر فناً أصيلا وعميزاً مميزاً

عن الاتجاهات الجمالية التى تنبثق عن حالتهم النفسية الجديدة . وكان هذا تأليفة مشرقة لكل ما كان قد منحوه بالملاحظة والإعجاب والحب والإيمان .

ويمكن أن نرى فى القاهرة ، مسجداً شيد سنة ٨٧٨ ، وهو جامع ابن طولون ، أقدم جامع بعد جامع عمرو الذى شيد سنة ٦٤٢ ، وقد حافظ هذا الجامع على أروقته القوطية من بنائه الأصلى . ولم تستندهذه الأروقة إلى أعمدة شأن أكثر الجوامع ، بل إلى قوائم ضخمة . واستطاع بدون شك هذان العنصران المميزان من النمط القوطى أن يوحيا بإقامة كاتدرائيات العصر الوسيط دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن ينهج هذا النهج المطروق لدى العرب . وربما وصلت هذه النماذج حتى أوروبا عن طريق صقلية والنورمانديين . وربما نشأت كذلك فواصل النوافذ القوطية من رءوس أقواس برج لاجيرالدا giralda فى أشبيلية . وظهرت القبة ذات العروق البارزة المزخرفة فى العالم الإسلامى قبل أن تظهر فى أوروبا . وزين الجامع الأزهر فى القاهرة ــ الذى بنى بعد جامع ابن طولون بمائة عام ، لكنه سابق مع ذلك كاتدرائياتنا القوطية ــ وعقود قوطية بقرنين . ويبدو أن جامع ابن طولون قد ألهم الأساتذة المعماريين الذين صوروا كاتدرائية شارتر Chartres وصنعوا لها نوافذ من الزجاج الملون وأسوارا من الحجر ذات نقوش من الورد أو مرصعة بالكواكب والنجوم .

وفى طليطلة جامع قديم أصبح كنيسة « مسيح النور » تنافس فى جمالها ــ على الرغم من أبعادها المصغرة ــ الجامع الكبير فى قرطبة . ويمكن بالنسبة لأحد أجزاء حوائطها ــ ملاحظة التطورات الأولية للفن الأسبانى العربى الذى ينتسب إلى نمط صور الكنيسة المنتشر فى جميع أشبيلية . وبالبحث عن تأثير الفن الإسلامى تجاه الغرب ، يمكن أن نلاحظ أن أبراج الأجراس والقباب تمثل فى الغالب المفهوم الأولى للمئذنة الشرقية .

ويجب أيضاً أن نذكر أن القصور والجوامع فى الشرق صورت على أنها قلاع ، وأن الصليبيين استطاعوا أن يرثوا بعض المعارف فى الفن المعمارى العسكرى الذى كانوا يجهلونه . ونحن مدينون بلاجدال ، للعرب بذلك ، وبالسور ذى الفتحات المستديرة مع حوائطه الثخينة العالية والمحصنة بأبراج صغيرة والتى كانت المدافع توضع فيها بعنجاة

من مرمى السهام . وتشمل هذه الطريقة مبدأ استغل بطريقة منظمة فى بناء حصون غير قابلة للتدمير . . هذه الحصون كشفت أيضاً — فى سوريا — الطريق الذى كانت تتبعه جيوش العالم المسيحى . وقد أسس فيليب الجسور أسوار ميناء اج — مورت Aigues Mortes على نمط حصون دمياط .

وفوق الفن المعمارى ، ينتسب فن الأوانى الفخارية فى ايطاليا وفرنسا إلى ذهاب صناع الفخار المسلمين فى القرن الثانى عشر إلى أوروبا ، وإلى رحلات صناع الفخار الأوروبيين فى أسبانيا الإسلامية . وتعلم صناع الزجاج فى البندقية ، وصناع المعادن الدقيقة . والمجلدون الإيطاليون ، وصناع الأسلحة الأسبانيون فنهم بالاتصال بالصناع المسلمين . كما سعى صناع النسيج فى جميع أنحاء أوروبا فى البحث عن نماذج ونقوش لأنسجتهم فى العالم الإسلامى .

(١٥)

العــــلوم الرياضية

إذا كان الفن غير موجود عند العرب ، فقد كان مايملكونه من المعارف العلمية قليلاً . وقد كانت رغبتهم في المعرفة لا تقل عن رغبتهم الجامحة في الثروة ، ومن ثم احتفظ العرب بالمدارس السورية والفارسية التي كان يدرس فيها منذ عهد الاسكندر، العلم والفلسفة اليونانيان ، ولما كان المسيحيون السوريون لديهم إلمام بعيد الغور باللغة اليونانية ، وكان اليهود السوريون يتحدثون اللغة العربية ، فإن كثيراً من المؤلفات نقلت من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية ، وإلى اللغة العربية . وكان التراث أولا يونانياً بخاصة ، لكن التأثيرات الهندية سرعان ما انتشرت عن طريق فارس التي كانت تترجم فيها مخطوطات السنسكريتية إلى اللغة الفارسية . وقد شجع الخلفاء هذه الاقتباسات ، كما أن كل شيء اتجه إلى اللغة العربية الصالحة كل الصلاح للانتفاع بكل تراث من السريانية ؛ ومن اليونانية ، ومن الفارسية ، ومن السنسكريتية .

الترجمات :

كان أحد أباطرة بيزنطة — يعجب من رؤية بدوى منتصر غير متحضر يضع ضمن الشروط المفروضة حقه في شراء المخطوطات اليونانية ، وهذا البدوى غير المتحضر الذى كان يتطلع إلى المعرفة. كان حاكماً عربياً ، وهكذا حصل الخلفاء بهذه الطريقة وبطرق أخرى ، على الكتب اليونانية التي كانت تتناول المعرفة ، والرياضيات ، والطب . ولم يقصروا أنفسهم على المؤلفات اليونانية : ففي سنة ٧٧٣ ، كان المنصور يقدم للترجمة مباحثات فلكية هندية ألفت سنة ٤٢٥ قبل الميلاد .

وفي سنة ٨٣٠ ، وهذا التاريخ يستحق أن يحفظ ، بدأ العرب يمارسون الترجمة الضخمة للكتب اليونانية . وحتى ذلك الوقت ، كانت الترجمات تتم بجهود فردية كيفما تيسر . وجمع المأمون المخطوطات للترجمة ، وشكل مجموعة من المترجمين في « بيت الحكمة » ووضعها تحت قيادة حنين بن اسحق وهو طبيب مسيحي ، وعالم متبحر في

العلوم . وقد ترجم حنين بن اسحق هنا مائة كتاب تقريباً لجالينوس ولمدرسته إلى اللغة السريانية وتسعة وثلاثين مخطوطاً آخر إلى اللغة العربية ، منها مؤلفات لابقراط ودسقوريدوس وأفلاطون ، كذلك المقولات ، والطبيعة ، وكتاب الأخلاق لأرسطو ، وكانت هذه المخطوطات نقطة الانطلاق لكشوف فكرية .

وبفضل هذه الترجمات ، أمكن مخطوطات كانت قد فقدت ، أن تحفظ في ترجمتها العربية : وفي هذه الحال يعدل النقل التأليف ، وعلى هذا المنوال ترجمت الكتب السبعة « للتشريح » لجالينوس وكتابا « القطاعات المخروطية » لابولونيوس ، و« الحيل » لأهرن و « علم الأهوية » لفيلون ؛ وقد شاءت المصادفة أن يكون العلم اليوناني مازال مشرقاً في سوريا عند وصول العرب . ومن ثم ، شرح المترجمون شرحاً وافياً (بالنسبة للعرب) النقط الغامضة في النصوص اليونانية . ولما كان المترجمون علماء مجربين ، ومزودين بوثائق غاية في القوة فقد أسهموا في إضافة معرفتهم الخاصة وعلمهم الشامل إلى مؤلفاتهم . وقد بلغوا من نجاحهم ما جعل المنصور يعرض الأموال العامة إلى الخطر بدفع ثمن المؤلفات الجديدة لهؤلاء العلماء بما يساوى وزنها ذهباً . لكن العمل أخذ يجرى بسرعة منذ منتصف القرن التاسع ، واستطاع علماء العرب أن يقفوا بلغتهم الأصلية على بعض المؤلفات العظيمة لفلاسفة يونانيين من مدرسة الافلاطونية الحديثة وكذلك بالنسبة للمؤلفات العلمية والهندية والفارسية والسريانية .

الكيمياء :

هل هو واقع الظروف أو واقع ذكاء العرب الفطرى أن يشغفوا بما يثير الإعجاب . فقد أمر خالد بن يزيد بترجمة الكتب القديمة في الكيمياء إلى اللغة العربية . وهذه كانت الترجمات الأولى ، وقد مضى عليها الآن ألف ومائتا سنة . وأنشأ خالد مدرسة أقامها في مصر على الأرض التي اختيرت لدراسة الكيمياء ، لكن هذا العلم على الرغم من غموضه ، انتشر بسرعة في الشرق كله . وكان الكيميائيون يتكاثرون بسرعة عليه ، ويقول عبد اللطيف البغدادى أن كثيراً من بينهم كانوا يعرفون « ثلثمائة حال للتمويه » وكان منهم مع ذلك علماء حقيقيون . ورأت مدرسة يزيد ثمرة نجاحها في جابر بن حيان الذى ولد في القرن الثامن والذى ظل حتى أيامنا هذه أسمى دلالة على الكيمياء .

وقدم برتلو Berthelot في تاريخه للكيمياء في العصر الوسيط ترجمة فرنسية لإحدى رسائل جابر ، ويشير إلى أنه إذا كان حجر الفلاسفة ، وإكسير الحياة الهدف الرئيسي لبحوثهم . فإن الكيميائيين حققوا كشوفاً صادقة وعملية . (ومن المتفق عليه أنه يجب علينا هنا ألا نخلط علم الكيمياء بالسيمياء) وتقوم طريقتهم المثلى في العلم من جميع طرق ذلك العصر على ملاحظات دقيقة ، محققة ، لكن الذي يجدر بنا أن نلاحظه هو أن الكيميائيين راحوا يمارسون عملياً ما لم يختبر قطعاً من قبلهم ، وأوجدوا بطريقة صناعية ظاهرة الملاحظة : أعني التجربة ، فقد اخترعوا آلة التقطير ، وباشروا تحليل عدد كبير من المواد ، وانتهوا إلى تمييز وتعريف القلويات والأحماض وكذلك علاقاتها ، وأعدوا بضع مئات من العقاقير . ويلاحظ في كتاب عربي قديم لم يترجم طريقة صنع الزجاج بطريقة صناعية ؛ وقد كشفت من جديد أوروبا لحسابها هذا السر أثناء القرن السادس عشر .

ويعد اسم جابر الساحر بالنسبة لعلم الكيمياء شبيهاً باسم إبقراط وبالنسبة لعلم الطب . ونذكر من بين مؤلفاته الكثيرة الأكثر تواتراً « كتاب الرحمة » و « كتاب الوصية » و « كتاب تحصيل الكمال » الذي ترجم إلى الفرنسية . ووصف الحامض الأزوتي ، والماء الذي يحلل به الذهب والبطاطس ، وملح النشادر ، ونترات الفضة ، والسليماني ، وأخيراً العمليات الكيميائية الأساسية كالتقطير ، والتصعيد والتبلور . وكان يحصل على الحامض الكبريتي بتقطير سلفات الحديد ، والكحول بتقطير مواد نشوية أو سكرية مخمرة ، وعلى الجملة حول جابر نظريات أرسطو في تركيب المعادن ، إلى مفهوم بقي دون تجديدات هامة حتى بداية الكيمياء الحديثة في القرن الثامن عشر ، وحققت بقوة كثير من المؤلفات المنسوبة إلى جابر التي لا تحمل توقيعه ، والمترجمة إلى اللاتينية تقدم الكيمياء في أوروبا ، لكن بعد أن كان قد استخلصها المسلمون من كل مادة .

---

(١) كيميائي فرنسي ورجل سياسة (١٨٢٨ — ١٩٠٧) ، مؤلف كتاب عن تاريخ تركيب الأجسام العضوية والكيمياء الحرارية ، كان عضواً في مجمع العلوم الفرنسية . (المترجم)

الرياضيات :

لقد أمكن الأعداد التي يقال عنها إنها « عربية » أن تنقل من الهند إلى العالم الإسلامي عن طريق المباحث الفلكية الهندية التي ترجمت تبعاً لأمر المنصور . وكان الخوارزمي وهو أحد كبار الرياضيين في العصر الوسيط يستخدم أعداد الهند في التقويمات الفلكية . ونشر الخوارزمي في سنة ٨٢٥ رسالة تعرف في اللاتينية باسم Algoritmi de numeoro Indorum « أى الخوارزمى عن أرقام الهنود » . ومن أجل هـذا استخدمت كلمة الخوارزمية لتعنى كل طريقة مؤسسة على العلامة العشرية .

وفى سنة ٩٧٦ ، كان محمد بن أحمد (الخوارزمى) فى كتابه « مفاتيح العلوم » يفترض استخدام دائرة صغيرة لكى « تحافظ على مرتبة الأعداد » إذ لم يظهر أى عدد فى خانة العشرات . وهـذه الدائرة التى نشأ منها الصفر Zéro لا تمثل إلا الترجمة اللاتينية للكلمة العربية « الصفر » التى تعنى « فراغ » . بيد أنه لا اليونانيون على الرغم من ثقافتهم ، ولا الرومانيون على الرغم من طريقتهم الفنية استطاعوا أن يكشفوا أيضاً طريقة للعد . وكان الأقدمون يعدون على أصابعهم ، وعلى ذلك ظلت ممارسة الحساب صعبة فى الغرب حتى بعد اختراع محمد بن أحمد للصفر بمائتين وخمسين سنة .

واليوم ، لانصل إلى تعليل البطء الغريب الذى أحدثه الأوربيون فى استخدام الأعداد العربية ، إذ لم يكن بسبب جهل عام . وكان أول من انتفع بالأعداد العربية إيطالى قدم من أفريقية الشمالية فى سنة ١٢٠٢ وكان الاختراع مع ذلك عبقرياً ، ويستطيع المرء أن يقول دون سخرية إن الصفر كان يعد من بين أهم فتوح الجنس البشرى .

وكلمة الجبر تأتى من العربية الـ — جبر (رد الشىء إلى حالته الأولى) ويعنى أنه يمكن المرء أن يضيف مقداراً ذاتياً إلى طرفى معادلة . ويظل أعظم رياضى فى ميدان الجبر أيضاً « محمد بن موسى » ، وهو الخوارزمى صاحب أعداد الهند وكان هو الذى أعطى فى كتابه « حساب الجبر والمقابلة » حلولا تحليلية وهندسية لمعادلات من

الدرجة الثانية . وهذا المؤلف الذى ترجمه جيرار الكريمونى فى القرن الثانى عشر ، انتفع به على أنه نص هام فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر . وعلم الجبر لعمر الخيام الذى ترجم إلى الفرنسية فى سنة ١٨٥٧ تميز عن كتاب الخوارزمى ومؤلفات اليونانيين . ونشر الخيام وهو يتابع دراساته فى مؤلف آخر فى الجبر انتقاداته الخاصة المتعلقة بمصادرات أقليدس وتعريفاته . ونعد الحل الجزئى للمعادلات التكعيبية التى يقترحها أنها أعلى ذروة فى رياضيات العصر الوسيط . بيد أن عمر الخيام عرف فى أوروبا بخاصة « برباعياته » .

وكان عبد الله البيرونى (٩٢٩) الذى أنشأ بحق حساب المثلثات الحديث ، قد أحل محل التحليلات المربعة الزوايا لبطليموس — التحليلات المثلثة الزوايا . والجيب محل وتر أبرخس وأدخل خطوط التماس ، وأسس النسب الحسابية المثلثة الهامة فى الشكل الذى نستخدمها فيه اليوم . وإذا كانت الجيوب والجتا والقتا المتماسة ، والقتا وذو الحدين ، وحساب المثلثات الكروى لا تتجاوب بقدر كاف مع الذهن ، أمكن أن نثق فى مؤرخى العلوم الذين يثبتون أن « العرب هم الذين كانوا أساتذة الرياضيات فى عصر حضارتنا ، لا اليونانيين » .

وقد تم أهم تقدم فى الرياضيات في بلاد مراكش وفى أذربيجان فقد وضع حسن المراكشى (من مراكش) الجداول الأولى للجيوب ولأقواس الجيوب ، وللأقواس المتماسة منذ عام ١٢٢٩ . وبعد ذلك بقليل أثيرت دراسة حساب المثلثات إلى أبعد مدى على يد نصير الدين الطوسى الذى ظهر فى كتابه « شكل القطاع » على أنه رائد علم حساب المثلثات الصينى .

الفلك :

كان علم الفلك قد ظهر على شواطىء نهرى دجلة والفرات قبل قدوم العرب بأكثر من أربعة آلاف سنة . وقد كشفت مقتطفات من بحث فلكى مورخ بـ ٣٨٠٠ قبل الميلاد . وقد رسمت الظواهر السماوية وأقسام الشمس الكبيرة للكلدانيين على صفائح من الصلصال . وكان علماؤهم فى التنجيم « يحاولون أن يتنبأوا بحالات كسوف القمر ، وكان النجاح يحالفهم أحياناً فى هذه المحاولة » وكانوا يعتقدون فى تأثير الكواكب

على مصير الإنسان ، واتجهت دراسة هذه التأثيرات الكوكبية إلى تحديد دقيق لشكل العالم السماوى . ومن ثم ، استطاع علم التنجيم أن يصبح أم علم الفلك .

وقد درس الموضوع دراسة بشيء يستحق الاعتبار على يد بيجوردان[١] Bigourdan الذى كتب يقول : « يمكن أن نقر بوجوب دراسات ترجع إلى ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد ، بل إلى ما هو أبعد أيضاً » . وكان كيدينا Kidina الذى نوه عنه سترابون وبلينى « الشيخ » يستخدم — لكى يتنبأ بحالات كسوف القمر — طريقة حسابية لا « تختلف اختلافاً هاماً عن طريقتنا » واختتم « بيجوردان » كلامه بتأثر بعض الشيء : « فى هذا التعاقب الطويل من البشر والأفكار : نلمح فى الذروة القيمين المثابرين والحساب الذين لايكلون عن العمل فى مراصد بابل ، وبورسيبا Borsippa ، وارك Ereck وسيبارا Sippara ونينوى Ninive ونيبور Nippur .

لم يكن إذن مرصد بغداد الذى أنشأه الخليفة المأمون على أرض كلديا القديمة إلا الوريث الوحيد لمرصد بابل ، لكنه كان منشأة علمية وهب له مال وفير ، وهيىء له مجموعة من علماء الطبيعيات ألفوا بالفطرة البحث الفلكى . وتشكل دراساتهم التى لا حصر لها سلسلة مستمرة طيلة قرنين . وقد كتب سيديو[٢] فى موضوعهم : « إن مما تتصف به مدرسة بغداد منذ البداية ، تفكيرها العلمى : وهو الانتقال من المعلوم إلى المجهول ، والتحقيق الدقيق للظواهر السماوية ؛ وعدم قبول أى حدث على أنه حدث صحيح يبرهن به ما دام أن هذا الحدث لم تؤيد حقيقته عن طريق الملاحظة » .

كان لعلماء الفلك المسلمين فى عصر حضارتنا نفس تأثير علماء الرياضة . وكتب الفرغانى[٣] حوالى عام ٨٦٠ نصاً فلكياً أثر تأثيراً كبيراً فى أوروبا طيلة سبعمائة عام .

---

(١) عالم فلكى فرنسى ، ولد فى سيسيتل ، ومات فى باريس (١٨٥١ — ١٩٣٢) ، تناولت أعماله فى هذا الميدان طرائق قياس موقع الكواكب . (المترجم)

(٢) مستشرق فرنسى (١٧٧٧ — ١٨١٣) ، انقطع لدراسة الشرق ، مؤلف كتاب « تاريخ العرب » . (المترجم)

(٣) من أهل فرغانة وهى ولاية وراء نهر جيحون . (المترجم)

وكشف البتانى الذى أدرجه لالاند فى جملة عشرين عالما فلكيا مشهورين فى عام ١٩٢٠ رجوع نقطتى الاعتدال ، وميل مستوى الفلك بتقريب ملحوظ بالقياس إلى التقديرات الحديثة . وفى القاهرة أتم على بن يونس « الأزياج الحاكمية » وأعاد عمل التقديرات بكثير من الدقة أيضا .

وكشف أبو الوفا الانحراف الثالث للقمر قبل تيخو براهى[1] Tycho Brahe بستمائة عام .

والاسطرولاب الذى كان الموضوع الرئيسى فى بحث ابراهيم الزرقالى ، تصوره العرب وأنشئوه ، ووصل إلى أوروبا فى القرن العاشر واستخدمه الملاحون حتى القرن السابع عشر ، وابراهيم هذا هو نفسه ابراهيم الزرقالى الطليطلى الذى برهن فى القرن الحادى عشر للمرة الأولى على انتقال البعد الأقصى للشمس بالقياس إلى النجوم . وظلت « الجداول الطليطلية » المتعلقة بحركات الكواكب السيارة لمدة طويلة قاعدة علم الفلك فى أوربا . وقد فتح البطروجى الطريق أمام كوبرنيق[2] ، وكان ينقض النظرية المشهورة عن دوائر الأفلاك وتماس هذه الدوائر التى فسر بها بطليموس مسار النجوم وحركاتها . وكان لزاما على عمر الخيام الشاعر الرياضى الكبير ألا يبقى متخلفا، وقد عهد إليه مع علماء آخرين بإصلاح التقويم الفارسى . وأدت هذه الأعمال العجيبة الدقيقة إلى توضيح خطأ يوم واحد كل ٣٧٧٠ سنة على حين أن التقويم الجريجورى يتطلب تصحيح يوم كل ٣٣٦٠ عاما . ومع ذلك لم يعتمد هذا التقويم ، وفضل عليه التقويم الإسلامى .

« ويقول بيجوردان يمكن أن توضح خلاصة النتائج التى حصل عليها الفلكيون

---

(١) فلكى دنمركى (١٥٦٤ — ١٦٠١) ، وضع نظاما فلكيا يختلف عن نظام بطليموس وكوبرنيق ، كان أستاذ كبلر . (المترجم)

(٢) عالم فلكى بولونى (١٤٧٣ — ١٥٤٣) اهتدى إلى حركة الكواكب المزدوجة حول نفسها وحول الشمس . حاكمته الكنيسة بسبب قوله بدوران الأرض حول الشمس . (المترجم)

العرب بالطريقة التالية . فبالنسبة إلى المجموعة الشمسية أتاح علم الفلك العربي تحديداً أكثر دقة لاختلاف مدار الفلك طول السنة ، وكشف البعد الأقصى لمدار الفلك والانخفاض المطرد لمداره . وفيما يختص بالقمر ، أدت تجربتهم ، وحسابهم إلى كشف تقلب أكبر خطوط العرض ، أعنى انحناء المدار ، وربما كان لدى العرب معرفة بنسبة التباين الثالث الذى سمى وقت ذاك تحولا .

ويمكن أن نضيف إلى هذه النتائج الأصلية التحديد الجديد لمواضع بعض النجوم وتقديراً أدق للمعانها ، بالموازنة بينها وبين التقديرات التى اتخذت على يد بطليموس وفى الوقت نفسه لمعرفة أصح لرجوع نقطتى الاعتدال . ويروى بيجوردان زيادة على ذلك الجهود العربية فى وضع الجداول الفلكية ، وتحديد الساعة ، والاستفادة من تحديد ارتفاع الكواكب فى تحديد وقت أية ظاهرة .

وجدير بنا أن نثبت الخلاصة الشاملة التى اختتم سيديو بها كلامه فى الفلك « فى نهاية القرن العاشر ، بلغت مدرسة بغداد ذروة المعارف التى كان من الممكن أن تحصل عليها دون الاستعانة بالعدسات والمناظير المكبرة » .

الجغرافيا :

طبق المسلمون معارفهم الرياضية على الجغرافيا كما طبقوها فى الفلك . وعندما اقتنعوا بأن الأرض مستديرة ، قاسوا درجة من دائرة نصف النهار بأن رصدوا موضع الشمس فى تدمر وسنجار فى السهل الشمالى من نهر الفرات . ووفقاً لتقديراتهم بلغ طولها ستة وخمسين ميلا عربيا وثلثى ميل ، أى بزيادة ثمانمائة وستة وستين متراً على أكثر تقدير ، وهى نتيجة تستحق النظر .

ويجب ألا ننسى أن العرب كانوا قد ترجموا مؤلفات بطليموس ، وأصلحوا كثيراً من أخطائه ولم يكن بطليموس الأستاذ الحقيقى فى جغرافية أوربا ، لكنه الإدريسى الذى ولد فى سنة ١١٠٠ ، وتخرج فى قرطبة والذى كان يعيش فى بالرمو فى بلاط روجار الصقلى فى منتصف القرن الثانى عشر . ومصورات الإدريسى التى تعترف بكروية الأرض كانت تتويجا لعلم المصورات الجغرافية فى العصر الوسيط بوفرتها

وصحتها واتساعها . وفى الـكتاب الذى ألفه باسم روجير ، ويسمى كتاب روجار ، أو الـكتاب الرجاوى والمعروف بكتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » قسم العالم الجغرافى اعتمادا على موازنة بين الأرض والـكرة سبعين جزءاً رسم لـكل جزء مصورا وصف به جميع النواحى الخاصة .

فى هـذا الموجز السريع ، يجدر بنا أن نقر أنه بمقاييس الطرق لا بمقاييس الفلك كشف العرب عن الأخطاء الجسيمة لبطليموس فى البحر المتوسط . لأن مقاييس المسلمين لخط العرض صحيحة فيما عدا بضع دقائق ، ومقاييس بطليموس تتـكشف عن خطأ يبلغ عدة درجات .

لقد قام العرب ، وهم محنكون فى علم الجغرافية بأسفار كثيرة . ففى سنة ٨٥١ نشر مؤلف عربى غير معروف قصة رحـلة فى الصين قبل رحـلة ماركوبولو [١] بأربعمائة وخمسة وعشرين عاما . وفى القرن التاسع ، قدم ابن خرداذبة بدوره وصفا غزيرا عن الهنـد وسيلان والولايات الشرقية الهندية والصين . وفى سنة ٨٩٥ ، نشر أخـيراً المقدسى كتابه فى وصف الأمبراطورية الإسلامية المسمى «أحسن التقاسيم » والذى عد أعظم كتاب فى الجغرافيا العربية قبل كتاب البيرونى عن « الهند » .

وينفرد اسم من بين هؤلاء الـكاشفين العرب الـكبار ، هو أبو عبد الله ياقوت الحموى صاحب « معجم البلدان » [٢] (١١٧٩ — ١٢٢٩) وهو عبد يونانى أعتق ، وتجول فى أنحاء العالم العربى ، وشرع يعلم نفسه بنفسه ، واطلع على مكتبات مرو ،

---

(١) رحالة إيطالى ولد فى فينسيا (١٢٥٤ — ١٣٢٤) عبر آسيا كلها عن طريق منغوليا ، وعاد عن طريق سومطره بعد أن قضى سبعة عشر عاماً فى خـدمة خان كوبلاى الاكبر ، جمع قصة رحلاته فى كتاب « ماركو بولو » يعد هـذا الـكتاب وثيقة هامة وموسوعة جغرافية عن آسيا . (المترجم)

(٢) موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة فى العصور الوسطى ، ولم يكن يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله فى هذه الموسوعة من الفلك وطبيعة وعلوم الآثار والجغـرافيا البشرية والتاريخ . (المترجم)

وطشقند القديمة وبلخ ، وعرف كل ما فيها من كنوز المعرفة ، وقد فرض عليه وهو ذو عقل مبتكر ، وناقد نزيه أن يشتغل بالنسخ مثل كثير غيره ، لكي يستطيع أن يهيء لنفسه معاشا يوميا متواضعاً . وقد وجد مع ذلك وهو مشغوف بالمعرفة الوقت الذى استطاع أن يؤلف فيه موسوعة جغرافية تمثل مجموعة معارف العصر . ولم يولع أحد حباً بالعالم الأرضى قدر هذا العالم المتجول .

علم النبات :

اشتهر علم النبات أيضاً على يد الأدريسى الذى أشار إلى فائدة ٣٦٠ نوعاً من النبات فى تركيب الأدوية .

وفى سنة ١٢١٦ ، أحصى أبوعياس الاشبيلى الذى استحق لقب «النباتى» فى دراسة حياة نباتات قاع البحر . وفى سنة ١٩١٠ اشتهر بخاصة ابن العوام الأشبيلى « بكتابه عن الفلاحة » الذى وصف النبات ، وأشجار الفاكهة ، وأنواع التربة الهامة ، والأسمدة ويمكن أن يعد هذا الاخصائى فى فن الزراعة أعظم أستاذ فى العصر الوسيط فى مادة الزراعة .

علم الطبيعة :

لقد كان علم المناظر لبطليموس ، فى تقدير بيجوردان الأثر الوحيد لعلم الطبيعة التجريبى والذى أمكن كشفه من بين المؤلفات اليونانيـة ، ولم يقدم العرب على القضايا الأساسية للطبيعة النظرية إلا بعد أن ترجموا مؤلف بطليموس فى هذا العلم .

ومنذ بداية القرن التاسع ، بحث الـكندى عن القوانين التى تخضع لها الأثقال من حيث جذبها وسرعتها .

وفى كتاب له عن علم المناظر مقتبس من كتاب لإقليدس درس الـكندى الظواهر الضوئية . وكان لابد لهذا المؤلف أن يحدث تأثيرا كبيرا فى الشرق مثل تأثيره فى الغرب وبعده بقليل ، أحدث أبو الحسن ابن الهيثم الذى كان يعيش فى القاهرة (٩٦٥ — ١٠٣٩) وثبة كبيرة فى تطور البصريات وفزيولوجية الأبصار . وأوحى بحثه فى علم المناظر الذى ترجم إلى اللاتينية وإلى الايطالية بأبحاث علماء الفيزيقا .

كان ابن الهيثم على وشك كشف العدسة المكبرة إلى حد أن روجيه با كون ، وفيتلو وأوربيين آخرين اعتمدوا على جهوده فيما بعد بثلاثة قرون ، وذلك فى بحوثهم الخاصة المتعلقة بالمجهر وبالتلسكوب . ولما كان بن الهيثم قد ناقض نظرية إقليدس وبطليموس بشأن الإبصار ، فقد قدم وصفاً صادقاً عن العين ، وعن المدسات ، وعن الإبصار بوساطة العينين . وبحاسة مطبوعة حقاً ، وصف ظواهر انكسار الأشعة وهو أول من نوه باستخدام الحجرة السوداء ، وهى أساس التصوير الفوتوغرافى . وفى القرن التاسع عشر ، كان الرياضى شال[1] يعد بحث ابن الهيثم « أنه كان أصل معارفنا فى علم الضوء » وكان الفلكى بيجوردان — الذى ذكر سلفاً — يحكم على نظرية ابن الهيثم فى علم الضوء : بالتفوق على نظرية بطليموس . ويلاحظ فيها بخاصة الحل لمسألة حلت بالتحليل كانت تعتمد فى حلها على معادلة من الدرجة الرابعة « وإنما اقتبس فيتلو وهو عالم بولندى من القرن الثالث عشر من هذا المؤلف اقتباساً مثمراً فى تحرير بحثه الخاص عن علم الضوء ، وهو أول مؤلف ألف على يد أوروبى ، وإلى أن ظهر كيلر ، وليونارد كانت البحوث الأوروبية فى الضوء تعتمد على مؤلفات ابن الهيثم . فلا مغالاة إذن فى القول بتأثيره فى المعرفة الأوروبية .

وطوال الألف سنة الشديدة الظلمة فى تاريخ العصر الوسيط ، كان يشع اسم عالم عبر العالم الإسلامى : أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الذى قدر له أن يبلغ شهرة جامعة . فقد ترك البيرونى الفيلسوف والمؤرخ ، والجغرافى ، والرياضى ، والفيزيقى ، واللغوى والشاعر ، فى هذه الميادين المختلفة مؤلفات هامة جعلت منه ليونارد[2] دى فاس فى العالم الإسلامى .

---

(١) رياضى فرنسى ولد فى إبرنون (١٧٩٣ — ١٨٨٠) . المترجم

(٢) رسام إيطالى ولد فى فانس بالقرب من فلورانس . ومات فى فرنسا (١٤٥٢ — ١٥١٩) ، كان مثالا ومهندساً معمارياً ، وعالماً فى الطبيعة ، وفيلسوفاً ، وكاتباً وشاعراً وموسيقياً ، برع فى هذه الفنون كلها ، ويعد من العباقرة الذين ظهروا فى عصر النهضة . (المترجم)

ولد فى سنة ٩٧٣ فىخوارزم بالقرب من طشقند القديمة جنوب بحر أورال بعد موسى مخترع علم الجبر بقرنين . ودفعته مواهبه إلى بلاط محمود الغزنوى ، فاتح تركستان ، والذى قدر له أن يكون أول امبراطور مسلم فى الهند وارتبط هـذا الطاغية المولع بالحروب الذى كان يحب العلماء والآداب بالبيرونى الذى كانت لديه الفرصة لدراسة الهند على حين أن حاكمه الذى لا يحتمل كان يمضى وقته فى تدميرها .

وفى مقدمة كتابه الأول « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ولما يتجاوز الثلاثين من العمر ، كتب بسذاجة الشباب يقول : « بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة ، والتعصب والتظافر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك » . وكان هذا منهاجاً وفى الوقت نفسه جهراً بعقيدته الدينية . وكان البيرونى ينتمى إلى الجماعة التى انشقت تؤيد شعوبية الفرس والتى كانت تعارض أهل السنة فى العالم الإسلامى ، ويقال إنه كان ذا ميل خفى إلى مذهب اللاأدرية . ولم يستطع هذا العالم وهو ذو طبيعة حساسة ومثالى أن يغفر تدمير حضارة الساسانيين[1] الشامخة التى قضى عليها العرب . وكانت نزاهته أسطورية ، ويحكى أنه كان يرد غالباً إلى بيت المال الأموال التى كانت تمنح له .

وربما تفسر هذه السمات الخلقية موضوعية هذا الكاتب ، وأمانته العلمية النادرتين ، « ونقده فى فحص الترجمات والنصوص وكتبه المفهومة والدقيقة والمدققة فى العرض غالباً ماتعترف بالقصور وتمد بمتابعة البحث إلى أن تظهر الحقيقة » .

ومؤلفه الرائع هو « تحقيق ما للهند من مقولة » الذى ظهر فى سـنة ١٠٣٠ ولم يتبع المؤلف — مع أنه ثقة — طريقة السرد فى التاريخ للهند بل بدأ بترتيب

---

(١) هذا التأويل يخالف الثابت من أمر البيرونى وهو القائل : والهجو بالعربية أحب إلى من المدح بالفارسية . . . والساسانيون هم من سـلالة أسرة الأبطال الأسطوريين القدماء « كايانى » الذين كونوا مجتمعاً مستقراً فى بلاد الفرس ، ولم ينته بالفتح الإسلامى حكم الساسانيين فحسب ، بل انقرضت الأسرة كذلك . (المترجم)

«الأساليب المختلفة للمؤرخين المخادعين» الذين كتبوا التاريخ ورجعوا قيمة شواهدهم. ولما تناول الجزء السياسى من هذا المؤلف، درس دراسة مطولة تأثير الدين والفلك الهندى، ثم وازن بين مفكرى الهند وفلاسفة اليونان واختتم مؤلفه مكرماً هؤلاء الآخرين.

وهو مترجم ممتاز، وفى نفس الوقت لغوى، ونحن مدينون له بترجمة مؤلفات عدة فى السنسكريتية إلى اللغة العربية، كما ترجم بنفس السهولة «أصول اقليدس»، و «المجسطى» لبطليموس إلى السنسكريتية.

أطلق عليه المؤرخون الإسلاميون لقب «الشيخ» الذى يعنى فى هذه الحال «معلم الذين يعلمون» وشهرته جدير بها كل الجدارة. وقد اهتم هذا المفكر العجيب الذى لم يكل بكل شىء ما عدا الطب. ففى الفلك، سلم البيرونى بأن الأرض كانت مستديرة، ولاحظ «جاذبية جميع الأشياء تجاه مركز الأرض»، وأوضح أن الوقائع الفلكية يمكن أن تفسر كذلك بافتراض أن الأرض تدور كل يوم حول محورها وكل سنة حول الشمس، كما تفسر بالفرض المقابل لذلك، واستهدفت ملاحظاته التى لاحصر لها شروحاً تتعلق (بخريطة) العالم، وأتاحت له أخيراً أن يحرر جداول فلكية.

وفى الطبيعة، قاس البيرونى الأوزان النوعية باستخدام مقياس كثافة من اختراعه الخاص. ووضع على هذا المنوال المبدأ الذى يثبت أن الوزن النوعى لشىء ما يتناسب مع حجم الماء الذى يزيحه، وهو الذى أثبت أيضاً — فى ميدان أكثر اتساعاً للعمل — حركة مياه الآبار الارتوازية عن طريق مبدأ الأوانى المستطرقة.

وهو عالم هاو، وصاحب مذهب توفيقى عالمى. وألف فى الرياضيات أجود شرح فى العصر الوسيط عن الأرقام الهندية، وكذلك فى الهندسة، اقترح البرهنة على نظريات جديدة، أما فى التاريخ، فيحكى عهود محمود الغزنوى وملوك معاصرين له وأخيراً وضع تقويماً وسجل الأعياد الدينية بحسب مذاهب شعوب الشرق الدينية وشعائرهم. ولما كان البيرونى قد ألف كتابه بأعظم عناية فنية، فقد عد نموذجاً للنزاهة العلمية.

وتشير مؤلفات البيرونى التى كانت معاصرة لمؤلفات ابن سيناء « الشيخ الرئيس » وابن الهيثم عالم البصريات والفردوسى الشاعر الملحمى الكبير فى فارس ، تشير إلى أن الفترة التى تمتد من القرن العاشر إلى القرن الحادى عشر من الممكن أن ينظر إليها على أنها أوج العصر الوسيط .

وفى هذا العصر نفسه ، وفى نهاية العام الألف ، كان الغرب الذى حكم عليه بالإرهاب ينتظر نهاية العالم .

(١٦)

التطبيقات العلمية

الورق :

الورق بلا نزاع إحدى الإسهامات النافعة جداً ، والتى جلبها العالم الإسلامى إلى أوروبا . ومن المعروف أن العرب تعلموا فى سمرقند فى تمطين الكتان لكى يصنعوا منه عجينة تحل محل جلد الماعز والرق . ثم خطرت لهم فكرة استبدال ألياف القطن الوفير جداً فى بلاد مابين النهرين ومصر بألياف الكتان . ومنذ ذلك الوقت تقدمت صناعة الورق تقدماً سريعاً وخارقاً للعادة . ذلك أن الورق كان يمهد السبيل بسرعة إلى صناعة الكتب ، وهذه الصناعة شرط هام وضرورى لاكتساب المعارف . وفى التقدم الثقافى ، يمثل الورق عدته وآلاته ، ويخلق شرطه المادى ، فالنشاط الفكرى الذى لا غنى عنه فى بلوغ الحقيقة ، فى حاجة مع ذلك إلى سبيل يحفظ المعرفة ويبقيها على مر الزمان .

ويمكن أن نزعم مع ذلك — دون الحذر من المبالغة — أن ظهور الورق الرخيص الثمن شكل نقطة الانطلاق لعصر جديد ، وكانت الكتب التى تكتب على الرق أو على ورق البردى ذات ثمن مرتفع جداً إلى حد العزوف عن الشراء .

واقتضى الحال مع ذلك كثيراً من الوقت لكى يصل هذا الاختراع إلى الغرب . ذلك أنه فى سنة ٧١٢ كان العرب قد فتحوا سمرقند التى كان قد قدر لها أن تكون أساس انتشار الورق عبر العالم . ولم يقم للصنع الأول ، مصنع بغداد إلا فى سنة ٧٩٤ . وتبدأ مصر بدورها صناعتها للورق فى سنة ٩٠٠ وتتبعها بلاد مراكش فى سنة ١١٠٠ فقط . وأقدم وثيقة أوروبية على ورق حقيقى أمر حررته زوجة روجار الصقلى باللغة اليونانية واللغة العربية فى سنة ١١٠٩ ، وكذلك المصنع الأسبانى فى شاطبه التى أمدت أوروبا العربية بالورق ، وكان الجزء الشرقى من أوروبا يتزود مباشرة من لبنان . وانتقلت رويداً رويداً صناعة الورق من أسبانيا إلى فرنسا ، ومن صقلية إلى إيطاليا .

ويمكن أن ينظر إلى توقيت ظهوره فى فرنسا مع عودة الصليبيين على أنها غلطة تاريخية . ومن المؤكد من جهة أخرى أن الصليبيين كانوا قد تعلموا فى مصر طريقة طبع الأنسجة على صفائح من الخشب ، وهذه الطريقة الفنية التى كان الأقباط يعرفونها منذ وقت طويل أمكنها أن تساعد على تقدم الطباعة فى أوروبا .

كانت الطريقة الفنية الأسبانية من قبل متطورة جداً . ففى قرطبة ، كان كاتب الخليفة عبد الرحمن يصدر الوثائق الرسمية فى كثير من النسخ بمساعدة مطبعة بدائية ما زلنا نجهل كيف كانت تعمل ، ولعل ذلك يتيح لنا أن نلاحظ أن سكان جنوا وهم أكثر بصيرة كانوا قد عرفوا أن يستوردوا من فارس فى القرن الثالث عشر سر طبع أوراق النقد بطريقة الحروف المتحركة قبل أن يتلاشى بسبب إفلاس بيت المال .

صناعة الزجاج :

كانت صناعة الزجاج وأصلها من فينيقية قد بلغت الكمال فى الشرق الأدنى ، وقد أدخل هذا الفن فى الشرق الأدنى وفقاً لشروط صحيحة متعاقد عليها بين بوهموند السادس أمير أنطاكية ، وكونتاريني دوق البندقية فى أول يونية عام ١٢٧٧ . وكان كل شىء يستورد من سوريا : المواد الأولية ، وسر الصناعة والصناع الذين كانوا يختارون فى بداية الأمر من بين العرب . واحتكرت الجمهورية صاحبة الفخامة بتكتم شديد صناعة الزجاج وأسرارها حتى القرن السابع عشر الذى أذيعت فيه صناعة الزجاج فى فرنسا على يد كولبير .

ويلاحظ أن صناعة المرايا واستخدام الزجاج الخاص بالكنائس وفى بالرمو منذ القرن الثانى عشر إنما يرجع لنشاط العرب ، وذلك أن ابن فرناس أول من صنع البلور فى معمل قرطبة . وكانت خزانة الفاطميين تحتوى على ألف آنية من البلور الخام الذى لم يبلغ اليوم من الإتقان ما بلغه فى ذلك الوقت .

وإلى جانب صناعة الزجاج ، كان إحياء صناعة الأوانى الفخارية فى إيطاليا وفرنسا يرجع إلى وصول صناع الفخار من المسلمين فى هذين القطرين فى القرن الثانى عشر .

المنسوجات :

يقال إن الشرقيين كانوا يهتمون دائماً بالمظاهر الخارجية ، وكانت كثرة الملابس عندهم ضرباً من ضروب الفخفخة ، وإذا لم يكن التجمل انعكاساً للذكاء والمعرفة ، فإنه لا يعبر كذلك عن مزايا خاصة ، مثل الرفاهة أو الذوق أحياناً ، وكان هذا حقيقياً بخاصة بالنسبة لعصور الترف وحب الظهور . وعندما كان أى خليفة يمنح خلعة كان يقصد بها الإنعام بتكريم وبهدية ثمينة معا . وهنا يجدر بنا أن نتذكر هذا التوقيع الذى وجد فى سجلات هارون الرشيد : « ٤٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية ، ثمناً لخلعة للوزير جعفر ، بن يحي . . » وقد وجدت هذه الكلمة « خلعة » فى هذا التوقيع وكذلك عن « الخلعة » مما يدل على أنها هدية فاخرة . وكان إنتاج المنسوجات الحريرية والأقمشة المطرزة بالذهب أو الفضة أو الحرير ، والوشى ، والقطيفة المنسوجة بالذهب قد خطا خطوة كبيرة فى الشرق . وبهت الصليبيون من ذلك ، ولم يفتروا عن توريد هذه المصنوعات إلى أوروبا بمقادير خطيرة جداً بالنسبة لاقتصاد بلدهم الخاص حتى إن أحد الملوك الفرنسيين اتخذ احتياطات للحد منها .

وقد رؤى أن استيراد طريقة هذه الصناعة أجدى ، وبدأت صقلية فكان أحد ملوكها النورمانديين وهو روجار الثانى الذى كان يطلق عليه الملك نصف الوثنى — يرتدى ملابس مطرزة كانت قد نسجت فى منسج أقامه الملوك المسلمون فى القصر الملكى فى بالرمو . وكان هذا المنسج هو الذى صنع حلل احتفالات الملوك الأوروبيين وعظماء الناس فى أوروبا .

كانت الأنسجة الموسلينية (الموصل) كما يدل عليها اسمها ، والدمشقية ، والأطلسية (اسم ألمانى من الساتان) وحرير حلب تأتى من الشرق الأدنى . وقد حافظت هذه الأنسجة على أسمائها حتى عندما نقلت صناعتها إلى فرنسا وأوربا فى القرن الثالث عشر ، وفى الوقت نفسه نقلت صناعة السجاجيد تبعاً للطرق الفنية الشرقية .

الجلــــود :

ازدهرت صناعة الجلود بخاصة فى قرطبة التى انتقل منها فن طباعة الجلود ودبغها

إلى بلاد مراكش . ومن هذين البلدين ، أدخل فى فرنسا وفى انجلترا بأسمائه الأصلية صناعة الأحذية أو تجارة الأحذية والجلود المراكشية .

وقام الصناع الشرقيون بعد ذلك بقليل بتعليم الصناعات الجلدية وزخرفتها . وظهرت الطرق الفنية الخاصة بالتجليد العربى على الكتب المسيحية فى القرن الخامس عشر ، ومن مظاهر هذه الصناعة الكعوب الجلدية التى تقتصر على حافة صحائف الكتاب .

المعادن :

عرف فن صناعة المعادن فى الشرق منذ أزمنة مغرقة فى القدم . وكان أصل هذه الصناعة صينياً . لكن صناعة المعادن الصلبة الدقيقة بلغت جودتها فى دمشق ، ثم انتقلت إلى مصانع الفاطميين فى مصر ، وإلى البندقية التى يوشر فيها تطعيم الأشياء بنحاس أصفر مع صفائح من الذهب ومن الفضة ومن النحاس . وكان توشية الحديد أو الفولاذ بأسلاك من اللجين أو العسجد التى مورست بخاصة فى دمشق والموصل ، وكذلك فى فارس فنا أصله من الهند . ثم انتقلت هذه الصناعة إلى مصر والقاهرة القديمة فى القرن التاسع ، وثبتت فى أسبانيا التى وصلت منها إلى أوروبا .

اشتهر صناع الأسلحة الأسبانيون بهذا الفن الذى أخذوه عن الصناع المسلمين فى طليطلة ، والذين اشتهروا بخاصة بصنع النصول وقطع الأسلحة الدفاعية كالخوذات والدروع ، وهؤلاء الأسبان هم الذين تفقوا فيما بعد الفرنسيين بعمارفهم العامة ، وفى الوقت نفسه استورد الصليبيون من الشرق الطريقة الفنية للبيطرة بالمسامير التى أقيمت على فن رفيع . ولم يستنكف الفرسان من تعلمه . وهذا يفسر لنا اتخاذ حدوة الحصان منذ ذلك الوقت فى عدد من شعارات الشرف .

الآلة الميكانيكية :

انتقلت جميع أنواع الآلات الميكانيكية التى تعمل بالماء وبمخترعات صينية إلى إيران وسوريا ، ثم بعد عدة قرون إلى أوروبا . ولما شاهد الصليبيون النواعير التى ترفع ماء نهر العاصى ، أدخلوها بدورهم فى ألمانيا . وفى الوقت نفسه تقريباً ، كان

النورمنديون يقيمون فى أوروبا طواحين الهواء الخاصة بصقلية التى كان مصدرها مثل طواحين أخرى كثيرة ، من أصل فارسى .

الصحة العامة :

شوهد فى أوروبا منـذ القرن الثانى عشر إقامة مستشفيات عامـة ، ومستشفيات للبرص ، ومستشفيات للجـذام ، وبلغ ما يوجـد منها زهاء ٢٠,٠٠٠ فى القرن الثالث عشر . وكانت قد اتخذت طريقة المعالجة النظامية للمرضى فى المستشفيات وبخاصة المرضى بأمراض معدية — تجربتها فى الشرق الأدنى الذى كانت تنظم فيه هذه الخدمات على وجه أفضل بكثير مما كانت عليه فى العالم المسيحى .

واختفت الحمامات والحامات ذات المياه الساخنـة التى كانت وفيرة جداً أثناء فترة حكم الغال الرومانيين وكادت أن تختفى تماماً مع الإمبراطورية ، لـكنها عادت بفضل نتيجة الاتصالات مع الشرق الذى كان فيه استخدام الحامات معمماً .

مفردات اللغة :

فى نفس الوقت الذى كانت فيه أوروبا تستورد منتجات إسلامية اصطنعت فى الغالب الألفـاظ الدالة عليها . وعلى ذلك ، ظهرت هـذه الـكلمات فى مفردات اللغة الفرنسية : سكر (Sucre) ، شراب مسكر (Sirop) ، وشراب مشبع بالسكر (Sorbet) ، كحول (alcool) ، قلوى (alcali) ، مستحلب (julep) ، أكسير (élixir) ، برتقال (orange) ، جرة (jarre) ، مرتبة (matelas) ، أريكة (sole) ، جوت (jute) ، لازورد (azur) ، طراز عربى (arabesque) . ومفردات أخرى استعيرت أيضاً من اللغة العلمية : جبر (algébre) ، صفر (zéro) ، رقم (chiffre) ، سمت (azimut) ، أمبيق (alambic) ، سمت الرأس (zéoith) ، المناخ (almanach) ، أو من الموسيقى : عود (luth) رباب (rebec) ، قيثارة (guitare) ، طبل (tambourin) ، قرع الطبول (fanbare) ، صنج (cymbale) ، واصطلاحات بحرية : أمير البحر (amiral) ، ترسانة (arsenal) ، حبل (bable) ، زورق (chaloube) قارب (dargue) ،

سفينة (sloop) ، أو مفردات تعنى ملسوجات موسلين (mousseline) ، أطلس (satin) ، نسيج من قطن وكتان (futaine) ، واصطلاحات تجارية : بازار (bazar) ، تعريفه (tarif) ، مخزن (magasin) ، خطر (risque) شيك (chéque) ، جمرك (douvane) ، وأخيراً ، استحدثت كلمة سوف تثير كثيراً من الدهشة لأنها كلمة راسخة رسوخ اللغة الفرنسية ، إلا وهى كلمة السيد Le cide المأخوذة مباشرة عن (سيدى)[1] .

الزراعة :

كانت سوريا طيلة مائتى عام فى أثناء الحرب الصليبية ميداناً لملاقات وثيقة بين المسلمين والمسيحيين ، ومع ذلك فهى لاتأتى إلا بعد صقلية وبخاصة بعد أسبانيا من وجهة نظر انتقال التأثير العربى إلى الغرب . وهذا يرجع إلى أن الثقافة الإسلامية كانت فى سبيل الأفول فى الشرق الأدنى . وإلى أن الصليبيين المتصمين فى حصونهم كانوا يعقدون اتصالات مع الفلاحين والصناع المسلمين أكثر مما يعقدون مع النخبة الممتازة من الناس . وكان هـذا فى الميادين العملية من الزراعة والتجارة التى كان يميز بها المرء بخاصة تأثير العالم الإسلامى فى العالم المسيحى .

وقد بحث من وجهة أخرى ما كانت عليه أسبانيا الإسلامية فى الميدان الزراعى الذى جيء به من آسيا ، ثم نقل إلى أوروبا ، : مثل زراعة الأرز والمشمش ، والخوخ ، والرمان ، والبرتقال ، وكذلك زراعة قصب السكر ، والزعفران ، والقمح ، والحنطة السوداء ، وشجرة الزيتون ، والباح ، والتين ، والليمون الهندى ، والسفرجل .

التجارة :

عاد الصليبيون من الشرق بكل ما كان يمكن أن يتلاءم مع المناخ المعتدل : مثل السمسم ، والذرة البيضاء ، والشمام ، والكرات ، والخروب ، والفراولة ، والكرز ، لكن

---

(١) وبعض هذه الألفاظ مأخوذ عن الفارسية كذلك . (المترجم)

أحياناً — حتى على غير علم منهم — وجدوا أنفسهم قد ألفوا أذواقاً وعادات ، ومطالب جعلتهم مرتبطين بلبنان ، وآزروا فى تقدم تجارة مزدهرة عبر جميع موانى البحر المتوسط .

كانت هذه مثلا حال البخور ، والمنتجات الأخرى الذكية الرائحة من الجزيرة العربية ، وعطر الورد من دمشق ، وزيوت معطرة من بلاد فارس ، ونتيجة لذلك سبب إنتاج هذه العطور فى الشرق انتشار زراعة الأزهار . وانتشرت على غرار ذلك زراعة التوابل ذات الأريج مثل الفلفل والقرنفل ، والزنجبيل ، لكن أهم جميع المنتجات المستوردة من الشرق هو السكر الذى يلعب منذ ذلك الوقت دوراً أساسياً فى الاقتصاد المنزلى وفى تركيب الأدوية أيضاً .

لم تكن الحركة البحرية هى الحركة الوحدة التى جاءت نتيجة لهذه التقدمات . فقد نتج عن هذه الحركة تداول لنقد أكثر حجماً وأكثر سرعة ، وكنتيجة لذلك نشأ نظام تأمينى . وظهرت المصارف فى الموانى الأوروبية الكبيرة ، وأسست لها فروع فى لبنان .

متنوعات :

فى التطبيقات العملية للخبرة البحرية التى رأت النور فى ذلك العصر ، يجدر بنا أن نسجل تجديداً فريداً فى نوعه ، وهذا التجديد هو البوصلة المخترع الصينى ، لكن العرب كانوا يطبقونها منذ وقت طويل على الملاحة فى الخليج الفارسى والمحيط الهندى . ويسرت بفضلهم هذه الآلة الأساسية الكشوف الجغرافية فى القرن الخامس عشر .

وكان البارود مخترعاً صينياً ، لكن الصينيين كانوا لا ينتفعون به إلا من أجل الصواريخ . وبارود المدفع مخترع عربى ، رسم نموذجه أحد مخترعى العرب فى القرن الثانى عشر . ذلك أنه فى قاعدة مدينة الجسيراس فى سنة ١٣٤٢ رأى الإنجليز — للمرة الأولى — مدفعاً إذ كانوا يخدمون فى الجيش الأسبانى .

ولكى نقيم حساباً كاملا لإسهامات الشرق الفكرية تجاه الغرب ، كان يجدر

بنا أيضاً أن ننسب إلى العرب ما للعرب من تطبيقات صناعية نجمت عن المعرفة الإسلامية ، ولكن أحرى بنا أن نختم هذا الفصل الذى قد يجازف بمجاوزة ما حدد من تخطيط عام « لتاريخ الحضارة العربية » .

ويكفى أن يتصور المرء القارة الأوروبية فى فجر العصور الحديثة من غير أن تملك تحت تصرفها هذه الهبات الثلاث : البارود ، والبوصلة ،والكتاب ، رمز المعاونة الإسلامية فى بناء الإنسانية .

(١٧)

الطب

احتل العرب المكان الأول فى الطب وظلوا على رأس المعرفة بالطب طيلة أكثر من خمسمائة عام .

وقد ورد فى حديث منسوب إلى النبى ﷺ أن دراسة الطب ودراسة الدين هما الشقان الأساسيان للمعرفة .

طب النبي :

يبلغ عدد الأحاديث الطبية الموروثة عن النبى ﷺ حوالى ثلثمائة حديث . وقد جمعت على حدة فى كتب تحت عنوان : « الطب النبوى » وتوصى هذه الأحكام بعامة بالقناعة ، وتفرض التطبيق العملى لعلم الصحة والنظافة . وعندما شرحت فى صورة متقنة وشاعرية ، شغلت مكانا كبيراً فى الطب الشعبى . فأطباء فترة الخلفاء الراشدين التى تمتد من سنة ٦٢٢ إلى ٦٦١ كانوا يعرفون من قبل فن تضميد الجروح ، والكى والفصد والحجامة .

وفى عهد الأمويين اشتهر بالطب ثلاثة أو أربعة أطباء أكثرهم شهرة « حكم الدمشقى » الذى نشأ من أسرة يغلب عليها الشعر والطب : وابنه عيسى[١] مؤلف « الكناش الكبير » وهو رسالة فى فن الطب . يعرض فى هذا البحث الحال والعلاج لنزيف شريان بالغ الخطورة نتج عن سوء خبرة حلاق .

ويتسم — من قبل — هذا العصر بتحديد يجدر بنا أن نذكره ، فقد أمر الخليفة الوليد بعزل المصابين بالبرص وأمرلهم بجرايات وهكذا فى الشرق، منذ بداية القرن الثامن ، فى عصر ملوك أوروبا المتوانين ، كان الملك العربى يوجه النظر إلى العناية بالصحة العامة .

---

(١) انظر ابن أبى أصيبعة جـ ١ ص ١٢٠ (المترجم)

التقدم فى المدن :

كان لظهور الترجمة سنة ٨٣٠ أثر فى انتشار تعاليم العلماء والأطباء المشهورين فى اليونان : مثل أبقراط ، وجالينوس ، وروفس الأفسوسى ، وبولس الإيجينى . وكما قيل — بفضل ترجمات حنين بن إسحاق — أمكن بعض المؤلفات اليونانية التى فقدت منذئذ أن تحفظ فى ترجمة عربية ، وبخاصة الكتب السبع فى علم التشريح المشهور لجالينوس وجدير بالذكر أن أول بحث فى الطب كتب بالعربية هو ترجمة كتيب يونانى على يد يهودى ألفه مسيحى من الاسكندرية . وعلى الرغم من أن هذا التعاون العملى كان أهلا للاحترام التام فإن أطباء الإسلام لم يرغبوا فى أن يقصروا دورهم على النقل . ومنذ وقت مبكر ، اهتموا بجمع العناصر المتفرقة للطب اليونانى وبتصنيفها بحسب ترتيب منهجى . ولما كانوا قد تخلوا فى الحال عن علمائهم المعلمين لهم ، فقد سلكوا بدورهم طرقا غير معروفة للإغريق وشاركوا على نطاق واسع فى التقدم الطبى .

« وقد جمعوا الحقائق دون كلل — وهم ناقدون مدققون غاية التدقيق ومتأنون وذوو رأى صلب . ومن الآن فصاعدا ، أصبح الطب طبا تجريبيا . ويعلن على بن العباس فى كلام واضح أن ملاحظاته جمعت من البيمارستانات وليس من النقل المتعلق بعلم الكتب والمؤلفات » .

كان تعليم الطب يعطى بخاصة فى البيمارستانات ، ومنذ القرن التاسع ، كما يعترف بذلك س . كومستون — أخذ العرب فى إنشاء الطب الإكلينيكى ، وأضافوا إلى علم الأمراض وطبائعها وعللها ودلائلها أمراضا جديدة .

وفى القرنين العاشر والحادى عشر ، أخذ تقدم العواصم الكبرى ، دمشق والقاهرة وبغداد بخاصة ، يفرض جمع الموارد ، والأحوال المادية التى كان لزاما عليها أن تتيح للعلم وبخاصة للطب أن يقوم تنظيمه على الأسس القوية لأمبرطورية موسرة .

ومنذ ذلك العصر ، استطاعت الجامعات أن تلحق بها كلية العلوم وكلية الطب ومعاملها . وفى علم الصيدلة القديم أضاف المسلمون العنبر الداكن ، والكافور ،

وخيار الشنبر ، والقرنفل ، والزئبق والسنا ، والمر ، وأدخلوا تحضيرات جديدة عقاقيرية : مثل الشراب المسكر والمستحلب ، وماء الورد ، ألخ .

انتشار الطب فى القرى :

إذا كان تعلم الدراسات الطبية منتشرا بخاصة فى بعض المدن أو المراكز الثقافية ، فإن ممارسة الطب الحقيقى من جهة أخرى فى أعماق المقاطعات والقرى كان مهملا تقريباً إهمالا تاماً . ذلك أن إردة الله الوحدة — وفقا لما جاء به القرآن — هى التى تمنع المرض أوالصحة . الحياة أوالموت وفقاً لشريعة لايجوز نقضها ، بيد أن الناس قد تعودوا العناية بأنفسهم ، ولكن ذلك لم يحدث إلا مؤخرا ، ويفصح مرسوم لأحد أفراد أسره المرابطين المشهورين فىهذه العبارات : « حياة جميع الناس بين يدى الله ، فإذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة ولايستأخرون . وقد شاءت العناية الإلهية أن تق كثيرا من الناس شر الطاعون . فعلى كل شخص أن يتناول كل صباح حبة أوحبتين — فى أثناء وجود العدوى — من التركيب الآتى مع اعتقاد أن ذلك رهن العناية الإلهية : قطعتان من المر ، قطعة واحدة من الزعفران ، وقطعتان من الصبر ، وشراب من حبوب المر » .

ولقد وضع العرب — مدة طويلة — ثقتهم فىالسحرة والراقين أكثر من الأدوية الصالحة النافعة . وظل الطب فى القرى وقفا على أسرة المرابطين . ومن ثم بقى مدة طويلة بدائيا، وكانت الأدوية بالنسبة للجروح تتركب من مستحضرات من أعشاب مغلاة ومن لزقات، ولأمراض الروماتيزم والتهابات الأغشية بالكى بمسامير رفيعة ملتهبة بالنار . وكانت الحمى تعالج بعشب يطلق عليه « بخور أرضى » أو بمستخرجات من أعشاب تسمى الجلوبولوريا (١) « وكان مرض الحصوة يعالج عن طريق حقن مستخرجة من جذور مجففة ومسحوق من نبات الرنس وكان الإسهال يعالج بمسحوق الـ Pokooba ، والجدرى يبلع ست إلى ثمانى حبات من القرمز Hllsermes فى شىء من العسل .

---

(١) الجلوبولوريا أزهار برية تظهر فى شمال أفريقية ، وتسمى سربابة [قاموس شرف . (المترجم)

ومع ذلك ، فمنذ العصور الموغلة فى القدم ، مارس العرب التلقيح ضد الجدرى وكانت طريقتهم الفنية تختلف عن طريقة الصينيين ، وكان التلقيح يتم عن طريق فتح جرح فى الجزء البض من اليد بين الإبهام والسبابة . وكان الجرح بذلك مفتوحا بمساعدة جمرة أو جمرتين جدريتين (مشتراه من عند صديق أو جار يملك منها أنواعا جيدة) .

ولنلاحظ أنه فى جميع الأزمنة كان المسلمون المتعصبون يقفون موقف العداوة ضد التلقيح ، وقد ثاروا بعنف ضد هـذا النوع من العلاج ، وكانوا يقولون « إنها تعارض العناية الإلهية » .

كانت الرضوض ، واضطرابات الجروح ، والالتهابات وكذلك الأوذيما من كل نوع تعالج بعامة بأوراق الـ APunta وتحمل فى أول الأمر على النار وتوضع ساخنة بحيث يكون من الممكن تحملها . وكان يستخدم نفس هذا العلاج لتيسير سيل القيح من الدمامل ، والخراريج ، والقروح . ويحضر للشفاء التام لزقات أساسها مسحوق الحنـاء وهو عـلاج له قيمته بخاصة فى حالة الآلام العصبية والجروح المؤلمة سواء أكانت ذات تكوين متقيح أم كانت بدونه . ومن بين جميع هـذه الأدوية المجربة مايستحق أن يذكر بخاصة ، ذلك أنه لا يفتقر إلى جدة إذا حكمنا عليه عن طريق التقدم الذى احتله فى أيامنا هذه ، ونقصد بذلك انتفاع العرب بالتعفنات المستخرجة من البنسليوم (عفن الخبز) ، ومن العشب الفطرى الذى كانوا يجمعونه على ظهور دوابهم وكانوا يستعملونه فى شكل مرهم لعلاج الجروح المتعفنة . كما أنه كان لدى العرب معرفة — بطريقة تجريبية — بالمقاومة ضد الأمراض البكتيرية ، وضد الأمراض المعدية أو ضد الأمراض الميكروبية لبعض الكائنات المجهرية .

البيمارستانات :

كان جميع الرحالين فى العصر الوسيط ، وهم كثيرون فى ذلك العصر ، مجمعين على إعجابهم بالبيمارستانات التى كانت فى الشرق . وأثبت نوبرجير Nevrdnrger وهو مؤرخ لعلم الطب « أن تنظيم المستشفيات هو أحد المستحدثات الجليلة للثقافة الإسلامية » .

لقد أسس هارون الرشيد فى بداية القرن التاسع أول بيمارستان فى العالم الإسلامى. وقرابة سنة ٨٥٠ أقيم أربعة وثلاثون بيمارستاناً على نمط واحد فى جميع أرجاء العالم العربى . وقد خططت بدون شك بحسب نموذج المدرسة والبيمارستان الفارسيين فى جنديسابور . وكان معظم هذه البيمارستانات موقوفاً عليها أموال كثيرة ، وكان موقعها حسناً ومعدة إعداداً كاملا ، ومفتوحة للجميع ، للأغنياء وللفقراء على السواء . وكما نجد فى المنشآت الأكثر حداثة ، نجد فى المنشآت القديمة خدمات خاصة وفقاً للأمراض ، وصيدليات ومعامل ، ومطابخ ، وغرفاً للقراءة أيضاً . وقد عين أول مدير للبيمارستانات فى القرن العاشر .

كان يلحق بكل بيمارستان أطباء وطلبة ، وجراحون ، وأطباء عيون وكذلك « مجبرون » . وكان المرضى يرقدون فى أسرة مزودة بأغطية . وكان الطبيب يزور المرضى كل يوم ، والممرضون الذين كانوا يعودونهم عدة مرات كل يوم ، كانوا يمنحونهم الأدوية ، ويقدمون لهم الوجبات ، ولم تكن معيشة المرضى تختلف كثيراً عن معيشة مرضى اليوم . وأشهر بيمارستان فى العالم الإسلامى هو البيمارستان الذى أنشىء فى دمشق سنة ٩٧٨ كان يعمل به أربعة وعشرون طبيباً . وكان العلاج والأدوية يمنحان بالمجان طيلة أكثر من ثلاثة قرون . وفى بعض الأحيان كما فى بيمارستان القاهرة كان المرضى فى دور النقاهة يمنحون مقداراً معيناً من النقود وقت مغادرتهم البيمارستان .

وفى الوقت الذى كانت تقام فيه بيمارستانات خاصة للنساء ، تهتم بمراعاة كل هيئة عاملة فى البيمارستان ، أقيمت أول مدرسة للصيدلة فى العصر الوسيط وكذلك المستوصفات الأولى ، وحوانيت الصيادلة .

فروع أخرى :

أنشىء أول بيمارستان للأمراض العقلية فى بغداد منذ القرن الثانى الهجرى ، أى قبل بيمارستان بلانسيه بسبعمائة عام ، وهو أول بيمارستان فى تاريخ الغرب ، وقد جاء على مثال مستشفى الأمراض العقلية فى القاهرة . وبينما كان ينظر إلى هؤلاء المرضى

على أنهم مجرمون أو ممسوسون بالشيطان ، وتطاردهم الكنيسة فى حذر بالصلوات والتعاويذ ، كان المرضى بالأمراض العقلية يعالجون فى العالم الإسلامى بمحبة ورفق على يد أطباء إخصائيين فى الأمراض العقلية فى جميع المدن الكبيرة من العالم الإسلامى. وأسست الأوقاف وهى مؤسسة خيرية ، وقتئذ لتقوم بعدد كبير من أعمال المساعدة للجنود المتقاعدين وذوى العاهات وللمعدمين ، ولتنشىء ملاجىء « للعجزة » ، وملاجىء للأيتام . ولم تكن تعرف العصور القديمة مؤسسات مثل هذه ، لقد كانت تشكل تقدماً اجتماعياً لا يمكن إنكاره .

ومن السهل أن نرجع فى سهولة ويسر كثيراً من الكشوف إلى حظوتها من كرم الخلفاء .

وعلم الرمد علم مستحدث إسلامى ، ظلت شهرة أطباء رمد العيون العرب ، وتعمق معرفتهم بطرق أنواع العلاج الفنى لا تجارى . وقد كان مقدراً لكتاب « تذكرة الكحالين » لعلى بن عيسى الكحال ألا تسمو إلا فى القرن التاسع عشر . والحق أن المعارف الرحبة لعلماء الطبيعة والبصريات قد ساعدت بقوة أطباء الرمد وأطباء العيون العرب . وكانت أنواع علاج العين لا حصر لها ، لكن أول من مارس الأعمال الخاصة بالعلاج : استخراج ماء العين (الكتاراكتا) : كان خليفة بن أبى المحاسن الحلبى فى سنة ١٢٥٦ واخترع الابرة المقعرة .

كانت الجراحة العامة ، والفن الخاص بالجراحة وصناعة الأسنان العربية فى العصر الوسيط أكثر تطوراً . كان التخدير قد اتخذ سبيله إلى الظهور ، إذا ذكرنا أنه استخدم لأول مرة فى أثناء جراحة قيصرية على يد طبيب مجوسى على عقيدة زرادشت لم يتردد فى إثارة النوم للمخدر عن طريق الأبخرة الأثيلية الصاعدة من النبيذ . ثم تبع ذلك استخدام الحشيش ، وعقاقير أخرى كانت تثير نوماً عميقاً .

وغنى عن البيان ، وعلى الرغم من أن العرب كانوا يشعرون دائماً بالكراهية لتشريح الجثة ، أنه كان مفروضاً على طب هذا العصر أن يلجأ إلى هذه الطريقة التجريبية المفيدة جداً فى علم الاستيصاف للداء المقارن وكذلك إلى علم التشريح .

كما أن الجراح ماسواغى هو أول من باشر تشريح القرود العليا من النوع الذى يطلق عليه الإنسان القردى يقدمها إليه أمير من بلاد النوبة .

العشق المكشوف :

فى ألف ليلة وليلة ، أسطورة « تود » الجارية الجميلة التى اجتازت بنجاح أمام أكثر العلماء ذكاء فى بلاط هارون الرشيد ، امتحاناً هاماً فى مواد مختلفة طبية وتشريحية ، ورياضية وفلسفية لا تشير فقط إلى رحابة الثقافة العامة لذلك العصر ، بل تشير كذلك إلى الفائدة التى التزموا بها للنهوض بعلم الطب . وكان معجم طبى غزير المفردات بقدر كاف يشكل جزءاً من التعليم العام . ومن ثم لم يكن الشعراء والكتاب والمرضى أنفسهم فى حاجة إلى شحذ قريحتهم على حساب أمراضهم ، وعلى حساب هؤلاء الذين كانوا يسمون إلى تخفيفها .

ويروى أن أحد الخلفاء هام بحب جارية شابة واضطرب اضطراباً شديداً عند ما صارحته محبوبته فى عبارات تحلل فيها عناصر الهوى وتشرح الحب ، قائلة : بين الترقوة واللهاة تحترق رغبة لا شىء يروى أوارها أو يطفىء نارها .

ويؤلف المتنبى — لا عن دعابة — قصيدة شعرية عن الحمى التى تصيبه والتى تدعه فريسة لها فيقول :

« شديد السكر من غير المدام »

وإنما ذهب المتنبى فى قصيدته بتجوز رائع ومليح فى الكلام حتى إلى تشبيه مرضه بامرأة شابة حيية :

« فليس تزور إلا فى الظلام »

وعند ما تزول عنه الحمى يقول :

إذا ما فارقتنى غسلتنى   كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجرى   مدامعها بأربعة سجام

وكان يوضح الهذيان ، وعودة الحمى فى الليل والرعشات وأيضاً العرق الذى ينتهى بكل ذلك فى دموع الوداع من محبوبته التى تهرب فى الفجر .

وكما جرت العادة كان شاعر(1) آخر يشحذ قريحته فى رثاء طبيب فاضت روحه تواً :

وأرى الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع مكروه أتى

ويتمادى الوقوع فى الزلل فيما بعد بقليل فيصرخ هاتفاً :

ما للطبيب يموت بالداء الذى
قد كان يبرىء منه فيما قد مضى
ذهب المداوى والمداوى والذى
جلب الدواء وباعه ومن اشترى

لقد كتب هذه الأبيات قبل ان يكتب مثلها موليير بـ ٨٠٠ عام .

أربعة رموز كبيرة :

إننا فى حاجة إلى مجلدات كاملة للإبانة عن حصيلة معارف الإسلام فى الطب الحديث . ولا نستطيع أن نتذكر غير هؤلاء الذين أثروا التأثير العظيم بين جميع العلماء المسلمين .

وفى الشرق حيث يتعين علينا أن نورد المدارس المشرقة التى انتشرت فى الوقت

---

(١) هذا الشاعر هو أبو العتاهية . . . قال أبو عمر النمرى : لا أدرى أهذه الأبيات هى له أو لغيره ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . قال المصحح : إننا قد رأيناها فى مجموعات كثيرة . وكل الروايات على اختلافها تفردها لأبى العتاهية . وقيل إن هارون الرشيد تمثل بهذه الأبيات عند وفاته . [الأنوار الزاهية فى ديوان أبو العتاهية ـــ طبعة بيروت سنة ١٨٨٨] . (المترجم)

ذاته فى إفريقية وفى أسبانيا يجب أن نذكر أسماء أربعة تجاوز مكانهم حد الشهرة الجامعة :

ربن ، الرازى ، على بن العباس ، ابن سينا

ولندرس فى اختصار عمل هؤلاء « الأربعة الكبار » فى ربيع العباسيين الذهبى .

ربن :

عاش ربن[١] وهو أقدمهم فى القرن التاسع وقد كتب أربعة مؤلفات كان أكثرها بلوغاً فى النجاح بعد مرات عدة من التوقف كتاب « فردوس الحكمة » وهو كتاب فى الطب ، وفى الفلسفة الطبيعية وقد قدر سلفا كل القدر من عصره فهذا هو المؤرخ الكبير الطبرى جعل منه كتابه المفضل على غيره . وتحدد فائدته فى أنه مستقل عن الترجمات القديمة ، وأنه يشكل باكورة التأليف باللغة العربية . وقد بقى منه مخطوطان ، الأول فى المتحف البريطانى ، والآخر فى برلين ، ويتناول نصفه تقريباً علم معرفة ألوان الأمراض العامة ، ويختص الباقى بعلم الأجنة ، وبعلم هيئة الأجسام الحية وتركيبها ، وبعلم السموم ، وعلوم متنوعة فى علاقاتها مع الطب والصحة . وكان من العبث أن يسير ربن قدما وكان هو نفسه لا يستصوب ذلك ، إذ هو يخط بقلمه : « فمن ظفر بهذا الكتاب وتنحره[٢] وتدبره وجد فيه جل ما يحتاج إليه المتخرج من علم الطب والفلسفة . فلا ينبغى للقارىء أن يستنكر ما فيه ويتبرم به » ودراسة ٥٥٠ صفحة باستقصاء لا تفى بهذا الموضوع . ومن الملاحظ بالنسبة لكلمة حائز على درجة جامعية أن الدراسة الصالحة للإقناع التى يفترضها هذا الكتاب لم تكن موجودة فى وقت ظهور الكتاب عام ٨٥٠ وقد أعيد تحريره فيما بعد بثمانين عاماً لظروف خطأ مهنى علم به الخليفة المقتدر .

---

(١) أبو الحسن على بن سهل بن ربن الطبرى ، كان يهودياً وأسلم على يد المعتصم ، وأدخله المتوكل من جملة ندمائه ، وهو معلم الرازى صناعة الطب ، ولد بطبرستان ونشأ بها ، وله مؤلفات عدة . [عن ابن أبى أصيبعة ص ٣٠٩] . (المترجم)

(٢) تنحره : أصاب نحره والمعنى استوعبه (المترجم)

الرازى :

يبدو الرازى (٨٤٤ — ٩٢٦) تلميذ ربن أكثر أطباء الإسلام غزارة وأصالة . ويذكر ابن النديم فى الفهرس ، وهو ثبت حجة بأسماء العلوم ، أن عدد مؤلفاته تبلغ مائة وثلاثة عشر مؤلفاً كبيراً وثمانى وعشرين رسالة فى العلوم والآداب ومعظم هذه المؤلفات ترجمت وأعيدت ترجمتها إلى اللاتينية .

درس الرازى الكيمياء والسيمياء والطب فى بغداد ، وكان كبير أطباء البيمارستان فى هذه المدينة . وكتابه الأكثر ذيوعاً هو كتاب « مقالة فى الجدرى والحصبة » الذى حظى بوساطته بمرتبة بارزة فى تاريخ علم الأوبئة . وهو مؤلف رائع يقوم على الملاحظة المباشرة ، وعلى التحليل الإكلينيكى . ويمكن أن نحكم على تأثيره بالأربعين طبعة الإنجليزية التى طبعت مابين عام ١٤٩٨ وعام ١٨٦٦ . وتعالج طبقات أخرى من مقالته « الحصى فى الكلى والمثانة » ومرض النقرس وأمراض الروماتيزم . وألف الرازى أيضاً ستة من المؤلفات العامة فى الطب ومؤلفات أخرى ألفها للسخرية من أدعياء الطب والأطباء بالخبرة الذين كما يقول محظون بشعبية لا يرقى إليها غالباً الأطباء المؤهلون . ومؤلفاه الأخيران « المنصورى » وهو موجز فى الطب فى عشر مقالات ، و « الحاوى » الذى يعالج جميع فروع الطب فى عشرين مجلداً هى دوائر معارف صادقة . لكن لم يعد يوجد اليوم إلا نصف مخطوط من « الحاوى » مبعثرة أوراقه بين المتحف البريطانى « والاسكوريال » ، وميونخ ، وليننجراد ، وبرلين وكانت ترجمته إلى اللاتينية تحت عنوان « liber eovtineus » على يد الطبيب اليهودى فرج بن سالم كتيباً طبياً أكثر احتراماً وأكثر فائدة طيلة عدة قرون ، وكان هذا واحداً من تسعة كتب كانت تشكل كل مكتبة كلية الطب فى باريس فى عام ١٣٩٥ .

وقد اتفق أحسن الحكام على الاعتراف بأن الرازى تفوق على جميع أطباء العرب كمجرب وكإكلينيكى وأنه يعد من بين أعظم أطباء جميع العصور بمهارته وموهبته ، وبملاحظته الإكلينيكية وبتكهناته ، وباستنباطه وبغزارة تعاليمه . وكان الرازى لا يمنعه عن نزاهة أن يذكر الحالات التى كانت تحبط تنبؤاته ، وأن يحكى سقطاته ، وأن يحاول تفسيرها . ويحكى كل مؤرخى حياته أنه أصبح فاقد البصر نتيجة لإظلام

عينيه فى آخر حياته ، وأنه رفض أن تجرى له جراحة لكيلا لا يرى زيادة على ذلك عالماً كان برماً به . وكان الرازى قد درس الفلسفة مثل سواد أطباء العرب الكبار ، ولعله أن يكون لنا فى هذا درس نستخلصه من هذه الغاية التى أوضحت حقيقتها لهذا العملاق فى الطب .

على بن العباس :

عاش على بن العباس فى القرن التاسع ، وألف للملك عضد الدولة بن بويه كتاب « الملكى » الذى ترجم إلى اللاتينية منذ عام ١١٢٧ ، والذى يجمع كل الطب فى مؤلف واحد . وهو مؤلف منظم وممتاز فى شكله وفى حماسة صاحبه ، وهو ذو مفهوم نظرى وعملى . وتتناول مقدمته نقداً للمؤلفين السابقين : فأبقراط فى نظره شديد الإيجاز ، وجالينوس مسرف الإسهاب ، وينسب إلى الرازى الإسهاب فى كتابه « الحاوى » والإيجاز فى كتابه « المنصورى » ويجدر بنا أن نلاحظ أن على بن العباس قد عنى بعدم الوقوع فى أخطاء السابقين ، تمسك بالتوسط بين الإيجاز والإطناب ، وصنف الأفكار والوقائع فى ترتيب منسق .

وكان على بن العباس يحظى بشعبية كبيرة بين معاصريه . وكان يطلب بإلحاح من تلاميذه التردد المنتظم على البيمارستانات فهو يقول : « ومما ينبغى لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ، ومواضع المرضى ، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأساتذة من حذاق الأطباء ، كثير التفقد لأحوالهم ، والأعراض الظاهرة فيهم متذكرا لما كان قد قرأه من تلك الأحوال وما يدل عليه من الخير والشر الخ . . .

ابن سينا :

فى القرن التاسع ، تجمعت الثقافة العربية فى شخص ابن على الحسين بن سينا « الشيخ الرئيس[1] » وفى سن السابعة عشرة كان ابن سينا قد درس الطب على نفسه

---

(١) احتفل فى عام ١٩٥٢ بالعيد الألفى لابن سينا ، وأقيم له قبر فى همذان ، واشتركت مصر فى هذا الاحتفال بنشر بعض مؤلفاته . (المترجم)

بدون أستاذ ، فذاع صيته بقدر كاف بسبب أنه استدعى لعلاج سلطان بخارى الأمير نوح بن منصور فشفى على يديه . وفى سن الواحدة والعشرين ، ألف أول كتبه ، ثم استمر يؤلف حتى بلغ ما ألفه حوالى مائة كتاب غزيرة المادة يغلب عليها الفلسفة والطب والدين والهندسة والفلك ، والتشريع ، وعلم اللغة . وألف أشعاراً ممتازة منها خمس عشر قصيدة باقية ، وقصيدة من الخمس عشرة اختلطت برباعيات الخيام ، وأخرى « فى النفس[1] » تشكل قطعة من القطع الكلاسيكية فى الشعر العربى ، وشرح إقليدس ، وجمع ملاحظات فلكيه وتآليف مبتكرة عن الحركة والقوة والخلاء والحرارة والضوء والأوزان النوعية . وكان بحثه عن المعادن المصدر الرئيسى لعلم طبقات الأرض حتى القرن الثالث عشر . وبرع فى هذا الفرع ، وتشكل ملاحظاته على تكوين الجبال نموذجاً لهذا النوع من العلم :

ومن العسير أن نحكى هنا كل المغامرات التى أدت أحياناً بابن سينا إلى السجن والمحن التى جعلته يمضى من ملك إلى آخر ، وكيف أصبح رئيس وزراء ، وشاعراً ، ورجل أعمال ، الخ . . . ويجدر بنا أن ننعم النظر فقط فى مؤلفاته ، ومنها اثنان يستوفيان تعاليمه . أولهما « كتاب الشفاء » وهو دائرة معارف للرياضيات والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والإلهيات والاقتصاد السياسى والموسيقى ، وهو محرر فى ثمانية عشر مجلداً . ولا يحتوى كتاب « القانون » مؤلفه الرئيسى على أقل من مليون من الكلمات . وهو يعالج الفسيولوجيا ، والصحة ، والعلاج ، والصيدلة ، وفى هذا الجزء الأخير ، لم يقيد أقل من ٧٦٠ عقاراً ، أوضح استعمالها فى العلاج . ومع أن « القانون »

---

(١) مطلع القصيدة :

هبطت عليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

ومنها :

محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وإنما كرهت فراقك وهى ذات تفجع

(المترجم).

مؤلف تأليفاً محكماً ومع أنه يحتوى على أجزاء كتبت بأروع أسلوب لم يعدم محقرين متهكمين ذهبوا إلى أن تأثره بالنزعة المدرسية فى التصنيف والايضاح كان بالنسبة له داء عضالا لم ينجح فيه علاج .

إن طابع ابن سينا الموسوعى والدجماطيقى إلى جانب شهرته الضخمة جعلا من هذا الكتاب المرجع الأعلى لكل ما يتصل بفن العلاج ومنذ ظهوره باللغة اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، احتل مكان كتب جالينوس . ولما كان قد ترجم إلى كثير من اللغات ، منها خمس عشرة طبعة باللاتينية ، وطبعة واحدة بالعبرية فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ، فقد ظل أساساً للدراسات الأوروبية طيلة أكثر من ستمائة عام . وقد عد الكتاب المقدس فى الطب ، وقد ترجمت بعض أجزائه منذ عهد قريب إلى الإنجليزية . ويذكر عن ابن سينا نوادر من الذكاء والمعرفة فريدة فى نوعهما وذلك بالنسبة لأحوال لم تكن تخطر على بال ، مثل علاج بعض الأمراض النفسية . كما أنه كان يبدأ الحديث بدون ترتيب وأصبعه على نبض مريض . وكان عدم انتظام ضربات النبض وضعفها أو سعة اهتزازاتها ، وتوقفها المفاجىء تبعاً للمناسبات الملتزم بها تشكل كثيراً من الايضاحات بالنسبة لابن سينا . ومن دراسة النبض ، كان يصف الأعراض التى كانت تتيح له أن ينشىء مبدأ العلاج . وقادته فطانته حتى إلى تخصيص فصل عن الحب ، وإذا كان ميالا للفكاهة بحسب هواه ، فقد صنف الحب بين الأمراض العقلية . بيد أنه عندما مات فى سن الثامنة والخمسين ، وكان يعالج نفسه بنفسه دون أمل ، قال فيه بعض أهل زمانه :

رأيت ابن سينا يعادى الرجال وبالحبس مات أخس الممات
فلم يشف ما ناله بالشفا ولم ينج من موته بالنجاة

لكن فيما بعد موته بمائة عام ، كان مؤلف « الأسفار الأربعة »[1] يكشف بقدرة خلاقة متفاوتة كل التفاوت فى ابن سينا ، الدليل على وجود الله بالنسبة للبشر .

---

(١) هو ملا صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازى المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ ، وكتابه الأسفار الأربعة فى الحكمة والفلسفة ويعرف بكتاب الحكمة المتعالية فى مسائل الربوبية ، طبع فى طهران ١٢٨٢ (معجم المطبوعات لسركيس ص ١١٧٢) . (المترجم)

وقد لانستطيع أن نترك ابن سينا دون أن نتحدث ببضع كلمات عن أحد شراحه وهو ابن النفيس (١٢١٠ — ١٢٨٨) .

وهذا الطبيب الذى لم يكن قد مارس التشريح البتة لافى الإنسان ، ولا فى الحيوان كشف بقوة الاستدلال وباستخدام مؤلفات جالينوس نفسه أن الدم لايستطيع أن يمضى عبر حاجز القلب بسبب تكوينه مع الهواء « التامور » الذى اعترف بصحة وجوده ونظريته . وبالاستنباط البسيط كان هذا التفسير يؤكد بلانزاع وجود الدورة الدموية الصغيرة .

الأطبـــــاء :

تظل مصاير هؤلاء الناس الخارجية عن المألوف فى تآلف يثير ذلك الإعجاب الذى تتسم به الروح الشرقية ، التى اقتضت أن يكون الخلفاء أقوياء بغير حد ، والأميرات جميلات جمالا لايبارى ، والوزراء ذوى فطانة فائقة ، والأطباء ذوى بصيرة معصومة من الخطأ .

كانت شهرة الأطباء مدعومة دعما قويا ، كذلك كانت ثروتهم تزداد عندما كانوا يعرفون طريقهم بمهارة إلى البلاط ، لكن لم تكن هذه حالهم دائما ، فإذا كان جبريل بن بختيشوع وهو طبيب هارون الرشيد والمأمون والبرامكة قد نجح فى تكوين ثروة تبلغ حوالى مائة مليون من الدراهم و ٣٦ مليونا من الفرنكات الذهبية فى ٣٦ عاماً فإن بعض الأطباء المغضوب عليهم ، على الرغم من معرفتهم المشهود لهم بها مثل ابن جانى ، كانوا يعانون حال بؤس وكانوا يفتقرون إلى العواد من المرضى ، حتى فى أثناء عام كان الطاعون فيه فى حاله المتوطنة يقضى على عدد كبير من السكان .

والرازى العظيم الذى كان قد حظى بشهرة ضخمة وبذل ثروته للصالح العام ، مات ضحية منافسين حقودين . لكن أسرة بختشوع وهى أسرة مسيحية وأصلها من جنديسابور نجحت فى دعم شهرتها طيلة عدة أجيال . وقد طلب واحد منهم ، وهو جورجيس ذات يوم إلى الخليفة المنصور الذى كان قد عالجه حتى شفى من عسر فى الهضم الأذن له بالعودة إلى موطنه الأصلى فأجابه المنصور « اتق الله وأسلم وأنا أضمن لك الجنة » لكن جورجيس رد عليه فى بساطة قائلا : أنا على دين آبائى أموت ، وحيث

يكون آبائى أحب أن أكون إما فى الجنة أو فى جهنم » ، فضحك الخليفة وأمر أن يخرج إلى بلده وأن يدفع إليه عشرة آلاف دينار .

وهناك موقف آخر لطبيب عظيم هو حنين بن إسحاق ، ذو دلالة أكثر على التسامى فلقد أراد الخليفة المأمون أن يرغمه على تحضير سم لأحد خصومه ، وعندما رفض الطبيب تميز المأمون غيظا ، وقذف به فى السجن ، ثم أعاد طلبه مهدداً إياه هـذه المرة بالموت العاجل . فأجابه حنين بشجاعة « إنى لم أتعلم إلا الأدوية النافعة » وتحكى القصة أن الخليفة أنبأه أنه كان لا يريد إلا امتحانه ووثق فيه منذ ذلك الوقت ثقة عمياء .

كانت مهنة الطب بعامة مكرمة كل التكريم ، وكان المـدافعون عن هذه المهنة ينظرون إليها على أنها إلهام ربانى من المستحسن أن تمارسها دون التفكير فيما تجره من ربح . وأخذ شغف الشبان بهذه المهنة الجليلة ينمو على مر الأيام . وفى سنة ١٩٣١ كان قد سمح لـ ٨٦٠ طبيبا بمزاولة المهنة فى بغداد . وكان الوزير الطبيب ابن عيسى قد أنشأ جماعة من الأطباء راحت ترعى المرضى حتى فى المـدن والضواحى الصغيرة وفى السجون .

فى أسبانيا :

فى القرن العاشر، وفى مدينة قرطبة ، ظهر العالم مسلمة المجريطى الذى كان تلاميذه يتعلمون الرياضيات والفلك والـكيمياء والطب والذى قوبل ظهوره بحماسة عظيمة صادقة . كما كان هناك أيضا الجراح العظيم أبو القاسم الزهراوى (٩٣٦ — ١٠١٣) الذى كان طبيبا لعبد الرحمن الثالث والذى شهر باسم Nlulcassis وقد كان مقدرا أن ينشر هذا الفن طيلة قرون .

وكان الجراحون العرب يتفوقون كثيرا على جراحى العصر الوسيط فى أوربا ، وكانوا يبهيئون صناعا ذوى مهارة يدوية عظيمة لصناعة آلاتهم . وكان أبو القاسم يطبق عمليا الرباط الصناعى لمنع سيل مجارى الدم، وعلاج استخراج ماء العين (الـكتاراكتا) قبل أمبرواز باريه [1] بستة قرون ، وكان على معرفة عميقة بمرض بو الذى يطلق عليه

(١) جراح فرنسى ولد بالقرب من لافال، مات فى باريس (١٥١٠ — ١٥٩٠)، شهر بكشفه ربط الشرايين الذي أحله محل الـكي ، طبعت مؤلفاته بجميع اللغات الأوربية . (المترجم)

« تدرن فى العمود الفقرى » ويقول العالم الجراح الفرنسى إميل فورج فى هـذا المعنى «كان له الفضل فى تلخيص جميع المعارف الجراحية فى عصره . وسيبقى بحثه «التصريف لمن عجز عن التأليف » المنشور فيه ٢٠٠ صورة التعبير الأول عن الجراحة . . « وقد نشرت أيضا مؤلفات أبى القاسم فى عام ١٨٦١ » .

وينتمى إلى فترة تلى ذلك بأجيال ابن الجزار من القيران ، وابن وافد من طليطلة ، والبكرى من مرسيه وهو خبير جـدا فى خواص الأدوية ، وابن وافد الذى فاق كل معاصريه فى دراسة المواد المتعلقة بعلم خواص العقاقير ، وعالم البصريات العظيم ابن الهيثم الذى كان قد قدر لبحثه فى البصريات أن يلهم روجيه باكون وكيلر ، ولما كان فقيرا فقد نسخ — لكى يعيش — مؤلفات رياضية ، مكتسبا بذلك ١٥٠ ديناراً سنويا مغربيا . وكانت هذه بمثابة الدولارات فى هذا العصر .

فى القرن الثانى عشر ، أنجبت قرطبة ابن رشد ، وهو من أصل أسبانى عربى وواحد من أعظم الشخصيات فى الفلسفة ، وهو فى الوقت نفسه طبيب وفلكى ذائع الصيت . وإذا كنا نقرر عدم الإصابة بالجدرى مرتين فإنه يمكن أن نقرر أيضاً أن ابن رشد هو أول من كانت لديه الفكرة الأساسية لعلم الحصانة ضد الأمراض .

أشبيليه أنجبت أسرة ابن زهر ستة أجيال من الأطباء المرموقين ، وكانوا جميعا فخورين بهذه المهنة . وبرهن الطبيب الثالث (١٠٩١ — ١١٦٢) وهو ابن زهر على أنه واحد من أعظم أطباء العرب، فقد كشف عن حشرة الجرب . كما ندين له بالوصف الأول لالتهاب الغشاء التامورى وسرطان المعدة . وكتب كتابه « التيسير » استجابة لطلب صديقه ابن رشد ، وقد ترجم إلى اللاتينية وإلى العبرية . وكان له تأثير لاحدله فى الطب الأوربى . وعندما تحرر ابن زهر من علوم الأوائل ، والعلوم الإغراقية — الرومانية أو الفارسية — نظر إليه على أنه رائد للطب التجريبى . وفى زمن ابن رشد ، ظهر فى تاريخ العلوم العربية والطب العربى معاصر له ولد مثله فى قرطبة فى سنة ١١٣٥ وهو اليهودى الميمونى (موسى بن ميمون) الذى نظر إليه على أنه أعظم مفكر من بين أطباء جميع المرحلة الإسلامية فى أسبانيا وفلاسفتها . وكان أبوه عضوا بالمدرسة الثانوية

الحاخامية في قرطبة، وقاضياورياضيا ، وفلكيا، وكان سليل أسرة علماء تنهج نهج اليهود . وهو الذى درس لابنه التوراة والتلمود والرياضيات، والفلك . ولقنه ابن رشد وابن طفيل التاريخ الطبيعى والفلسفة ، وكان ابن ميمون قد زاول الطب طيلة عشرين عاما قبل أن يكتسب شهرة خاصة . وقد قيد الفضل — وزير صلاح الدين — اسمه في قائمة أطباء السلطان عندما عرف فضله . وكان تأثيره فى مادة الطب ضخما ليس بين العرب واليهود وحدهم فى الشرق والغرب ، بل كذلك بين المسيحيين وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية ودرست فى جامعات بادو ، ومونبلييه ويمجد الشاعر العربى القاضى السعد بن سناء الملك ابن ميمون بهذه العبارات :

أرى طب جالينوس للجسم وحده ... وطب أبى عمران للعقل والجسم

فلو أنه طب الزمان بعلمه ... لأبراه من داء الجهالة بالعلم

وفى الفلسفة ، نقدمه على أنه المدافع عن الفكرة العلمية ضد المذهب الأساسى للتوراة ومن ثم فى المؤلفات التى كتبها كان لزاما عليه أن يسعى إلى التوفيق بين اليهودية وبين مذهب أرسطوطاليس عند المسلمين أو بطريقة أعم التوفيق بين الدين والعقل وفى الطب ، عاون على دراسة قناة التنفس ، وألف مؤلفات ممتازة فى علم السموم . كما كان على علم بتوضيح فائدة المبادىء الأولية لعلم الصحة وتدبير التغذية .

ولنذكر أيضا من بين علماء الأندلس فى العصر الوسيط العالم النباتى العظيم والإخصائى فى العقاقير وهو ابن البيطار من مالقة (١١٩٠ — ١٢٤٨) الذى طاف الشرق واليونان بحثا عن أعشاب طبية . ويذكر كتابه « الجامع » أربعمائة نوع من نبات ، وأغذية وعقاقير يصفها ويصنفها بحسب خصائصها العلاجية ، ونظر إلى ابن البيطار حتى القرن السادس عشر على أنه أعظم عالم نباتى إخصائى فى العقاقير .

فى منتصف القرن الخامس عشر وخلال انتشار طاعون أسود فتك بأوروبا وفسره المسيحيون على أنه ظاهرة غضب إلهى ، فى هذه الأثناء قدر لطبيب آخر عظيم أن يظهر ، إنه الوزير الخطيب وهو طبيب مسلم من غرناطة ألف من أجل هذا الوباء بحثا مستندا

إلى نظرية التلوث . ويستخدم هذا البحث الذى خطط بطريقة علمية وبالمعنى الذى يدرك به المرء هذه الكلمة اليوم ، يستخدم أساساً فى نظرية الوقاية .

مدرسة سالرنو :

كانت مدرسة سالرنو المشهورة فى إيطاليا الجنوبية مركزاً لدراسات طبية بنفس الفكرة التى تقوم عليها المدارس العربية الكبيرة فى ذلك العصر . وكان المغاربة فى صقلية قد أسسوا جامعة فى بالرمو . وكانت هذه المدينة تفاخر بأطبائها الكبار الذين كانت شهرتهم المقررة عالمية .

وفى القرن الحادى عشر ، ترك قسطنطين الإفريقى ، وباعث إفريقية ، وأصله من تونس ، ترك إفريقية بعد أربع سنوات من الدراسة يقف نفسه على ترجمة المؤلفات الطبية إلى اللاتينية أولا فى سالرنو ، ثم فى دير البندكتين فى جبل كاسين حيث توفى سنة ١٠٨٧ « واستخلص قسطنطين الافريقى من جميع المؤلفين المعروفين كل ما كان يمكن أن يكون مفيداً لطبيب ما لهذا يستحق أن يطلق عليه « مجدد التآليف الطبية فى الغرب » .

فى فرنسا :

وقد نفذ أيضا الطب العربى ، منذ العصر الوسيط ، إلى فرنسا ، وسرعان ما أشربت مدينة مونبلييه ، التى تحتل موقعا ممتازا ، على الطرق التى تتجه من أسبانيا إلى إيطاليا ووادى الرون — تأثير مسلمى أوربا وأفريقية . ومنذ بداية القرن الحادى عشر عملت أوربا على الاتصال بالعالم الإسلامى العربى ، عن طريق أسبانيا على يد الأطباء اليهود ، وعن طريق إيطاليا طريق مدرسة سالرنو التى كانت تتبادل معها التلاميذ والأساتذة .

وكان سولومون من سالرنو وناثان بن زخاريوس يدرسان فى كلية مونبلييه فى منتصف القرن الثانى عشر ، وفى القرن الثالث عشر ، أسس البابا أونوريوس الثالث فى حفل رسمى جامعة مونبلييه ومنحها نفوذا تجاه جميع بلاد العالم المسيحى . لكن

التأثير اليهودى العربى استمر مدة طويلة أيضاً . وبعد أن تعلم أرمنجو اللغة العربية . وهو طبيب لفيليب لوبل ترجم « القانون » لابن سينا و « الشروح » لابن رشد . وفى العصر نفسه ، بعد أن تخرج أرنودى[1] فلبليف وهو لغوى ممتاز فى مدرسة سالرنو ، اشتغل بالتدريس فى باريس ، ثم فى مونبلييه التى ذاعت منها شهرته فى أوربا . وقد استدعاه على التوالى ملك ارجون ثم البابا ليمثلى عندهما ، ولقد كان تأثير الترجمات العربية لايقل عن التأثير المباشر لمدرسة سالرنو ، وقد سبق أن عاون جرون البليزنسى وإبراهام فى مرسليا على ترجمة « كتاب النبات » المنسوب إلى جالينوس لـكنه نقل إلى اللغة العربية ، وبعد قليل كان لزاما على جين مستشار أسقف روان أن يترجم بحثا فى الأدوية المفردة . وأخيرا أسس هنرى الثالث فى عام ١٥٧٧ كرسى أستاذ للغة العربية فى المدرسة الملكية . وكان هذا قبل كل شىء فى سبيل معاونة تقدم الفن الطبى فى فرنسا . وكانت أوربا فى عصر النهضة قد بدأت دراسة الأطباء العرب كما بدأت دراسة أبقراط وجالينوس .

---

(١) كيميائى وطبيب ، ولد فى كاتالونى عام ١٢٣٥ ، ومات حوالى عام ١٣١٢ ، حكم عليه بقانون الحرمان بسبب هجومه على تعاليم الدين الحقة ، فاضطر إلى أن يلجأ إلى صقلية ، وعندما استدعى لمالجة البابا كلنت الخامس مات فى أثناء عبوره البحر بالقرب من جنوا ، وبحوثه عن الـكحول كانت لها نتائج هامة . (المترجم)

(١٨)

الفلسفة

يظل « القرآن » طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية . فهو يضم بين أطرافه الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات فى الفكر . والمفسرون للقرآن — وهم العلماء — يمثلون المعرفة والنشاط الفكرى لأهل السنة .

بيد أن رياحاً من التحرر بدأت تهب على الشرق أثناء القرن الثانى من الهجرة قبل غزو الفكر اليونانى للعالم الإسلامى بكثير . ذلك أن مناقشات المسيحيين حول صفات الله ، وطبيعة المسيح ، والقضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، والوحى والعقل ، والمفاهيم الزرادشتية واليهودية عن مصير الإنسان والتفكير الهندى . . كل ذلك كان يساعد على تهيئة ظهور صور جديدة من التفكير الفلسفى أو الدينى . ومع ترجمة الفكر اليونانى وانتشاره على نطاق واسع ومع شروح على هذه الترجمات ، ظهر عالم جديد ملىء بالإغراء ، كان فيه رجال يبحثون فى جميع الأمور بحرية وبدون قيود ، ودون الاستناد إلى كتب مقدسة ، وإلى معجزات . وكانوا يمضون سراعاً منطلقين تجاه الحركة الجديدة للمنطق . وكان للمسلم صاحب الفكر الناقد مثل الفتى الأثينى يفاخر « باللذة » النفيسة للفلسفة . ولم يكن يخطر بباله مع ذلك أن يقطع صلته بالقرآن لأن فقهاء الشرع كانوا يسهرون على حفظه ، ومضت دراسة الفلسفة على هامش عقيدة السلف المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوحى المنزل فى « الكتاب » . وحاول بعض المسلمين أن يتخلصوا من هذا الارتباط ، لكنا قد نبالغ إذا قلنا إنهم كانوا أحراراً فى آرائهم . وعلى الجملة ، كانوا يسعون جاهدين للتوفيق بين الفكر اليونانى والدين الإسلامى . وعلى امتداد ثلاثة قرون ، قدر لهؤلاء الفلاسفة الكبار أن يدافعوا عن العقل والفهم وروح النقد . وبعد كثير من الشكوك وضروب من اليقين ، وألوان من الحكمة وأنواع من الرعونة ، بقى مقرراً أن الاسلام عرف كيف يوفق بين التوحيد وهو نتاج هام من العالم القديم السامى وبين الفلسفة اليونانية التى هى نتاج هام من العالم القديم الهندى الأوروبى . وربما لا يكون هذا أقل ما فيه من مزايا .

المعتزلة :

كان أول تعبير عن الفلسفة هو نمو مدرسة من « المنشقين » أى من المعتزلة الذين كانوا يجاهرون بضرورة التفسير المجازى للقرآن والحديث إذا تناقضا مع العقل. وكان العقل البشرى يستطيع حقاً أن يتوافق مع الايمان بشرط أن يدرك أن هناك قوة روحية كأساس لكل حقيقة ، لكن كان من المستحيل عقلا أن يتجاوز ذلك . فلما سلموا بهذا المبدأ العقلى، أنكر المعتزلة قدم القرآن ، وأعلنوا أن الانسان لا يستطيع أن يقف على ذات الله وصفاته الحقيقية ، وأن القضاء والقدر يتنافيان مع الأخلاق والمبادأة الانسانية .

انتشر مذهب المعتزلة فى نهاية القرن الثامن وفى بداية القرن التاسع فى عهد المنصور وهارون الرشيد . واستمال هذا المذهب المأمون ، ابن هارون ، وصرح به رسمياً . وكان لزاماً على المسلمين من الآن فصاعداً أن يقروا القول بخلق القرآن فى الزمان وأن يعتقدوا حرية الارادة ، واستحالة إدراك الله كما يذهب المشبهة ، لكن أحمد ابن حنبل الذى كان قد أسس عن شجاعة مدرسة أهل السنة المحافظة ، ثار باسم المذهب السلفى ، وقد ضرب بالسوط حتى سالت منه الدماء ، وقذف به فى السجن . ورأى الشعب فيه شهيداً ، وتهيأ رد فعل لهذا الحادث .

الكندى :

كانت فلسفة المعتزلة قد أنجبت من قبل رجلها الأول العظيم ، أبا يوسف يعقوب الكندى ، المولود فى الكوفة فى سنة ٨٠٣ والذى تحدثنا عنه بمناسبة الكلام عن العلم الطبيعى . واتخذ لنفسه حكمة أفلاطون الشهيرة المتعلقة بالفلسفة : « من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا » ، وكان قد درس جميع العلوم ، ولا ينسب له أقل من ٢٦٥ مؤلفاً . وكان يستمسك بالرياضيات الفيثاغورية الجديدة كأساس لكل معرفة حقيقية إلى حد أنه سعى إلى إخضاع الموسيقى ، والطب ، والصحة لعلاقات رياضية . وكان مقرباً عند الخليفتين المأمون والمعتصم على أنه مترجم وعلى أنه عالم فى وقت واحد . ونحن ندين له بترجمة كتاب « الأثولوجيا » لأرسطو .

ولأنه تأثر بهذا المؤلف المنسوب إلى أرسطو فقد أجهد نفسه فى التوفيق بين وجهات نظر أرسطو وأفلاطون، على طريقة الأفلاطونيين المحدثين ، مثل آخرين كثيرين فيما بعد . وكانت فلسفة الكندى طبعة ثانية لمذهب الأفلاطونية المحدثة لأفلاطون الذى يقوم مذهبه على فيض ثلاثى من الله ، يصدر عنه روح العالم أو العقل legos الخالق ثم يصدر عن العقل نفس الإنسان ، وإذا باشر الإنسان المعرفة الصادقة استطاع أن يحصل على الحرية والخلود . لكن فى هذه الجولة إلى الخلود ، أوشك الكندى أن يفقد الحياة . وعند ما حدث رد الفعل ضد المعتزلة ، قذف به فى السجن . وعند ما صودرت مكتبته لم يبق شىء ذو أهمية من ٢٦٥ مؤلفاً كان قد كتبها .

عند ما يرتكز النظام الاجتماعى على عقيدة ، فإن كل هجوم ضد هذه العقيدة ينظر إليه على أنه تهديد للمجتمع نفسه . وفى الواقع بعد هذه البداية من الاضطهاد كان هناك كثيرون ينتظرون الفرصة ليرفعوا رءوسهم من جديد : وهؤلاء هم الوطنيون الفارسيون ، والمنحرفون الذين يدينون بمذهب عبادة الإله مزدك . واليونانيون ، والمسيحيون ، وجميع هؤلاء الذين كان قد أقلقهم هذا الغزو فى لحظة ما . وعلى ذلك لم يكن فى استطاعة عقيدة أهل السنة إلا أن تقاوم بشدة فمن سنة ٨٤٧ إلى سنة ٨٥١ ألغى المتوكل الاجراءات المتحررة التى أوجدها المأمون وطرد الموظفين المعتزلين ، وأبعد المذهب الشيعى ، ودمر المزار الشهير للحسين الذى كان يجذب إلى كربلاء كل عام عشرات الآلاف من المسلمين .

أما من جهة اليهود والمسيحيين ، فقد أعيد بقوة « شروط عمر » . وصارت القاعدة العامة أنه عند ما كانت عقيدة أهل السنة تنتصر ، كان التسامح الدينى يتناقص ولهذا كان لزاماً على غير المسلمين أن يرتدوا بشكل ظاهر شرائط صفراء على ملابسهم، كما أنه ليس لهم الحق فى امتطاء صهوة الجياد ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يمتطوا بغلة أو حماراً . كما كانوا لا يستطيعون أن يقيموا كنائس جديدة أو معابد يهودية ، وكان لزاماً عليهم أن يقصروا أنفسهم على إصلاح القديم من هذه الكنائس ومن تلك المعابد . ولا يجدر بنا أن نبالغ فى رد الفعل الطبيعى فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة ، وفى قلب الإسلام نفسه ، كما فى معظم الأديان ، بلغت العداوة بين الفرق المختلفة مبلغاً أكثر مما كان بينها وبين الكفار من غير المسلمين . ولكى يقود المتوكل هذه السياسة

الحازمة ، كان عليه أن يعتمد على الشعب الذى ظل مخلصاً فى مجموعه لعقائده القديمة ، وعلى الحرس التركى الذى اعتنق الدين الإسلامى أخيراً ، والذى كان متحمسا حماسة المنضوين تحت راية دين جديد . وكان الأتراك من جهة أخرى أعداء بالوراثة للفرس وكانوا يجهلون كل شىء فى الفكر اليونانى . كما أن الخلافة سيقت إلى فقدان امتيازاتها السياسية شيئاً فشيئاً حتى انتقلت تدريجيا بين يدى رئيس الحرس التركى ، وأمير الأمراء .

الأشعرى:

ارتضت فيما بعد القوى الرجعية المؤمنة بانتصارها أن يكون ميدان المعركة هو الأفكار ، وحاول علماء الكلام فى هذه المعركة فى بداية القرن العاشر التوفيق بين العقيدة والفلسفة اليونانية . وكان لابد لهذه المحاولات أن تستأنف فى أسبانيا الإسلامية فى القرن الثانى عشر على يد ابن ميمون ، لكن مجالها كان الديانة اليهودية ، ثم فى القرن الثالث عشر على يد توماس الاكوينى بالنسبة للمسيحية . وقد وجد المناطقة حليفاً على غير انتظار فى الأشعرى (٨٧٣ — ٩٣٥) وهو معتزلى قديم عاد إلى عقيدة اهل السنة فهاجم — بجميع أسلحته الخاصة — النظريات التى كان قد درسها قديماً ودافع بحرارة عن مذهب القضاء والقدر ، وأكد انتصار مذهب أهل السنة والجماعة .

ولم يستصوب المسلمون هذه المعركة التى أثارها المناطقة والتى انحرفت عن روح أهل السنة . وكانوا يتألمون كلما رأوا الدين خاضعاً لمناقشات فكرية ، فاضطر المتكلمون أن يقفوا هذه المعركة . وقد اكتفى المؤمن فيما بعد بالعبارة المريحة « بلا كيف » . « اعتقد فى الله دون أن تسأل » لماذا التى نجد امتداداتها القديمة فى أسبانيا أيضاً . ومنذ بضع سنوات،وفى زيارة لبعض ضواحى اشبيلية ، كان هناك زنديق عجوز ساجد أمام تمثال للعذراء الموقرة مشدوهاً ، وشفتاه تتمتم كأنه كان يتحدث وعيناه تفيضان تأثراً . ولما حسب نفسه ملتزماً بتوضيح موقفه هذا فقد قال فى بساطة « إنى لا أومن ، لكنى أصلى »

الفارابى :

اعتصمت الفلسفة فى حلب التى كان يعانى فيها مشقة العيش محمد بن طرخان الفارابى المولود فى تركستان . وكان الفارابى قد درس المنطق فى بغداد ، وفى حران على أساتذة مسيحيين ، ولم يكن يبالى بأمور الدنيا ، فآثر مذهب الصوفية واتهم بالزندقة وهو على شاكلة الكندى ، خدعه كتاب « الأثولوجيا » لأرسطو ، وعلى مثال الأشعرى أنهى حياته بعقيدة أهل السنة . وإذا كان قد أعلن فى شبابه أن «الأزلى» لا يمكن إدراكه بالفكر البشرى ، فإن هذا لم يمنعه — وقد وصل سن النضج — من أن يعطى وصفاً مفصلا عن الألوهية ، وأن ينقح براهين ارسطو طاليس على وجود الله ، مثله فى ذلك مثل القديس توماس الأكوينى الذى كان لزاماً عليه أن يترسم ذلك فيما بعد بثلاثة قرون وأخيراً ، لم يكن رأيه فى مشكلة الخلود مفهوماً مثله فى ذلك مثل أرسطو . توفى الفارابى سنة ٩٥٠ فى دمشق . ومن بين التسعة والثلاثين مؤلفاً التى خلفها لنا « إحصاء العلوم » وهو موجز لكل العلوم فى عصره . وتشكل دائرة معارف أخرى من مؤلفاته وهى « المدينة الفاضلة » وصفاً لقانون الطبيعة الذى يتصوره على أنه المعركة الدائمة لكل تنظيم ضد كل التنظيمات الأخرى كما أن المجتمع خرج من قانون الغابة ، تبعاً لرأى بعض الناس ، عن طريق ميثاق بين الأفراد الذين يرتضون قيود العرف والقانون ، وتبعاً لبعضهم الآخر عن طريق هزيمة الضعفاء فى هذه المعركة وهم الذين يتحولون إلى أرقاء وآلات بين أيدى الأقوياء وذوى السلطان . ويشير هذا القانون إلى أن الدول نفسها هى تنظيمات متنافسة وأن معركتها ليس لها حكم غير القوة . وانتهى الفارابى من هذا بالحث على مبدأ الملكية القائمة على عقيدة دينية قوية ، ويقف موقف المعارضة من إتخاذ أسلوب القوة والكفاح ليعظ أخلاقية البذل والحب .

اخوان الصفا :

بيد أن الميل إلى مناقشة القضايا الفلسفية فى بغداد لم يختف . وبعد عشرين عاماً من وفاة الفارابى ، أسس أحد تلاميذه جماعة من العلماء . وتبدو هذه الجماعة غير مكترثة بالأصل الدينى لأعضائها وبانضمامهم إليها ، وكانت مهمة هذه الجماعة خاصة بالمنطق وفقه العلوم .

وانتظمت جماعة مشابهة فى البصرة سنة ٩٨٣ ، لكنها استمسكت بأن تبقى سرية لكيلا تنصرف عن مآربها ، وكان لها كثير من المكانة والأثر ، وحصلت على مزيد من النتائج ، وأطلق عليها « إخوان الصفا[1] » ، وكانت تشكل علماء ، وفلاسفة مهتمين كل الاهتمام بسمات الضعف التى كانت عليها الخلافة ، وبفساد الأخلاق . وفقر الشعب . وكان إخوان الصفا يبحثون للوصول إلى تجديد فى السياسة وفى الأخلاق عن طريق إدماج التشريعات الإسلامية ، ومذهب الشيعة ، ومذهب الصوفية ، والأخلاق المسيحية ، والفلسفة اليونانية . وكانوا يزعمون أن الحقيقة تنشأ من ملاقاة الأفكار أكثر من انعزالها . وكانوا يتحادثون بحرية عن جميع القضايا الجوهرية ، ولخصوا النظام الناتج عن تعاونهم فى إحدى وخمسين رسالة تمكس رغبة محدودة تحديداً جيداً لإذاعة أحكام بحسب منهاج معد إعداداً كاملا .

فى هذه الرسائل نجد شروحاً علمية متعلقة بمعظم الظواهر الطبيعية ، وعقيدتها الدينية غنوصية وأفلاطونية محدثة : فمن العلة الأولى ، أو بعبارة أخرى من الله يفيض العقل الفعال الذى عنه يفيض عالم الأجسام والأرواح ! ويتطلب اتحاد الروح بالعقل الفعال صفاء مطلقاً ، ويقدم العلم ، والفلسفة والدين الوسائل للوصول إلى هذا الصفاء . وأخيراً ينظر إلى العقل — بفضل المعرفة — على أنه حر فى تفسير « العبارات المشكلة من القرآن بالمجاز والتى كانت مسايرة لفهم قوم غير مصقولين فى الصحراء » . وكانت مؤلفات إخوان الصفا الواسعة الانتشار تمثل فى الحقيقة الفكر الإسلامى فى عصر العباسيين . وقد أحرقها أهل السنة فى بغداد على أنها زندقة فى سنة ١١٥٠ . لكنها كانت قد مارست من قبل تأثيراً حقيقياً فى فلسفة ذلك العصر .

ابن سينا :

لقد ذكرنا اسم ابن سينا على أنه أشهر أطباء تاريخ العصر الوسيط . ولم يهتم ابن سينا بأن يكون « رئيس الأطباء » ويمكن أن ينظر إليه على أنه ذروة الفلسفة

---

(١) فى كتاب للأستاذ رينولد ا . نيكلسون ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى فصل قيم فى سبب هذه التسمية فيرجع إليه من يريد التوسع فى هذا الموضوع . (المترجم)

العربية فى الشرق . كان يتذوق المنطق ، ويشغف دائماً بالتعريفات الدقيقة وبالتصنيفات وبالإيضاحات التي كانت ملحوظة جداً فى كتابه « القانون » وكان ابن سينا يبجل كتب أرسطوطاليس ، وقد حذا حذوه فى « كتاب الشفاء » وعمل له موجزاً فى كتاب « النجاة » .

فى هذه القضية المشهورة : هل توجد الكليات خارجة عن الأشياء الفردية ؟ يقدم ابن سينا الإجابة الكلاسيكية ويعلن أنها كانت موجودة ، قبل الكثرة فى العقل الإلهى ، وفى الكثرة التى تتجلى فيها ، (وبعد الكثرة) فى حالة من التجريد فى ذهن الإنسان لكن فى العالم الطبيعى ، لا يمكن أن توجد الكليات خارج الأشياء الجزئية .

وقد أعطى ابيلارد abelard وتوماس الأكوينى نفس الإجابة بعد قرن من المناقشة وهو رائد عظيم ، وقد لا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان رائداً عظيما بلغ الغاية . ولم يكن علم « ما وراء الطبيعة » لابن سينا شيئاً آخر غير أنه موجز لما قدمه اللاتينيون بقرنين من بعده على أنه الفلسفة المدرسية . وفى هذه الميتافيزيقا نجد خلاصة مذهب الفارابى وأرسطوطاليس : الممكن والواجب ، والكثير والواحد ، ولكى يفسر ابن سينا مشكلة الكثير الممكن والمتغير الذى يوجد فى الواحد الواجب الوجود والثابت ، يفترض وجود عقل فعال متوسط بينه وبين النفس . وينحو هذا المنحى ، لكى يحاول أن يثبت مبدأ قدم الذات الالهية مع الانتقال من العدم إلى الوجود ، وهى المشكلة التى حلها أرسطو بقوله بقدم العالم الهيولانى ، فيقترح العالم الفيلسوف حلا توفيقياً لا يصطدم بمنطق علماء أهل السنة : الله سابق على العالم ، ليس فقط فى الزمان ، بل بالذات ، فهو الوجود بذاته والعلة الأولى . وبالنسبة إلى ابن سينا ، كل المخلوقات ما خلا الله ممكنة الوجود ، وتتطلب علة لوجودها واجبة ولا غنى عنها ، وهكذا نمضى فى سلسلة العلل إلى علة واجبة بذاتها ، فالواجب بذاته من الضرورى أن يوجد ، إذ لولا العلة الأولى ما أمكن وجود الموجودات . ولأن كل مادة غير ممكنة الوجود ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادياً . وفى الحقيقة ، هذا البرهان على وجود العلة الأولى بذاتها التى يقترحها ابن سينا لم تكن شيئاً آخر غير تكرار البرهان الأونطولوجى المعروف على وجود الله الذى قال به القديس امبراوز (٣٤٠ — ٣٩٧) قبل ذلك بعدة قرون : « الموجود الذى ينشأ من ذاته

الوجود ، موجود إذا كان له ذات ، والله هو الموجود الذى ينبع من ذاته الوجود ، والله ذات ، إذن الله موجود » .

ويرى العقل الأول كل شيء من ماض وحاضر ومستقبل ليس فى الزمان فحسب ، بل فى الحال ، لأن تعقله أزلى . لكن الله ليس هو العلة المباشرة للأفعال ، فهى تملك فى ذاتها أهدافها وغاياتها ، إذن فالله ليس مسئولا عن الشر الذى هو ثمن الحرية والذى ربما يكون الخير لكل شيء .

بهذه الحجة الوحدة وفق ابن سينا بين إيمان الجمهور والفلسفة . ووجود النبي ضرورى ليعرض على الأمة قوانين الأخلاق فى عبارات مفهومة وذات أثر فعال . لهذا عندما يضع دعائم التقدم الاجتماعى والأخلاق على هذا النحو ، فإنه يسلك بحق مسلك الرسول المبعوث من عند الله . وقد يرتاب الفيلسوف فى خلود الجسد ، لكنه يعترف أنه لو أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد أعلن مثلا عن سماء روحية فقط ما كان أحد قد اتبعه قط ، وما كان العرب قد تجمعوا فى أمة واحدة منظمة قوية ، وفى الحقيقة تفوق ابن سينا على منافسيه بوضوح أسلوبه وإشراقه ، وفى القدرة على معاضدة الفكرة المجردة وتوضيحها بفضل قصص فكاهية كثيرة الاستعارات مستندة إلى أسلوب شائق ، وكذلك برحابة معرفته العلمية والفلسفية الفريدة فى نوعها ، وكان تأثيره كبيراً فى العالم الاسلامى والعالم المسيحى وكان القديس توماس الأكوينى يتحدث عنه فى شيء من الاجلال كما يتحدث عن أفلاطون واستطاع رينان أن يسجل بأن البرت الكبير[1] كان مديناً بكل شيء لابن سينا . ومن ثم قد لا يستطيع أحد أن ينكر أن كتابى الشفاء والقانون لابن سينا يرسمان ذروة الفكر فى العصر الوسيط ، ويشكلان محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية فى تاريخ الحضارات .

التصوف :

إن الاسلام الذى نشأ فى بيئة واقعية لم يكن تصوفياً بالذات ، لكنه كان لا يستطيع على الرغم من صعوبات تفسير القرآن أن يتجنب ثورة روحية .

---

(١) لاهوتى وفيلسوف من الآباء الدومينيكان، توفى بكولونيا بألمانيا . (المترجم)

كان بعض القوم الورعون لايقرون التوفيق بين العقيدة والفلسفة ، وكانوا يحتجون ضد الترف وانحلال الأخلاق . كان هؤلاء المثاليون يحبيبون فى التجرد من لذات الدنيا والسمو إلى قوة الارادة والزهد حتى الاتصال مع الله ، وقد انتشرت — بلا مراء — هذه الحركة فى ظل التأثير البعيد للفلاسفة الهنود وللترجمات الأفلاطونية الحديثة ، وكذلك بالاتصال بالرهبنة المسيحية ، وقد أطلق على هذه الحركة مذهب الصوفية نسبة إلى الصوف الذى كان يرتديه النساك الأول .

حتى القرن العاشر ، كان كل ما يميز الصوفيين بساطتهم فى الحياة وتقواهم ، وكانوا يجتمعون حول قدوة صالحة لاقامة الصلاة والتسامى بأنفسهم معاً ، وكان بعض الصوفية يعيشون فى عزلة زهاداً . ورويداً رويداً انتشر الأولياء غير المعروفين فى صدر الاسلام فى أعداد لا حصر لها من بين الصوفية بحيث إن الخيال الشعبى نسب إليهم قدرات خارقة وروى عن أمرهم ظواهر من الجلاء البصرى والشعور عن بعد تثير الاعجاب . وأرسى الغزالى أسس التصوف مستمدة من عقيدة السلف . واستطاع المؤمنون أن يبحثوا عن النجاة بالجذب والاشراق ، كما سعوا إلى ذلك بالأعمال الصالحة ، بيد أن أهل السنة رأوا تكفير بعض المذاهب على أنها زندقة ، تلك المذاهب التى نشرها بعض المسلمين لكى ينحرفوا عن الشريعة الاسلامية ، ولكى يخففوا اتجاهات ثورية . وفى مذهب الشيعة ، كانت فرقة الاسماعيلية تجذب بخاصة الساخطين . وفى سهولة ويسر تشكلت هذه الفرقة من جماعة سرية ، وجمعت شخصيات من ذوى السلطان وبعض المثقفين ، وبعثت دعاة لنشر مذهبها وأصبح مع الزمن مذهب الشيعة قوة هامة ، وانتشر فى أفريقية الشمالية ، وأنشأ أسرة الفاطميين .

فى سنة ٨٧٤ ، اعتلى فلاح عراقى نشيط كل النشاط هو حمدان قرمط ، رياسة الفرقة وأنشأ على شاطىء الجزيرة العربية فى الجنوب الغربى من الخليج الفارسى فى الأحساء ، جمهورية اشتراكية وعلمانية . وبعد أن دفع أتباعه خمس أموالهم ودخولهم إلى بيت المال ، طالبوا بالمساواة العامة ، وشيوعية الأموال والنساء ، وألغوا العبادات وأيام الصيام ، والحج إلى الأماكن المقدسة ، واعتمدوا كالقائلين بحرية التدين أو عدمه تأويلا مجازياً للقرآن . لكن لم يكن هذا كل شىء . فبعد أن أنشأ قرمط ومريدوه دولة مستقلة على الشاطىء الغربى من الخليج الفارسى ، جمعوا جيشاً قوياً

ونهبوا سوريا بعد أن هزموا جيش الخليفة فى سنة ٩٠٠ ، واستولوا على البصرة ، والكوفة ثم فى سنة ٩٢٩ تحت قيادة رئيسهم أبى طاهر الجنابى ، استولوا على مكة ، وعذب ثلاثون ألف مسلم ، ونهب بيت المال ، وكذلك كسوة الكعبة والحجر الأسود . وعندما غلبت الحكومة القرمطية على أمرها رويداً رويداً من جراء جرائمها واغتصابها للأموال ، لم تستطع أن تقاوم ثورة أتباعها أنفسهم الذين انتهوا إلى إقرار النظام وإعادة الملكية من جديد .

الغزالى :

كان أهل السنة يناضلون بكل جهدهم ضد الخارجين عليهم من شق الفرق ، فالمؤلهة يعتقدون بإله واحد وبالخلود وينكرون الخلق والبعث ، والمقرون بوجود الاله يعترفون بالألوهية وينكرون خلود النفس ، والماديون لم يعترفوا بوجود الاله .

بيد أنه فى بغداد ، كان هناك عالم دينى شاب هو أبو حامد الغزالى يجذب أهل العلم إلى درسه فى المدرسة النظامية السنية . وكانوا يأتون من كل بلاد العالم الإسلامى ليشيدوا بجدله وقوة بيانه . ولد فى طوس من أعمال خراسان فى سنة ١٠٥٨ ، وتوفى أبوه وهو صغير السن فتولى أمره أحد الصوفية ، وأرسله إلى نيسابور لكى يدرس الشريعة والدين والفلسفة . وهناك ، بمدعدة سنوات من النجاح المتزايد ، أصيب الغزالى بعرض غريب أدى إلى شلل أعضائه ، وحبسة كلامه ، فلما أحس بدنو أجله ، راح يستشير طبيبا وصف مرضه بأنه مرض عقلى دون أن يفسر السبب الحقيقى للمرض . وقد أعلن الغزالى فيما بعد بأن أزمة خطيرة روحية كانت قد دفعته إلى أن يضع موضع المناقشة جميع مبادىء المعرفة ، وعندما يئس من عدم استطاعته إسنادها إلى العقل ، وقع الفيلسوف فريسة يأس عميق كان هو السبب الحقيقى لمرضة . وقد تخلى الغزالى عن كل شىء ، عن منصبه فى التدريس ومقرراته ، ولاذ بالعزلة . وكان لزاما عليه أن يعيش أحد عشر عاما فى الزهد ، ممارسا المذهب الصوفى ، وباحثا فى العالم الداخلى عن سند افتقده فى المعرفة ، ثم شرع فى كتابة مذهبه . وبعد أن أخضع نظرية الحس لامتحان دقيق ، انتهى إلى أن الحقيقة التى يستند عليها المذهب المادى تشوبها الأخطاء .

واتخذ على سبيل المثال خطأ الحس البصرى الذى يشير إلى أن النجوم صغيرة على حين أنها لكى تكون واضحة على الرغم من بعدها المتناهى لابد أن تكون ذات حجم ضخم كبير . كما أنه بعد أن جمع عدداً معينا من أمثلة أخرى لأخطاء الحس، انتهى إلى أن الحس لا يمكن أن يكون بذاته برهانا على الحق ، ولكن ينبغى أن نقرر أن العقل المستند إلى الحس يعد دليلا أصح . ويحقق الغزالى هذا الدليل بطريقة ميتافيزيقية فى التأمل الصوفى الذى يعد منبعا للحقيقة أدنى إلى القلب من الفلسفة . وعلى ذلك فقد كتب « تهافت الفلاسفة » الذى يوضح أن العقل نفسه يتجه بالإنسان إلى الشك ، وبالمجتمع إلى الافلاس ، وبالحضارة إلى هلاك محقق . وعند ما وصل الغزالى إلى هذه الدورة من وجوده الروحى ، هجر عزلته ، واستأنف تدريسه فى نيسابور . وبكل حزم شبابه قام يدافع وقتئذ عن عقيدته السلبية الجددة ، والتى نشرها فى مؤلف من أعظم مؤلفاته شهرة ، المعنون بعنوان معبر جدا : « كتاب إحياء علوم الدين » . وفى هذا العرض التام للصوفية ، يتحاشى بعناية مغالاة المذهب الإشراقى ويوفق بين هذا المذهب والدين دون أن يقلل من شأنه ومن وجهة نظره أن المعرفة ليست بمهنة ، ولا بحرفة دنيوية إنها على العكس فيض إلهى من القلب ، وصلاة داخلية ، ووسيلة يمارسها الضمير الإنسانى للتقرب من الله .

نستطيع أن ننظر إلى الغزالى على أنه المصلح الأكبر للدين والمفكر الأكثر أصالة ، والعالم الدينى الأكثر علوا فى العالم الإسلامى . ولم يسبق أبداً للشكاك والفلاسفة أن صادفوا خصما متشدداً غاية فى الدقة مثله . ولكن ، فى المغرب عندما استنكر أهل السنة مؤلفه ، أحرقوا « الإحياء » فى احتفال أمام باب مسجد قرطبة الكبير . وهذه كانت حركة من التقوى الوضيعة بحثا عن مناصب ومصالح دنيوية . وعلى الرغم من رد الفعل هذا ، وعلى الجملة ، فإن علماء جميع الأديان بل المسيحيين أنفسهم رجعوا إلى مؤلفه . ودام تأثيره بعض الوقت ، وبعد عدة سنوات من وفاته ، كانت الزندقة المكبوتة التى بعثت من جديد حتى سنة ١١١١ ، تتحاشى الظهور مرة أخرى ، وكانت الفلسفة لا تجسر كثيرا على الظهور على الرغم من انتمائها إلى الاسم العظيم ابن رشد

ابن رشد :

كان ملوك أسبانيا المسلمون يتذوقون بقوة مع ذلك البحوث الفلسفية ، وكانوا ينكبون عليها عن إخلاص : ومن المقرر أنهم كانوا يعدونها ضارة بعامة الناس ، وصار لزاما على الفلاسفة أن يظهروا الحرص والحذر فى كتاباتهم . وكان ممثلهم الأعظم والأخير تاريخيا ابن رشد الذى دخل فى رعاية بلاط الموحدين قرابة سنة ١١٥٣ نتيجة لقابلتين تاريخيتين دبرهما بمهارة ابن طفيل . وهو طبيب ، وكاتب ، ووزير عند الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ولم يكن للحسد الذى تخلقه الزمالة أثر فى نفس ابن طفيل من ناحية ابن رشد ، وهو طبيب وفيلسوف مثله .

وابن طفيل المسمى Alupacer عند الغربيين هو فى الحقيقة مؤلف القصة الفلسفية الأكثر جاذبية والأكثر ابتكارا فى العصر الوسيط : « حى بن يقظان » فهو يوفق فى فى القرن الثانى عشر فى شمال أفريقية بين الفلسفة والتصوف . وعندما ترجم إلى اللاتينية فى سنة ١٦٧١ ، وإلى معظم اللغات الأوربية فى سنة ١٦٧٢ وبخاصة إلى اللغة الانجليزية ، أوحى بقصة روبنسن كروزو لدانيل دى فو وترجم إلى اللغة الروسية فى سنة ١٩٢٠ ، وإلى اللغة الأسبانية فى سنة ١٩٣٤ .

وبطل قصة ابن طفيل طفل ترك وشأنه فى جزيرة مهجورة ، وأرضعته غزالة فقدت صغيرها . فأطعمته لبنها ، وتعهدته بحنان . وترعرع فى الطبيعة ، ولعب مع حيوانات صغيرة ، وروضها ، لكن الغزالة أمه ماتت . وأنكر هذا الموت وشق صدرها وبحث عن روحها ، وهى أصل الحياة ، فلم يجدها . ومن ثم أخذ يلاحظ ويفكر ويجرب : شق بطن حيوان حى آخر بحثا عن هذه الروح التى لا يمكن إدراكها . وكان الجراح تروسو[1] يقول فيما بعد بسبعة قرون « سأعتقد فى وجود الروح عندما أجدها فى نهاية مبضعى » لكن بطل ابن طفيل فسيولوجى وسيكولوجى فى

---

(١) طبيب فرنسى ولد فى تور ، ومات فى باريس (١٨٠١ — ١٨٦٧) ، ألف كتابا عن « العيادات » وبحثا عن « الطب الوقائى » بمعاونة الطبيب بيدو ، ومات مصابا بالسرطان . (المترجم)

وقت واحد ، ولحسن الحظ ميتافيزيقي كذلك ، فهو يرقى إلى فهم العالم العلوى ويجد تدريجا ما كان يبحث عنه ، ألا وهو تكامل الروح فى الوجود العظيم للعالم .

وعندما نزل فى الجزيرة رجل متصوف يبحث عن العزلة ، علم حى بن يقظان القراءة وحثه على نشر الحقائق السامية التى عرف كنهها وحده . وراح الاثنان يهديان العوام ويقرران أن الحقيقة الخاصة ليست سهلة على الإدراك . وأنها لكى تنفذ إلى العقول الفجة لابد من تغليفها بالأساطير والمعجزات والاحتفالات ، وبالاختصار بجميع الرموز التى تشكل على وجه الدقة المذاهب الدينية المنزلة . وفى مواجهة الرجال الذين لايستطيعون فهمها ، يعتذران عن تطفلهما ويحثان مستمعيهما أن يحافظوا بأمانة على دين آبائهم، وأن يصموا آذانهم عن ضلالة الأفكار الجديدة . ثم يعودان إلى جزيرتهما المهجورة للعيش فى الحياة العلوية التى يتميز بها قليل جدا من الرجال ، والتى هى مصير الأرواح الكبيرة .

ولد ابن رشد فى سنة ١١٢٦ فى قرطبة التى تولى فيها جده وأبوه منصب القضاء . وكان هو نفسه قاضياً فى اشبيلية وفى قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب يوسف إلى مدينة مراكش كطبيب أول فى بلاط الموحدين فى سنة ١١٨٢ . وكان هذا البلاط يرعى الفلاسفة على شرط أن تكون مؤلفاتهم بعيدة الغور فى آرائها . لكن يجب أن نعتقد أن المرء كان يفهم منها بعض الشىء، وعند مارحل أبو يوسف يعقوب فى إحدى غزواته ، تخلى عن الفلاسفة من أجل أن يكسب ثقة الفقهاء ، وذاق ابن رشد من هذا الحاكم نازلة عابرة ، ثم عاد إلى البلاط وأبعده فى عام ١١٩٤ لكى يرضى غضبه الرأى العام ضد إلحاده . وعند ما منحه الخليفة عفواً عاماً واستدعاه ، مات فى نفس العام فى العاشر من ديسمبر فى مراكش . ونحن نعرف أنه كان طبيباً عظيماً . وكان فيلسوفاً أعظم . وأبو يعقوب يوسف الذى كان قد أدهشه بمعرفته منذ المقابلة الأولى ، طلب منه شرحاً على كتب أرسطو فظفر هذا الاقتراح من ابن رشد بكل قبول ، فقد كان ابن رشد يعتقد أن الفلسفة كلها اجتمعت فى أرسطو ، وأن من واجبه أن يشرحها . وكتب لكل مؤلف من مؤلفات الفيلسوف اليونانى تلخيصاً وشرحاً أوسط ، وشرحاً أطول . وكانت هذه بحوثاً حقيقية على طريقته وذات تحليل ثاقب الفكر ، بعيد الغور استحق بها ابن رشد أن يظل الشارح المعظم لأرسطو بالنسبة للغرب كله

وفوق مؤلفاته عن أرسطوطاليس ، نحن مدينون له كذلك برسائل فى علم النفس ، وعلم ما بعد الطبيعة ، والدين ، والمنطق والفقه . وعلى النقيض من الغزالى يؤكد ابن رشد حرية الفيلسوف فى البحث عن الحقيقة ، باقراره مع ذلك بضرورة استخدام الكتب المنزلة ، بالنسبة لهؤلاء الذين لايستطيعون أن يسلموا إلا بآراء فى متناول عقولهم تجاه العلل الأولية . ويقرر الفيلسوف بالنسبة لعقول أكثر تطوراً أن المذهب الدينى المفسر تفسيراً رمزياً يمكن أن يتفق مع كشوف العلم والفلسفة . فما الذى يمكن أن نأخذه على ابن رشد وهو يحدثنا بهذه العبارات : « الحركة أبدية ، ومستمرة ، وكل حركة لها علتها فى حركة سابقة . ولا حركة بلا زمان . ولا يمكن تصور الحركة بغير بداية وبلا نهاية ، والخلق خرافة أما العالم فهو خلق مستمر من الله الذى هو نظام العالم وقوته وروحه » .

ويتركب العقل البشرى من عنصرين : العقل المنفعل الذى يشكل جزءا من الجسد والذى يفنى معه ، والعقل الفعال وهو فيض إلهى ، لا يتكثر مع الأفراد وهو وحده الخالد . وانطلاقا من هذا التعريف ، يوازن ابن رشد بين فعل العقل وفعل الشمس التى تجعل الأشياء مضيئة ، ولكن تبقى فى كل مكان وعلى الدوام واحدة . وفى الحق إنه لا وجود للعالم اللهم إلا بالنسبة للعقل الذى يدركه ، وفكرته عن الجنة أنها الحكمة الهادئة والخبرة للحكيم . وكانت هذه كذلك ما انتهى إليه أرسطوطاليس .

ويلبل ابن رشد أكثر من أى مفكر آخر ، العلماء والمثقفين من المسيحيين فى العصر الوسيط . وأثار هذا الفيلسوف من قبل رد فعل لدى المسلمين ثم لدى اليهودية وأخيراً لدى المسيحيين . ولم يكن مع ذلك ملحداً ، أو غير مؤمن كما قيل عنه ، لكنه كان مفكراً منطقياً يدعو إلى حق إخضاع كل شىء إلى الرأى وإلى العقل ماخلا العقائد المنزلة . ومع ذلك ، بينما كان الفلاسفة يلاءمون بمامة بين مذهب أرسطو وبين الواجبات الدينية ، أخضع ابن رشد العقائد إلى الحد الأدنى فى القابل للتوفيق مع أرسطوطاليس . ومهما يكن فان المسلمين أسرعوا فى تنفيذ أمر الخليفة المنصور الذى كان قد فرض بأن تلقى فى النار كتبه الفلسفية ، وأن يقضى عليها بالنسيان . واحتفظ اليهود بمؤلفاته المترجمة إلى اللغة العبرية . ولم تكن تعليقاته لدى المسيحيين أهون من أن تزلزل بطريقة جدية إيمانهم العقائدى ، وألف القديس توماس الاكوينى كتاب « الخلاصة » لكى يناهض فكر ابن رشد ، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً آخر غير

أن ينهج نهج ابن رشد فى شروحه المتنوعة . وفى النهاية قررت جامعة باريس دراسة الفلسفة الرشدية التى هـذبتها السلطات الكنسية التهذيب المطلوب . وأصبح تأثيرها حاسماً فى كل تطور الفكر الأوروبى حتى ظهور العلم التجريبى .

وبعد ابن رشد بقليـل ، كان لزاماً على ابن ميمون وهو فلكى وعالم دينى أن يسعى أيضاً للتوفيق بين اليهودية والأرسطوطالية الإسلامية . وفى « دلالة الحائرين » وهو مؤلفه الفلسفى الرئيسى ، لم يتردد ابن ميمون فى محـاولة تفسير تنبؤات الأنبياء بتمثيلها بتجارب روحانية . ووصف علماء اللاهوت اليهود كتابه على أنه كتاب ضار ، ومع ذلك كانت الأفـكار الفلسفية التى نشرها ذات منهج مبتكر ومتنوع عن أفـكار ابن رشد التى كانت تتشابه أيضاً فى كثير من جوانبها مع آراء هذا الأخير .

وصفوة القول،أنه استجابة لحاجة الفـكر وللتطور العقلى استهدف فلاسفة الإسلام فى المغرب التوفيق بين الإيمان ؛ والعقل ، والدين والعلم ، وبهذا الحق أنشأوا الحلقة الأخيرة للسلسلة التى نقلت الفلسفة اليونانية من الشرق الأدنى إلى الغرب اللاتينى .

نقلة طليطلة :

إن الجهد العجيب الذى حققه نقلة المؤلفات اليونانية فى الشرق فى القرن التـاسع تجدد فى اسبانيا ، ولـكنه كان هذه المرة فى إطار اللغة اللاتينية ، وكانت المعرفة العربية تشكل جوهر هذا الجهد .

افتتح ريموند رئيس أساقفة طليطلة بداية هذا الجهد بترجمة « كتاب النفس لابن سينا » إلى اللغة اللاتينية وأصبحت طليطلة بفضل ريموند فى القرن الثـانى عشر ملتقى كبار المفـكرين الغربيين فأوهار من أهل بات[١] وهرمان من أهل دلمـاسيا وروبرت من أهل رتين[٢] كانوا جميعاً يرغبون رغبة ملحة فى المعرفة ، وكانوا يأتون

---

(١) مدينة من مدن انجلترا . (المترجم)

(٢) مدينة من مدن بلجيكا . (المترجم)

إلى أسبانيا الإسلامية بحثاً عما لايجدونه فى بلادهم . وضرب الفونس العاشر — الملك العالم وحاكم قشتالة — المثل الأمثل وحوط نفسه بعلماء من جميع النحل مزدريا التاج الامبراطورى .

لم تبلغ — بدون شك — مدرسة النقلة الشهيرة فى طليطلة عظمة مدرسة بغداد . ومع ذلك وبغض النظر عن ترجمات الكيميائيين لانجد أقل من ثلثمائة مخطوط مترجم ، يخص الطب منها قرابة الثلث . وترجم جيرار الكريمونى وحده واحداً وسبعين مؤلفاً فى العلوم كانت تشكل فى ذلك العصر موسوعة حقيقية للمعارف الإنسانية التى انتفع بها مفكرون من العلماء مثل ميشيل سكوت وروجيه باكون والبير الأكبر ، والقديس توماس الاكوينى،وفنسلت البوفيسيان . وعن طريق اتساع نطاق الوثائق ذات الأصل العربى وتنوعها وهى التى استطاع جيرارد الكريمونى أن يذيعها فى البيئات العلمية يمكن أن ينظر إليه على أنه المؤثر الأكثر غزارة فى المعرفة العربية فى العصر الوسيط .

إن القرون الخمسة التى احصناها تعد أكثر القرون سمواً فى تاريخ الفكر الإنسانى . ويمكن أن نؤكد أنها جمعت باللغة العربية ثروات ثقافية أكثر من ثروات جميع اللغات الأخرى مجتمعة سواء ذلك فى العلم ، أو الطب ، أو الفلسفة .

وهكذا فان التيار الكبير للثقافة الذى نشأ فى مصر ، وفى كلديا ، وفى آشور ، وفى فينيقية ، وفى فلسطين ، والذى كان يتجه نحو اليونان ، عاد من جديد تحت شكل موحد للحضارة اليونانية فى الشرق الأدنى حيث كان العرب قد جمعوها فيه . ثم أضافوا إليها مصادر من الإلهام الهندى الذى نقلته فارس ، وضخموها بجهودهم المبتكرة ، ثم وجهوها عبر أفريقية حتى أسبانيا التى كان لزاماً عليها أن تنمو أيضاً . ومن طليطلة « المدينة ذات العقيدة الثلاثية » انتشر التيار العظيم فى مراكز الفكر العربى من جنوب فرنسا ، ووصل إلى ديركلونى وعن طريقه وصل إلى إقليم اللورين ، وألمانيا ، وانجلترا ، وكل أوروبا الغربية .

وكان العرب قد أضافوا إلى التقدم الإنسانى أهم إسهام فى العصر الوسيط .

الباب الرابع

(١٩)

الأفـــــــول

فى الأندلس

بلاط أشبيلية :

بقدر ما يتطور تاريخ الحضارة العربية ، يكون من المفيد أن نلاحظ الخصائص التى تتميز بها أصالتها . فالذى يبدو غريباً كل الغرابة هو بلا شك الوجه المزدوج لهذه الحضارة التى تتصف بالرفعة والبداوة ، وبالرقة والقسوة فى وقت واحد .

ويدهش الرجل الغربى من وجود نماذج للملوك وعظماء داخل قصورهم الشم يعرفون كيف يحوطون أنفسهم بفلاسفة وعلماء ، وكانوا فى الوقت نفسه شعراء مرهفى الحس ونماذج للقسوة البغيضة .

ويمضى كل شىء كما لو كانت الروح الشرقية قد تعودت خير الأمور وأسوأها . كان العربى شجاعاً عظيما ، وكان يتكشف كذلك أحياناً عن بدوى ثابت الجنان ، وعلى استعداد بقلب ثابت وخور لمقابلة الموت الذى يصيبه مدفوعاً بغريزة تحثه على الاستشهاد دون التفكير فى الحصول على مجد .

استمرت هذه الغريزة الموروثة عبر القرون ، وثبتتا فى بغداد وفى أشبيلية فى عهد هارون الرشيد كما ثبتت أيضاً فى عهد المنصور ، وفى عصر الفتح كما فى عصر الأفول . وهذه الظاهرة التى لا يمكن تفسيرها ، والتى لا تخص إلا رجل الصحراء لا توجد دون أن توجد له هماً مؤرقاً تجاه مستقبله .

ولا يخلو الرجل العربي له هذا الخليط من الرقة ومن القسوة التي لا تخلو قط من إثارة فضول الكاتب والفيلسوف . وربما تكون قصة حياة المعتمد في اللحظة التي دقت فيها ساعة تقهقر العرب وإعادة الفتح الأسباني والمسيحي مفعمة بالدروس .

وفي الوقت الذي أعلنت فيه أشبيلية أنها مستقلة عن قرطبة سنة ١٠٢٣ قسمت أسبانيا الاسلامية إلى ٢٣ دويلة . وكان الكثيرون يفضلون أشبيلية لسحرها ، ولشعرائها الملهمين ، ولحدائقها وورودها ، ولمرحها المشوق والدائب أبداً بالرقص والغناء . وفي هذا الموقع الساحر كان الشعراء يقبلون على المطارحات الشعرية . ويحكي ابن خلدون أنه في إحدى هذه المطارحات أنعمت ندوة لها مكانتها الشعرية بوسام على الشاعر الأعمى الطليطلي في معرض إلقائه شعراً عن الحب وحبيبته :

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان   وحواه صدري

وفي ذلك العصر ، تولى محمد بن عباد منصب القضاء الكبير في أشبيلية . وعندما عثر محمد بن عباد بطريق المصادفة على صانع حصر يشبه هشام الثالث ، الملك المخلوع ، قفزت إلى ذهنه فكرة : ماذا لو ولاه الخلافة . . ؟ ثم استولى بنفسه على الحكم . وحكم ولده عباد المعتمد الذي خلفه إشبيلية باللين حيناً والقسوة حيناً ، وعندما رضي عن نفسه أخذ يزرع الأزهار في جماجم خصومه . وتكشف هذه الفكرة الشاذة عن طبيعة الرجل ، وتشير إلى الوجه المتناقض لسلوكه . وفي سنة ١٠٤٢ عند موت هذا الملك المولع بسفك الدماء ، ورثه ولده المعتمد (١٠١٦ — ١٠٩١) في الملك وكان يبلغ من العمر ٢٦ عاماً ، وكان شاعراً بل أصبح أيضاً أعظم شاعر في أسبانيا الاسلامية . وكان المعتمد منذ شبابه يفضل سلفا صحبة المتفننين ورجال الأدب على جماعة السياسيين ومن ثم كرس نفسه للآداب ، والفنون والعلوم . وقد عرف — وهو نصير كريم للآداب والفنون — كيف يكافىء عن طيبة خاطر أحسن منافسيه الذين كانوا ينافسونه الموهبة . وكان المعتمد حكيماً في تصرفه إزاء احتفاظه بوزير أبيه ابن زيدون (١٠٣٣ — ١٠٧٣) . ويستحق منا أن نروي تاريخ هذا الوزير ، وتاريخ ميوله العاطفية كشاعر لأنهما يوضحان ما كتب في بداية هذا الفصل .

وسرعان ما أدى فشل وزراء القصر والعامريين إلى فشل الخلفاء الأمويين ، فإن أوكار المؤامرات كانت قد تجمعت بعض الشيء في كل مكان حتى في منتديات (صالونات) الصفوة من الناس . وكانت الأميرة ولادة ، وهي من بيت أموى تملك منتدى (صالوناً) أدبياً يرتاده الشعراء . وقد اشتهرت بأنها أدبية ذات أصالة على غرار كثيرات من جاريات بلاط هارون الرشيد ، فكانت تنظم شعراً على ملابسها وعلى حللها ، وكان المرء يستطيع أن يقرأ على أحد عاتقي ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالي   وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وعلى الآخر :

وأمكن عاشقي من صحن خدي   وأعطي قبلتي من يشتهيها

وعلى الرغم من مباذلها كانت ولادة عفة ، وإرضاء لهؤلاء وأولئك كانت الأميرة المدللة تدع نفسها لعشرين شاباً يولعون بها حباً . ولا يخفى التاريخ أن صراحتها بلغت حد المكاشفة في سرد قصص غرامياتها دون تردد وبحرية لا تعرف الحدود .

وليس من المفيد أن نشترك في مناقشة يرجع موضوعها إلى الوراء ألف عام تقريباً إذ لا يظهر أن الطبقة العليا من المسلمين قد تأثرت بهذه المناقشة ، وكل موقفها يتركز في هذه الوقفة المبهوتة تجاه سلوك ولادة المتحرر . ومع ذلك ، فقد حدث أن ابن زيدون أولع ذات يوم بها حباً . ولما كان يجيد اللون الغرامي ، والمديح بأسلوب بليغ ، فقد نال الوزير موعداً وعد به للمطارحة في نظم الشعر ، ثم أعقبته مواعيد أخرى كانت سبباً لمطارحات جديدة من القصائد الشعرية ، وكان كل شيء يجرى على ما يرام حتى كان يوم أغرم فيه الوزير الفتى ابن عبدوس — بدوره — بولادة الجميلة . وكان ابن زيدون الغيور يجيد كذلك الهجاء ، وقد سخر من الوزير الذي أجابه باستصدار أمر ملكي بالسجن لخيانته في العمل ، على حين أن الخائنة الجميلة دخلت في حريم فاتنها الآخر . ويناجي الوزير الشاعر في سجنه السماء المرصعة بالنجوم التي لم يعد يراه فيقول :

يا ليل خبر ألتي   ألتذ عنه خبرك
بالله قل لي هل وفى   فقال . . لا ، بل غدرك

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنـا   من لو على البعد حي كان يحيينا
ويا حيـاة تملينا بزهرتهـــا   منى ضروباً ولذات أفانينا
يا روضة طالما أجنت لواحظنا   ورداً جلاه الصبا غضاً ونسرينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته   فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا

لكن هذه القصائد الشعرية لا يمكن أن توازن بتلك التى نظمها المعتمد نفسه ، والتى تعد من أجمل المؤلفات الأدبية لشعراء العرب الكلاسيكيين .

حدث أن التقى بجارية جميلة متفننة وشاعرة هى « رميكية » التى خصصت حياتها الأدبية للمعتمد . وعندما سحر بالقائها وموهبتها ، أولع بها حباً ثم تزوجها وعاشت إشبيلية منذئذ فى أعياد ! وانهمكت المدينة — دون اهتمام — بما سيكون فى ضمير الغيب فى ترف فكرى وفنى شأن بغداد فى أجمل أيامها . ولقد شغف المعتمد حباً بابن عمار — الذى أصبح وزيره المفضل — لحلاوة شعره وتنبؤاته الرائعة :

أدر الزجاجة فالنسيم قـد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافـوره
لمـا استرد الليل منه العنـبرا
والروض كالحسنا كساه زهـره
وشيا وقـلده نداه جوهـــرا
أو كالغـــلام زها بورد رياضه
خجلا ، وتاه بآسهن معـذرا

وهكذا كان ابن عمار يعبر عن نفسه خلال قصيدة من أجمل قصائده المرتجلة . والتقدير الذى منحه المعتمد لابن عمار من أجل موهبته الفارقة فى لذة جسدية مطلقة ، ذات حساسية حادة ، سرعان ما تحولت — كما قدر لها — إلى حب جارف وحاقد . وعندما عين حاكماً على شلب ، لم يستطع الملك أن يتحمل غياب صديقه وقتاً طويلا فاستدعاه فى حضرته .

وكان الوقت عصيباً إذ كان الفونس السادس ملك قشتالة قد قرر الاستيلاء — مستغلا تفتت أسبانيا الإسلامية — على قرطبة وعلى أشبيلية اللتين لم تكونا جد قادرتين على مقاومته . وقد نجح ابن عمار بمهارة كبيرة فى سفارته لدى ملك قشتالة كيما يثنيه عن مشروعاته الحربية ، وأنقذ المدينتين مقابل جزية متواضعة . وقد كان هذا النجاح سبباً فى حمل المعتمد أن يعهد إليه بمهمة أكثر صعوبة وهى مهمة تنصيبه حاكماً على مرسية . وبقدر من الحظ ، نجح الوزير عسكرياً ، واستجاب كل الاستجابة لرغبات خليفته ، لكنه ، عندما ثمل من انتصاراته ، وأفرط فى الزهو واطمأن إلى مستقبله ، قاطع المعتمد وأعلن نفسه بدوره ملكا مستقلا . وعندما غلب الثائر على أمره ، اقتيد مكبلا بالقيود .

ومضت بضعة أيام كانت عزيمة المعتمد الغاضبة خلالها تتراخى ، وحاول الشاعر الأسير أن ينال عفوه بأن وجه إليه التماساً مؤثراً وجليلا ، فقد كان لا يعى شيئاً من هذا الالتماس ، غير أن يقلع المعتمد عن العقاب الأعظم الذى كانت تستحقه خيانته . ولما كان لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك لكى ينال عطف الملك ، فقد كان يذكره بجميل ما كان بينهما من حب . وفى بيت من الشعر ، صور بمهارة فائقة ، كان يتملقه فيه جهراً بأنه أكثر قوة من القدر . وأنه حاكم الموت نفسه .

وبين ضلوعى من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام يجلج

وقد أثار هذا البيت من الشعر النقاد من رجال الأدب ، ومن الشعراء ، لكن المعتمد وهو ذواقة ماهر ، بسبب حبه للشعر وللشاعر أيضاً بلا ريب ، دافع عن ابن عمار بقوله : « إن الله منحه ذكاء حاداً وأخاذاً » فكان العفو قاب قوسين أو أدنى . ولسوء الحظ ، عجلت بموت ابن عمار أكذوبة جديدة . فعندما استبد به غضب عنيف ، أهوى عليه بنفسه وقطعه إرباً إرباً بضربات من الطبرزين ، ثم بعد أن أعطى الأمر بغسل بقايا جسده ، صلى الصلوات الأخيرة على رفات الذى كان قد أحبه كثيراً ، وواراه التراب فى القصر المبارك .

وفى كل عام كان يبعث مسيحى يأتى إلى أشبيلية لاستيفاء فدية السلام التى كان قد تعهد بها المعتمد لألفونس السادس . وفى سنة ١٠٧٩ عندما وصل الوفد ، كان

المعتمد فى حرب مع ملك غرناطة البربرى عبدالله الزيرى الذى كان بدوره تحت سلطان ملك قشتالة . ولما أمسى الأسبانيون فى جو حربى ، بادر ، بمعاونة حرسه ، إلى الدفاع عن الحدود الأشبيلية مدعياً أن حاكمها كان تابعاً لملك قشتالة ، ما دام يدفع جزية . كما كان يوجد بين جنود المعتمد قشتاليون بنسبة كبيرة نتيجة لسياسة الفونس السادس الذى كان يوازن بين القوات الاسلامية المتنافسة ليحد من أطماع المعتمد ، وهكذا كان فرسان مسيحيون فى نزاع وجهاً لوجه فى كل من المعسكرين الاسلاميين خلال المعركة التى دارت رحاها فى كابرا ، وكانت فشلا لغرناطة . وعندما انتهت المعركة عاد الوفد حاملا الجزية من أشبيلية إلى قشتالة تحت قيادة رئيسها الذى لم يكن غير الملك نفسه .

ولم تحتفل أشبيلية بانتصارها . وكان علماء الدين يشكون من هجر المساجد ويؤاخذون رميكية على فتور زوجها تجاه الدين . وكان الحزب التقى الاسلامى يرقب أقل الأفعال والتصرفات من الملك وزوجته . وعلى ذلك كانا مضطرين إلى أن يركز كل منهما عمله فى خلق جو أكثر ملاءمة ، وذلك بأن يؤدى المعتمد بعناية واجباته كمسلم ورع ، وبأن تقف زوجته جزءاً من أموالها على مؤسسات دينية .

الموحدون :

لكن فى سنة ١٠٨٥ ، كان هناك خبر فجائى أذهل دويلات أسبانيا الاسلامية . فقد استولى الفونس السادس — توا — على طليطلة . وأدرك المعتمد أن دوره قد حان ، وأن المدن الاسلامية حتى فى توحيد قواها لن تستطيع أن تقاوم مقاومة جدية ملك قشتالة ، وليون بطل الفتح الأسبانى والمدافع عن النفوذ المسيحى . واستنجد ملوك العرب فى أسبانيا بالملك الموحدى يوسف ابن تاشفين الذى كان يحكم من الشاطىء الآخر للبحر المتوسط كل القطر الذى يمتد من بجاية إلى سوسا ، ومن تافيللت إلى السودان .

وقد وعد يوسف — الذى ألف تقاليد الحرب المقدسة ضد المسيحيين — عبر المضيق مع جنوده الصحراويين الملثمين ، وهم جنود فدائيون صادقون ، وجمع الشبان الأندلسيين

المهيئين للخدمة العسكرية من مالقة وغرناطة وأشبيلية ، والتقى بالقوات المسلحة في الزلاقة أو ساجراياس بالقرب من بطليوس فى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٠٨٦ . وقد اقترح الفونس على يوسف بقوله : « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فليكن لقاؤنا يوم السبت » وارتضى ذلك يوسف لكن الفونس شن هجومه الجمعة . وحارب يوسف والمعتمد بكل شجاعة ، فكانت هذه كارثة للمسيحيين أفلت منها الفونس مع ٥٠٠ رجل ، لكن الفارس البربرى الكبير الذى لا تفارقه عزة النفس الإسلامية أدهش الجميع بعودته إلى أفريقيا دون غنيمة .

ولما خشى الفونس عودة الهجوم من قبل العرب ، اهتم بشكل جدى آنئذ بجمع جيش كثير العدد وحشد كل طبقة الأشراف القشتالية . وقد أقلق هذا الإجراء المعتمد ، فقرر أن يدعو يوسف مرة ثانية لكى ينزل الهزيمة بطريقة حاسمة بالتنين المسيحى ، وعاد فى الحال يوسف وأمام استحالة إخضاع المسيحيين ، ادعى لنفسه الحق فى السيادة على اسبانيا الإسلامية ، واتخذ احتياطات جمعت إليه صاحب العقيدة السلفية والشعب ، لكنها أقلقت بال الأمراء الذين تآمروا وقتئذ ضده مع الفونس ، وبذلك لم يحاصر يوسف غير قرطبة التى دافع عنها المأمون ، ولد المعتمد ، لكن عامة الشعب سلمت له المدينة وألقى ابن الملك الشاعر السلاح من يده وسقطت بدورها أشبيلية . وأسر المعتمد وأرسل إلى طنجة .

والحق أنه فى نهاية سنة ١٠٩١ كان يوسف قد فتح كل جنوب اسبانيا ، وكان سلطانه يمتد حتى جزائر البليارد التى كان يحكمها رجاله .

وبالاتصال بالحضارة الأيبرية سرعان ما أصبح سكان الصحراء الملثمون «اسبانيين» واستطاعوا تبعاً لذلك أن ينقلوا ويدخلوا الثقافة الأندلسية إلى بلاد مراكش . وكان البربرى العظيم قد أقام عاصمته فى مدينة مراكش فى مركز أمامى لكى يراقب على وجه أفضل ثورات الجبال . وعندما مات ، كانت نصيحته الأخيرة المليئة بالحكمة العميقة توصية ولده أن يتجنب فى هذه الجبال أدنى شغب . فهل كان لديه الإدراك أن بعض الشبان المستدعين للجندية المنحدرين من الجبال قد يستطيعون إزالة امبراطوريته ؟ ولم يتخذ خلفاؤه الحيطة وهم واثقون من مؤخرات جيوشهم المباشرة فى هذه الجبال . لقد عادوا مرة أخرى إلى اسبانيا ، وانتصروا أيضاً على المسيحيين فى أقليش (أو ذات

الإقطاعيات السبع) التي لقي فيها دون سانكو الابن الثاني الملك قشتالة حتفه في عام ١١٠٨ .

نهاية المعتمد :

كان دون سانكو لا يبلغ من العمر غير خمسة عشر عاماً ، وكان الابن الوحيد لألفونس السادس من أميرة هي مورا زايده ، وكثيراً ما كان يعتقد أن هذه الأميرة كانت ابنة المعتمد قدمها لملك المسيحيين رهينة لتحالفه ضد يوسف . لكن الحقيقة لم تكن كذلك ، إذ لم تكن الأميرة ابنة المعتمد ، بل كانت زوجة ولده . وعندما قتل زوجها المأمون في الدفاع عن قرطبة ضد الموحدين ، لجأت مورا زايده إلى عبر منطقة سيرا مورينا في ممتلكات الفونس السادس ، وأصبحت زوجته غير الشرعية . وهكذا رحلت الأميرة الأشبيلية إلى أرض كافرة مع أطفالها من المأمون . وأكدت هذه الحقيقة وثيقة مرا كشية ، وأسفت لها . « في هذا المكان تماماً حدث ما حدث من زوجة ابن المعتمد ابن عباد ومن أطفالها وقتئذ . عسى أن يحفظنا من الشر ومن معاملات الأعداء القاسية ؟ » .

بيد أن المعتمد التعس ظل حبيس السجن في طنجة . وقد نقلت قصص حفظت بدقة تثبت أنه ظل نسيج وحده . فعندما وجه إليه شاعر من طنجة بعض أبيات من المديح ، وطلب منه منحة : كان الملك المخلوع لا يملك غير ٣٥ ديكات (عملة ذهبية قديمة) هي كل ما يملك ، وقدمنحه إياها معتذراً عن ضآلتها . وعندما نقل إلى أغمات ، فرح بتسلمه كتاباً من ابنته التي لم يكن لديه أخبار عنها . وهذه هي ترجمة الكتاب المكتوب في أحد عشر بيتاً من الشعر ، وهي مهمة لأكثر من سبب :

اسمع كلامي واستمع لمقالتي   فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أني سبيت وأنني   بنت لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصره   وكذا الزمان يؤول للافساد
لما أراد الله فرقة شملنا   وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه   فدنا الفراق ولم يكن بمراد

فخرجت هاربة لخازنى امرؤ لم يات فى أفعاله ببغداد
إذ باعنى بيع العبيد فضمنى من صانى إلا من الأنكاد
وأرادنى لنكاح نجل طاهر حسن الخلائق من بنى الأمجاد
ومضى إليك يسوم رأيك فى الرضا ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعساك يا أبتِ تعرفنى به إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد

ولم تكتب بثينة أشعاراً أخرى غير تلك الأشعار ، إنها لخسارة . وكانت هذه الابنة الرقيقة الكاملة التى تفيض احتراماً لأبيها ، تجيد كذلك وزن الشعر وتلحينه كما كانت تجيد الفكرة الموجزة والكلمة المحكمة . بيد أن المعتمد عاش أيضاً بضع سنوات فى أغيات حبيس السجون والفاقة ، وظل حتى نهايته التى وافت سنة ١٠٩٥ ، لم يعل نظم الشعر . ولما كان يستمد إلهامه من تقلبات مصيره الخاص فقد كتب :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى فأجمل فى التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهاب
فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء من تراب

إن المعتمد لشخصية غزيرة عرف بنفس الرقة كيف يرتدى لباساً من الحكمة ، ولباساً موشى بالذهب ، وأن يفلسف آلامه بكياسة فقدت آمالها ، وأن عزق بنفسه بالطبرزين ودون خوف الصديق الذى كان قد خانه .

(٢٠)

تفكك الامبراطورية

الأسباب :

كان اتساع نطاق الامبراطورية نفسه هو السبب الأول لتفككها . فى الأيام الطيبة من الفتح ، كان الخلفاء قد عرفوا كيف يفرضون سلطانهم على حكام المقاطعات العسكرية على حدود الامبراطورية البعيدة . لكن الحدود بلغت من ترامى أطرافها أن المسافر كان يبلغ ثمانية عشر شهراً للذهاب من طرف إلى آخر ، من سمرقند إلى سرقسطة . وقد قضت الضرورة أن يترك لحكام الأقاليم البعيدة من العاصمة حكم ذاتى كان لا بد أن يؤدى حتما إلى تجزئة الامبراطورية وتفككها . وكيف كان يمكن أن تكون الامبراطورية على وجه آخر غير ذلك ؟ لم تكن هناك سلطة مركزية لها من القوة ما تستطيع به المحافظة على ترابط جماعات فى أقاليم وقبائل شديدة البعد والتشتت.

هذا إلى أن حياة الإفراط من كل نوع وبخاصة داخل حياة الحريم سرعان ما كانت توهن العقل والجسم معاً . . مما أدى إلى انحطاط الأسر التى لم تعد تقدم إلا ملوكا ضعافاً ، كانوا ميالين بدورهم إلى حياة الفسق والترف أكثر من ميلهم إلى القيام بأعباء الدولة . وكان التسرى إلى غير حد يرفع نسبة عدد الطامعين فى الحكم الذين كان وضعهم القلق معترفاً به بسبب عدم وجود قانون محدد لاعتلاء العرش وفى كل آن ، كانت ثورات لا حصر لها تحل ملكا مكان آخر ، ولم يعد هناك أية متابعة للعمل ، أو للادارة فى الجهاز الامبراطورى المظيم . ولقد أصاب هذا الفساد فى الآداب ، والأخلاق الشعب كله . إن تكاثر الثروة وما يصحب ذلك من سهولة عيش ، وفجور ، وكسل ، واتخاذ الحظيات ، ومخادنة الغلمان ، والفساد الذى ينشأ مع حياة الرقص والغناء والموسيقى والشراب ، كل هذا كانت له نتائج سيئة على الطبقة الموجهة . وكان دم الفاتحين قد ذاب فى دم المغلوبين . ففترت حماسة العرب وفحولتهم .

هذا وقد أخذ الاتحاد القائم على وحدة اللغة والدين يميل إلى التفكك ، وكان

لزاماً دون شك على الشعوب المختلفة حين تذكر استقلالها المفقود ، أن يؤدى نفورها وبغضها للسلطة المركزية إلى السخط وأن تتحول إلى ألوان من الصراع . ومن أجل هذا ، فإن الفرس المخلصين لذكرى مجدهم القديم ، لم تعدلهم رغبة فى الارتباط بالعهد الجديد . وكانت سوريا تتوقع دائماً القائد الوطنى الذى يستطيع أن يحررها من العباسيين ، وكان البربر قد تمسكوا بعاطفة قبلية راسخة كل الرسوخ ، بل استبدت بالعرب أنفسهم قبليتهم القديمة أيام كانوا منقسمين شماليين وجنوبيين ، فعادت إليهم بطريقة قاطعة . والدين نفسه الذى كان قد ابتدع الوحدة قديماً ، كان يهتز تحت تأثير الهرطقات الضارة . ولم يقر للخلافة قرار بسبب توجهها بين مذهب السنة (اليمين) ومذهب الشيعة (اليسار) . وكان مذهب الشيعة يساند قضية « العلويين » ضحايا العباسيين . وكانت مكانته ودوره السياسى كبيرين على الدوام عبر العصور ، وكان مذهب الشيعة الاسماعيلى قد أقام الخلافة الشرعية ولكنها متحصرة للفاطميين فى مصر ، على حين كان أصل مذهب الشيعة الزيدى من إمارة بنى بويه بشرق نهر الفرات كما يجب أن نضع فى حسابنا أيضاً مذهب القرامطة ، والمعتزلة ، والصوفية ، وفرق أخرى فلسفية أو دينية . وفى الحق قد ترتب على كل هذه الحركات تقوية الانقسامات السياسية والجغرافية . وأصبح الإسلام غير قادر على جمع شمل المسلمين فى مجموعة متجانسة .

ولا تقل العوامل الاقتصادية عن الاختلافات المذهبية تلك العوامل التى أفضت أيضاً إلى الانحلال الأخلاقى والاجتماعى . وأصبح الشرق تارة جنة وتارة صحراء وفقاً لما كان يروى أولا يروى من أراضيه . لكن إعداد قنوات الرى كان يتطلب تنظيماً وعناية دائبين ، تستطيع الدولة وحدها أن تعيشهما . ولما كانت هذه المشروعات رديئة التخطيط ، سيئة الإدارة رديئة التنفيذ ، فقد كانت النتيجة انتشار المجاعة والفيضانات والأمراض المعدية . وسطا أربعون وباء خطيراً على العالم الإسلامى خلال الأربعة القرون الأولى ، وأفنى عدداً كبيراً من سكانه . ولم تخفف هذه المصائب المختلفة مع ذلك من وطأة الجباية ، التى أخذت تزداد دون توقف فى الولايات التى كان كل حاكم صغير فيها يسلب رعاياه دون حياء . وأصبحت هذه المظالم عرفاً مسلماً به حتى باتت رويداً رويداً قاعدة مقررة . ولما لم يعد هناك دافع يحث على الإنتاج ، فقد أخذت الزراعة والصناعة فى الهبوط ، وفى ذلك خسارة كبيرة لبيت

المـال الذى وجد نفسه تجاه مشكلة تزويد خزائن للدولة بما تحتاج إليه من أموال .

ولمـا لم يعد فى استطاعة الاقتصاد دعم الحكومة ، فقد اضطرت أن تعيش على الاحتيال لتدبير المـال وتدخلت المضاربات وارتفعت الأثمان ، وانفجرت الثورات .

الانحـــــلال :

استدعى ضعف السلطة المركزية بلا شك تجزئة الامبراطورية . أما الأمراء الذين حكموا الأقاليم البعيدة فلم تكن لهم مع بغداد إلا روابط شكلية بحتة ، ويمكن القول إن وضعهم السياسى كان الاستقلال الذاتى ، ومن ثم لم تلبث الفرصة أن سنحت لهم ليظفروا بتمام الاستقلال ، بل لقد أصبح الاستقلال حكماً وراثياً . وقد أخذ العدد المذهل من الأسرات المـالكة فى الازدياد على أطراف الامبراطورية ثم فى قلبها نفسه ، وكان لذلك أثره السيىء فى سياسة البلاد . فالسلوك العربى الذى حقق الفتح بطريقة ممتازة لم يمارس لتأمين استقرار البلاد المفتوحة . وهكذا ماتت الخلافة العباسية موتاً بطيئاً .

وخلف المأمون أباه هارون فكان خليفة عظيماً حقاً ، وحين خلفه المعتصم سنة ٨٣٣ ، رأى نفسه مضطراً لكى يدعم سلطته المهتزة أن ينشىء حرساً خاصاً له مختاراً بعناية من بين العبيد الأتراك ، وهم جنود شجعان ، ذوو جلد ، ولكنهم غلاظ الطبع ، وهكذا سهر ٤٠٠٠ من جنود الحرس على سلامة الامبراطورية .

وهذا شبيه بما فعله أباطرة الرومان حين اضطروا إلى الاعتماد على حرس قوى قيصرى . وكما حدث فى روما أصبح الحرس فى بغداد مع الزمن القوة الحقيقية للحكومة . ولم تعد الخلافة إلا رجلا مريضاً . كما كانت الامبراطورية الرومانية قبلها . ومنذ ذلك الوقت ، نرى أطرافها تتناقص شيئاً فشيئاً خلال ولاية الخلفاء الشرعيين أو المعترف بهم ، والذين كانوا ملوكا بلها خاملين . وفى ظل الامبراطورية المفتتة ، عاد إلى الظهور روح الحضارات القديمة ، وتشكلت من جديد الوحدات العنصرية القديمة فى دول مستقلة داخل حدودها الطبيعية بحسب السلطة الشخصية لحكامها . وهكذا سيجد العالم الشرقى البنية الأولى التى كانت بنيته فى غضون التاريخ .

كانت اسبانيا أول من أعلنت استقلالها سنة ٧٥٦ ثم تبعتها مراكش سنة ٧٨٨ ، وتونس سنة ٨٠١ ، وفي سنة ٨٦٨ استقل ابن طولون بالسلطة في مصر . ولم يعد لزاما عليها بعد ذلك أن تتبع بغداد إلا من وجهة اسمية بحتة . وعندما تحرر المصريون من نفوذ الخلافة ، وضعوا وقتئذ يدهم على جنوب سوريا التي قدر لهم أن يحتفظوا بها طيلة قرنين . وبعد ذلك بقليل ، استولى الامبراطور اليوناني باسيليوس الثاني على بقية سوريا ، وشوهد لأول مرة العرض الطويل من الأسرى العرب في ملعب القسطنطينية، وأخيرا استولى أمبرطور آخر على أرمينية ، لقد كان العرب يقبلون التحدي قديما ، أما الآن فإن الزمن قد تغير .

وقد أسهم المأمون كذلك في تفكك الامبراطورية وذلك بمنح حكومة خراسان لطاهر بن الحسين مكافأة له وجعلها وراثية . وكان الأخير قد انتصر على أخيه الأمين — ابن هارون من زبيدة — وجلده . وتعاقب بعد ذلك تسعة خلفاء فيما بين عام ٨٣٣ وعام ٨٩٢ ، وكانت الامبرطورية قد بلغ بهـا السيل الزبى ، ثم فقدت الأسرة المالكة هيبتها . ففي سنة ٩٠٢ خلع المقتدر من الخلافة على يد « أمير الأمراء » أحد وزراء القصر ، وبذلك أسرعت خطى الانحلال .

وفي سنة ٩٢٨ ، استولى الحمدانيون وهم مسلمون شيعيون على بلاد ما بين النهرين الشمالية ، وعلى جزء من بلاد سوريا ، وأسسوا في حلب والموصل مركزين ثقافيين ، غاية في الازدهار . واستولى بنو بويه وهم شيعيون أيضا على أصبهان وشيراز ، بل على بغداد سنة ٩٤٥ . ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد الخليفة إلا رمزاً لعقيدة أهل السنة ، يأتمر بأمر الحاكم الشيعي وفي الوقت ذاته ، جعل الساسانيون في بلاد ماوراء النهر من بخارى ، ومن سمرقند مركزين كبيرين في المعرفة واللذين كان قد درس فيهما ابن سينا والرازي، وأخيرا استقرت أسرة الغزنوي في افغانستان في سنة ٩٦٢ ؛ واستولت على كل بلاد فارس والبنجاب . واستدعى رئيسها محمود إلى غزنة — كما كان يفعل كبار الخلفاء قديما — الشعراء والعلماء وبخاصة البيروني والفردوسي .

الأتراك السلجوقيون :

منذ ذلك الحين ، أخذت تتهيأ هجرة كبيرة بل لعلها غزوة في شمال آسيا ، كان

الأتراك السلجوقيون يشحذون أسلحتهم . لكن كما حاربت بيزنطة لكي تصد العرب ، راح المسلمون يسعون ليسدوا الطريق على الحملة التركية نحو الشرق . ثم كان الأتراك بدورهم هم الذين سعوا ليقطعوا الطريق على المد المغولى .

مهما يكن من أمر ، فإن المنتصرين سيعتنقون دين المغلوبين الذين نهكوهم ، وسوف يجعلون من أنفسهم مدافعين بحماسة عن هذا الدين . وتثير هذه الظاهرة العجب ، لكنها ليست من الندرة فى تاريخ العالم الإسلامى المتقلب ، لقد كان هذا بالنسبة للأتراك السلجوقيين ، ثم بالنسبة لأبناء عمومتهم المغول بعد ذلك فى القرن الثالث عشر ، وأخيرا بالنسبة للأتراك العثمانيين فى القرن الرابع عشر ، وسيظفر الدين الإسلامى بألمع انتصاراته طيلة الأزمنة الممعنة فى ظلام الفشل والغزو ، وقبل أن يمضى الأتراك فى المسير نحو الغرب ، وعند انطلاقهم من بحيرة بايكال ، كانوا قد قاموا من قبل بعدة اتصالات مع العالم الإسلامى ، واحتلوا بخارى فى سنة ٩٩٠ ، وبعد تسع سنوات ، خلعوا أسرة الساسانيين .

وكان تقدمهم سريعاً . وفى العام الألف بعد الميلاد ، انتصروا على بلاد ما وراء النهر ، وتركستان . وفى سنة ١٠٢٩ ، فى عهد طغرل بك فتحت كل بلاد فارس . ولما أعدوا تقدمهم المقبل ، أرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم ، معلنين له اعتناقهم للدين الإسلامى وفى الحال ، ألح عليهم الخليفة فى الحضور أملا فى أن يتخلص من بنى بويه ، بفضل هذه المساعدات الحازمة . وفى عام ١٠٥٥ هرع طغرل بك إلى الخليفة فهرب البويهيون ، وتزوج الخليفة ابنة أخت طغرل بك الذى جعله « ملك الشرق والغرب » فى سنة ١٠٥٨ . ورأى الخليفة القائم بالنسبة لهؤلاء الأنصار المغالين فى طاياتهم أن يقطعهم البلاد التى فى استطاعتهم أن يفتحوها فى جواره .

وهكذا أخذت تخضع الإمارات الإسلامية واحدة بعد أخرى لحكم السلاجقة الذين اتخذوا لقب « سلطان » . فلما أصبح السلاجقة أقوى من الخليفة نفسه ، قصره الأتراك على أن يشغل دوراً دينياً بحتاً ، وحلت الامبراطورية التركية محل الامبراطورية العربية .

خلف طغرل بك ابن أخيه ألب أرسلان « الشجاع الأسد » فى سنة ١٠٦٣ ، وغزا بلا مقاومة أرمينية وجورجيا وسوريا ، وأمن العرش لابنه ملك شاه (١٠٧٢ —

١٠٩٢) الذى أصبح أعظم سلاطين السلجوقيين . وكان ملك شاه حكيما حين احتفظ بوزير أبيلاه الأول نظام الملك الذى وفر من جـــديد عظمة عصر البرامكة ورخاءه للامبراطورية طيلة ثلاثين عاماً ، وفى كتابه « فن الحـكم » يرسم الخطوط الـكبيرة لسياسته ، ويوضح واجبات الملك ، والقادة ، ويوصى الجميع بقوة ـــ بالعقيدة السلفية . ولسوء الحظ ، توفى هذا السياسى المستنير الحـكيم مقتولا فى سنة ١٠٩٢ على يد اسماعيلى ينتمى إلى فرقة كان يتهمها بالباطنية . ولم يكن هذا المذهب فى الحقيقة إلا جمعية دينية سرية معتصمة فى قلعة الموت (عش النسر) على بعــد ٣٠٠٠ متر عرضاً من شمــال فارس . ورئيسها العظيم الحسن بن صباح الذى كان يطلق عليه الصليبيون « عجوز » الجبل ، صنع من هذه الجمعية طيلة ٣٥ عاماً مركزاً للاغتيال ، ومركزاً للفن والتعليم . وماركو بولو الذى زار ألموت فى سنة ١٢٧١ ، يصفها بأنها روضة مليئة «بالسيدات والآنسات اللائى كن يداعبن الرجال ، ويستجبن لرغباتهم » ، وطراز من جنة ينطلق فيها المطلعون على الأسرار الدينية الجدد بعد تخديرهم بالحشيش ، هذه كانت صورة المقر المخصص على الدوام لمن يظهرون الطاعة حتى الموت ، وكان يطلق على هؤلاء الذين كانوا يتناولون الحشيش الحشاشون التى تشتق منها كلمة « قاتل assassin » . وكانوا يهاجمون بخاصة مضطهدى المذهب الاسماعيلى ، وفى سنة ١٢٥٦ طاردهم المغول على أنهم كفار ، بيد أن جمعيتهم ستبقى كفرقة دينية متجددة ومتزنة تحت اسم النزارية لا سيما فى الهند ، وكذلك فى فارس ، وفى سوريا وفى أفريقيا . ورئيسها الدينى والسياسى هو أغا خان[1] ، وهو الإمام السابع والأربعون من نسل على .

وكان لزاماً على المملكة السلجوقية ، منذ القرن الثانى عشر أن تتفتت بدورها إلى إمارات مستقلة .

---

(١) توفى أغاخان منذ سنوات ، ودفن بأسوان ، وتولى ابنه من بعده .
(المترجم)

(٢١)

الحملات الصليبية

قد لا نستطيع أن نتحدث عن الحضارة العربية دون أن نتناول بعض الحملات الصليبية وتأثيرها فى زمانها .

أسبابها :

ظلت المسيحية أكثر من أربعمائة عام تتراجع أمام الإسلام الذى كان يتقدم بعنف فى آسيا ، وأفريقية ، وصقلية ، وأسبانيا . وغنى عن البيان أن المحاولة الضخمة للحملات الصليبية كانت قبل كل شىء رد فعل فى أوربا المسيحية ضد آسيا الإسلامية التى كان يوجد فيها قبر المسيح .

وكان الحج إلى الأماكن المقدسة يمثل منذ عدة قرون بالنسبة لمسيحيى العصر الوسيط قيمة لا نظير لها . ويلخصها ميشليه[1] Michelet على هذا النحو «سعيد هذا الذى كان يعود ! وأكثر سعادة منه ذلك الذى كان يستطيع أن يقول ، تبعاً لتميير جرىء ماقاله معاصر : « أيها السيد المسيح أنت مت فى سبيلى وأنا مت فى سبيلك » ومن ثم كان الحجيج يذهبون إلى قبر المسيح بأعداد كبيرة .

ويبدو أن تدمير كنيسة قبر يسوع المسيح فى سنة ١٠٠٩ على يد خليفة فاطمى هو السبب الحاسم للحروب الصليبية[2] . ويجدر بنا فى الحقيقة أن نذكر أنه حتى فى الوقت

---

(١) مؤرخ فرنسى ، ولد فى باريس (١٧٩٨ — ١٨٧٤) ، من مؤلفاته «تاريخ فرنسا» و «تاريخ الثورة» ، وله كذلك مؤلفات فى الأدب منها « الجبل » و « العصفور » . (المترجم)

(٢) يرى القارىء أن المؤلف يحاول أكثر من مرة أن يوهم أن السبب الحاسم للحروب الصليبية هو تدمير كنيسة قبر يسوع المسيح ، إن السبب الحقيقى هو ما ذكرناه فى تعليقنا ص ٣٢٢ من هذا الكتاب . (المترجم)

الذى كان العرب فيه يستقبلون الحجيج استقبالا حسنا ، وهذه كانت قاعدتهم بعامة ، كان المسيحيون يغضبون سلفاً من الحقيقة البسيطة ، وهى أن الأراضى المقدسة مازالت باقية فى أيدى الكفرة[1] . بيد أن فكرة الحملات الصليبية لم يكن من الممكن أن تفرض بالإكراه إذا لم تكن هناك أسباب أكثر عمقاً ، أسباب دينية وسياسية معاً ، بل أسباب دنيوية . ومهما يكن من أمر ، فإن العالم الإسلامى الذى كان قد كف عن كونه عامل تهديد منذ تفتته ، أصبح من جديد فجأة وجهاً لوجه أمام العالم المسيحى منذ القرن الحادى عشر ، نتيجة لإعادة تجمعه على يد الأتراك ، وكان يبدو أن الحرب المقدسة ستستأنف تقريباً فى كل مكان . ففى الشرق استولى السلاجقة على بيت المقدس فى سنة ١٠٧٨ وأنطاكية فى سنة ١٠٥٥ وفى سنة ١٠٨٦ فى أسبانيا انتصر الموحدون على الجيش المسيحى فى الزلاقة ، وعندما لمح الامبراطور اليونانى الكيسيس Alxis فى عام ١٠٩٣ من القسطنطينية خيام جنود سليمان المعسكرة على الشاطىء المواجه للبسفور ، أسرع بإرسال سفراء أمام مجمع مدينة بليزانس Plaisance لكى يعلنوا مساندة مسيحى الغرب ضد الأتراك . لقد رأى العالم المسيحى أنه قد حان الوقت للانتهاء من هذه الحملات .

ولعل البابا رأى فى هذا الأمر فرصة مواتية لجمع الكنيستين اليونانية والرومانية اللتين كانتا منفصلتين منذ أربعمائة عام . ولعله رأى كذلك فى الحملات الصليبية وسيلة لوقف حرب العصابات المستمرة التى كانت تقوم بالفتنة بين أصحاب الإقطاعيات بتحويل حماستهم الحربية تجاه عمل خير . وكان البابا أوريان الثانى rdlaiuII[2] يقول : « إن الأرض التى تقيمون عليها تقدم — بشق النفس — الغذاء لهؤلاء الذين يزرعونها ، من أجل ذلك يقاتل بعضكم بعضاً . شقوا الطريق إلى قبر يسوع المسيح . . وستكون ممالك آسيا من نصيبكم » .

---

(١) كان المسيحيون فى أوربا ينظرون إلى المسلمين على أنهم كفار ، فتأمل ؟ أما المسلمون فإنهم يعتبرون اليهود والنصارى أهل كتاب . (المترجم)

(٢) بابا من عام ١٠٨٨ حتى عام ١٠٩٩ ، ولد فى لاجارى من مقاطعة شامبينى بفرنسا ، يعتبر المحرض الأول على القيام بالحملة الصليبية الأولى فى مجمع « مونت » الكنسى . (المترجم)

لم يكن فرسان العصر الوسيط الأشداء مسيرين — كما هو واضح — بدوافع روحية فحسب إذ كانت الانتصارات التي ظفر بها النورمانديون في انجلترا وفي صقلية (١٠٩١) ضد مسلمى أسبانيا وأفريقيه قد بعثت المسيحيين إلى الحرب . وكانت هناك دوافع أخرى لا تقل عن ذلك إلزاماً . وإذا كان بعض أصحاب الإقطاعيات يبحثون أيضاً عن الحرب التي تسعدهم سعادة أبدية فقد كان هناك فقراء يرون في هذه الحرب تخفيفاً من بؤسهم قبل أن تكون تضحية . وقد لا يستطيع أى إنسان أن ينكر مع ذلك أن الوثبة الكبيرة للحملات الصليبية على الجملة كانت ذات باعث ديني صادق ، وكان « إنقاذ قبر المسيح » هو الباعث الأساسي[1] .

وقد توالت تسع حملات صليبية على التعاقب فيما بين عامى ١٠٩٦ ، ١٢٩١ ، وليس هناك مجال لنروى كيف تجمع هذا العدد الكبير من الصليبيين الذين كان عددهم يقدر بـ ٧٠٠,٠٠٠ تقريباً ، وما يدل عليه العدد المرتفع قليلا من الجند الذى شارك في هذه الحملات ، أو بيان المراحل التى مرت بها هذه الجموع المختلطة وفساد أخلاقهم ومصائبهم على طول الطريق ، وعلى الجملة هذه التقلبات والحوادث العجيبة لهذا المشروع الحربى الذى ارتبط بالتاريخ الأوربى . وتنطوى المعركة في خطوطها الكبيرة على مرحلة من فتوح الصليبيين استمرت خمسين عاماً ، ومرحلة من رد الفعل الإسلامى استغرق

---

(١) لم تلبث أن قوبلت دعوة البابا للحرب الصليبية بالاستجابة في غرب أوربا ، فرحب بها جمهور العامة بسبب الفاقة والضيق الاقتصادى الذى كانوا يعانون منه عندئذ في غرب أوربا ... ورحب بها فريق كبير من الفرسان وأمراء الإقطاع لأنهم وجدوا فيها فرصة طيبة لتأسيس إمارات لهم في الشرق ، ورحبت بها المدن التجارية مثل بيزا والبندقية وجنوا لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة هى الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في شرق البحر المتوسط وجمع الأموال والثروات من وراء ذلك كله ... وهكذا اتفقت مختلف الأطراف في المجتمع الأوربى الغربى على إرسال حملة إلى الشرق لتحقيق أغراض دنيوية بحتة تحت ستار زائف من الدين وجعلها تنتسب إلى الصليب وتعرف باسم الحروب الصليبية [عن أعلام العرب — الناصر وصلاح الدين — تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٨ و ١٩] . (المترجم)

المدة نفسها والمرحلة الثالثة استغرقت القرن الثالث عشر ، وتداولها النجاح والفشل لكلتا الفئتين ، وانتهت أخيراً بطرد الصليبيين الذين اضطروا إلى الجلاء بطريقة حاسمة عن الأراضي المقدسة .

فتوح الصليبيين :

ابتداء من القسطنطينية وهي مركز تجمعهم ، كان طريق الصليبيين يعبر آسيا الصغرى وحاول الأتراك أن يقطعوا عليهم الطريق إلى دوريلا[1] في يونيه ١٠٩٧ ، وارتدوا إلى الوراء . وقد فتكت بالتجمعات الصليبية الأولى مسيرهم عبر الهضبة القاحلة لآسيا الصغرى وجبال طوروس الوعرة . لكنه حرر آسيا الصغرى وأخر دخول الأتراك إلى أوربا بما يقرب من ٣٥٠ عاماً .

وكان وصول بعض الشبان المستدعين للخدمة المنظمين تنظيما جيداً من منطقة كليكيا قد زادهم رباطة جأش . وفتح الصليبيون سنة ١٠٩٨ طرسوس ، والرها ، وأنطاكية وحلب . لكن جيشاً تركياً مكوناً من ٢٠,٠٠٠ رجل بقيادة أمير الموصل أقبل ليحدق بهم في أنطاكية . وفي الوقت الذي كان فيه المسيحيون فريسة للمجاعة ينتظرون سلامتهم بمعجزة ، أعاد لهم كشف القديسة لانس المدفونة في كنيسة من كنائس أنطاكية الحماسة والحمية الجريئة معاً . وقهر الجيش التركي وولى الأدبار . وبعد عام في ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ وصل ٤٠,٠٠٠ جندي صليبي أمام بيت المقدس . وفي ١٥ يوليو ، بعد هجوم استمر يوماً ونصف يوم كان جيشهم يدخل المدينة . وكان قد دخلها جودفري ده بويون[2] عن طريق جسر ضيق ، والنورمانديون عن طريق ثغرة في الحائط . وفي ذلك يكتب ميشيليه : «كان الصليبيون الذين لا يعملون حساباً للزمن — في غضبتهم العمياء — يعتقدون في كل كافر كانوا يقابلونه أنهم يميتون أحد جلادي المسيح . تلك كانت روح التعصب للصليبيين الأول .

---

(١) مدينة من مدن آسيا الصغرى وتعرف اليوم باسم اسكي شهير . (المترجم)

(٢) دوق إقليم اللورين المنخفض ، ولد في بيزى (١٠٦١ — ١١٠٠) ، كان رئيساً للحملة الصليبية الأولى ، نودي به ملكا على أورشليم ، واتخذ لقب «وكيل قبة الصخرة» . (المترجم)

ولم يرتض جود فرى ده بويون الذى انتخب ملـكا إلا بلقب المدافع عن قبر المسيح ولما كان محارباً مقداماً فقد دعم انتصاراته بأن أرغم فى عسقلان جيشاً من ٢٠,٠٠٠ رجل كان قادماً من مصر على أن يولى الأدبار . ومنذ ذلك الوقت تحققت آمال الصليبيين ، وبعد ثلاث سنوات من التضحيات التى لم يسمع عن مثيلها حررت الأماكن المقدسة . وقسمت سوريا وفلسطين ثلاث دول لا تينية هى بيت المقدس وأنطاكية ، وطرابلس . وعندما أسست هذه الممالك الثلاث لم تـكف عن أن تتشاجر فيما بينها ، بل شرعت تشن هجومها ضد أمراء حلب ، الموصل وأتابك دمشق وخليفة القاهرة الذين لم يكونوا أقل انقساماً من أولئك أنفسهم ؛ وفى غضون المعارك أقام الصليبيون حصوناً ما زالت أطلالها ماثلة . بيد أن الخصومات توقفت . وبدأت علاقات حسن الجوار تنشأ . وأدرك المسيحيون أن المسلمين لم يكونوا كفاراً وثنيين كما كانوا يعتقدون ، وأدت الاتصالات المتزايدة إلى مبادلات أكثر وداً وإلى علاقات أكثر حباً . وانتهى الصليبيون — بدافع الظروف — إلى اصطناع أساليب حياة الشرقيين ، وكانوا أكثر تعوداً للجو . ولما فتنوا باللذات الشرقية ، تذوقوا ألذ حلاوة الحياة ولم يكن من الندرة أن ترى مسلمين يتحالفون مع مسيحيين ضد إخوانهم فى الدين ، ومن جهة أخرى التمس بعض اللاتينيين الذين كانوا يتشاجرون فيما بينهم معاونة من يسمونهم بالـكفار . ويروى أيضاً رحالة عربى هو ابن جبير أن مبنى دينياً فى إقليم عـكا كان مقسماً بالتناوب بين العبادتين المسيحية والإسلامية . ولم تسكن المعارك نفسها بذات تأثير على المحاربين ، فتولدت الروح الانسانية التى خلقها صلاح الدين تجاه العدو المغلوب ، والذى أعطى أجمل الأمثلة عن طيبة النفس[1] . وكانت هذه بلامراء مثار دهشة للمسيحيين إذ كشفوا وتثبتوا سمو نخبة من رجالات الشرق المهذبين والمثقفين ، وذوى الأخلاق الرقيقة ، والذين عرفوا زيادة على ذلك كيف يشركونهم فى خطواتهم الفنية ، وأن يسدوا فراغ طب غربى بدائى وتجريبى . وقد أدى اتصالهم بنظام اجتماعى متطور كل التطور

---

(١) غير أن المسلمين كانوا رجالا أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم للعهد ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتـكبوا فى تاريخهم من الوحشية ما ارتـكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس [عن قصة الحضارة — عصر الايمان — تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران ص ١٩٠] . (المترجم)

أن يولد عند الصليبيين التطلع إلى حرية فردية أكثر انطلاقاً ، والاتجاه نحو تحرير الأفكار مما نشأ عنه تحول فى المجتمع الغربى ، ولكن هذه المهادنة الخيرة لم تستمر ، ولم تلبث العلاقات الودية أن قطعت .

رد الفعل الإسلامى :

أضمر رينو ده شاتيون Renaud de Chatillon الذى كان قد نهب قافلة إسلامية ، خطة للانطلاق للتحرش بحجاج مكة . ولما شرع هذا المسيحى ينفذ خطته أسرع صلاح الدين سلطان مصر والمتحمس لعقيدته السلفية والذى قد كان يتحين مثل هذه الفرصة بغزو مملكة بيت المقدس واستولى على طبرية فى الأول من يوليو من سنة ١١٨٧ . وفى حطين ، سحق جيشاً مسيحياً من ٢٠,٠٠٠ رجل أبيدوا من الحرارة والعطش ، وأكرم وفادة جى ده لوزينيان[1] ملك أورشليم أسيره ، وهو خصم مخلص وشجاع ، لكنه قتل القاسى رينو ده شاتيون . وفى ٢ من أكتوبر ، سقطت أورشليم بين يديه وقد أنقذ صلاح الدين الذى كان أكثر إنسانية مما كان عليه الصليبيون أسرى المسيحيين من الموت مقابل فدية . وبسبب علو همته كما يقال فقد حرر أيضاً — فيما بعد — هؤلاء الذين كانوا لا يستطيعون أن يفتدوا حريتهم .

وفى نهاية ١١٨٧ ، كانت فلسطين وسوريا تحت سلطان صلاح الدين ما عدا أنطاكية وصور وطرابلس ، وبعض الأماكن المحصنة أو القلاع المنعزلة . وكان لهذه البلايا العظيمة دوى عميق فى الغرب يتطوع أقوى ملوك العالم المسيحى ، فقد تطوع امبراطور ألمانيا وملكا انجلترا وفرنسا فى حرب صليبية وقد هلك فردريك باربيروس[2] على رأس ١٠٠,٠٠٠ ألمانى فى طرسوس ، وتفرق جيشه . واستولى ريتشارد قلب الأسد

---

(١) كان ملكا لأورشليم ثم حاكماً لجزيرة قبرص (١١٩٢ — ١١٩٤) ، وهو الابن الأصغر لهيج السابع الذى أسره صلاح الدين فى موقعة حطين عام ١١٨٧ .

(٢) أمبراطور الغرب (١١٢٥ — ١١٩٠) ، انتخب ملكا لألمانيا عام ١١٥٢ ، وتوج ملكا على إيطاليا عام ١١٥٥ ، ومات غريقاً فى كليكيا فى أثناء الحرب الصليبية الثالثة .

الذى كان أكثر حظاً على قبرص . ونجح فيليب أوجست[1] من جانبه أمام عكا فى إقامة اتصال بين جيشه وجيش الصليبيين اللاتين الذين كانوا قد بقوا فى الأرض المقدسة .

وبدأ حصار المدينة فى ٢٧ من أغسطس سنة ١١٨٩ وسارع صلاح الدين إلى معاونتها فى اليوم الثانى من الحصار . كما وصل كذلك — من جانبها — ريتشارد مع جنوده الانجليز ، ودوق النمسا مع فلول الألمانيين . وكانت خيام جيش الصليبيين تغطى السهل ، وسفنهم تسد الميناء . وكان جيش صلاح الدين يعسكر على المنحدرات المجاورة ، وتقاتل الجيشان طيلة سنتين ، وأتى كل من جانبه بأعمال خارقة « فقد اشترك ٦٠,٠٠٠ رجل فى هذه المعركة الضخمة التى ذهب ضحيتها ١٢٠,٠٠٠ مسيحى و ١٩٠,٠٠٠ مسلم . ونشبت تسع معارك كبيرة ، وأكثر من ١٠٠ معركة صغيرة » . وكانت هذه أكبر عملية حربية فى العصر الوسيط . وكان الصليبيون يتفوقون على المسلمين بأسطول ومعدات وفيرة للحصار ، وكان المسلمون يفوقونهم فى القيادة الفريدة التى لا يستهان بها . وسلمت الحامية المنهوكة فى ١٢ يوليو سنة ١١٩١ . وكان يشترط فى التسليم أن الحامية قد تنقذ نفسها مقابل دفع ٢٠٠,٠٠٠ عملة ذهبية بيزنطية وإعادة الصليب الحقيقى إلى حالته الأولى حينما استولى عليه صلاح الدين فى حطين . ولما لم يكن فى طاقتهم دفع الفدية فى المهلة المتفق عليها ، أعدم ريتشارد الحامية الإسلامية البطلة .

وتمخضت مفاوضات للسلم مع ذلك فى ٢ من نوفمبر سنة ١١٩٢ عن تقسيم البلاد . فأعطى الشاطىء إلى اللاتين وداخل البلاد للمسلمين . ومنحت جزيرة قبرص صفة مملكة مستقلة لحساب الصليبيين ، وأنشىء فى شمال أنطاكية مملكة أرمنية الصغرى على رأسها ملك أرمينى وطبقة أرستقراطية فرنسية . واتفق على تأمين سلامة الحجاج المتجهين إلى بيت المقدس ولدعم هذا السلام ، اعتزم ريتشارد أن يزوج أخته جان ملكة صقلية من شقيق صلاح الدين . وكان مقدراً أن يحكم الزوجان بيت المقدس

---

(١) ابن لويس السابع (١١٦٥ — ١٢٢٣) اعتلى عرش فرنسا عام ١١٨١ ، واشترك مع ريتشارد قلب الأسد فى الحرب الصليبية . (المترجم)

المدينة المحايدة ، لكن هذا المشروع العاطفى لم يكتب له التوفيق . وعاد ريتشارد إلى انجلترا دون أن يدخل المدينة المقدسة .

نهاية الحملات الصليبية :

فى بداية القرن الثالث عشر ، استولت حملة جديدة على دمياط فى مصر ، ثم أخلتها . وفى سنة ١٢٢٩ استولى فريدريك الثانى على بيت المقدس من سلطان مصر ، لكن المدينة سقطت مرة ثانية فى قبضة المسلمين فى سنة ١٢٤٤ نتيجة لخلافات بين المسيحيين . واستولت من جديد حملة جديدة صليبية بقيادة القديس لويس على دمياط مرة أخرى فى سنة ١٢٤٩ ، وسارت فى اتجاه القاهرة ، لكن مجازفة الفرسان الفرنسيين ، وفيضان النيل ، والطاعون والأسقربوط كل ذلك أرغمها على التقهقر ، وأسر ملك فرنسا وهو فى مؤخرة الجيش . وعندما أطلق سراحه مقابل إعادة تسليم دمياط ، وفدية ضخمة ، وصل الحرب وأصلح الأماكن القوية التى كان المسيحيون لا يزالون يحتلونها فى سوريا ثم عاد إلى فرنسا فى سنة ١٢٥٤ ، لعدم وصول الإمدادات التى كان ينتظرها منذ ثلاث سنوات ثم توفى بالطاعون فى سنة ١٢٧٠ فى أثناء الحملة الأخيرة الصليبية الطائشة الموجهة هذه المرة ضد تونس .

كان بيبرس على رأس سلسلة من السلاطين المماليك الذين ألقى عليهم عبء القيام بالضربات الأخيرة ضد الصليبيين . فاحتل غزة فى سنة ١٢٦٣ وقيصرية فى سنة ١٢٦٥ ، ويافا وأنطاكية فى سنة ١٢٦٨ ، وأمر بذبح حامية هذه المدينة الأخيرة ، وقاد ١٠٠٠٠٠ شخص فى الأسر وهاجم خلفاؤه عكا بوسائل قوية واستولوا عليها فى سنة ١٢٩١ وذبحوا فرسان المعبد الذين كانوا يدافعون عنها . واحتل بيبرس بعد ذلك صورا وصيدا وبيروت وطرطوس ، وقذف بآخر الصليبيين فى البحر .

لم تحقق الحملات الصليبية هدفها ، بل تبين للعالمين أنها عديمة الجدوى . فقد شرح آنفاً تأثيرها الحضارى على المجتمع الأوروبى ، أما فى الشرق فلم تترك هذه الحملات غير أطلال بالية وإحساس بالمرارة لم يتبدد بعد .

صلاح الدين :

فاضت الحملات الصليبية بسمات من البطولة ومن البذل من كل نوع بل — ويا للأسف — بسمات من البربرية أيضاً لأن القسوة كالشجاعة لم تعد بالأمر الحاسم لأى من الخصمين . وهناك رجال من بين الذين خاضوا هذه المعركة الضخمة يستحقون أن تسلط عليهم الأضواء لا بسبب شجاعتهم فقد كانت هذه عملة متداولة فى نشوة المعارك — بل بسبب مايبقى فى النفس بعد ما يسكن الضجيج من الصفات التى تصنع ثروة الإنسان وسموه الأخلاقى الصادق والفضائل التى عاونت على وجه الدقة فى تقدم الحضارة والتى ستظل من صفاته الرئيسية .

تألقت شخصية صلاح الدين فى المعسكر الإسلامى والقديس لويس فى معسكر المسيحيين فى رونق قوى على أنهما العلمان الممثلان الحزم والثبات والبطلان الناصران للعدالة والقانون . وقد ظهر الاثنان فى طراز أخلاقى عال فى المناسبات الفاجعة أحياناً ، وكان نبل روحهما يلامس أيضاً خصومهما . ونهض القديس لويس بتاريخ فرنسا ، أما صلاح الدين الذى عد أحد كبار القديسين فى العالم الإسلامى فينتمى إلى الحضارة الإسلامية .

لقد استحق فعلا كل هذه الألقاب ، الملك ، والناصر ، وصلاح الدين . ولد فى سنة ١١٣٨ من أصل كردى وتلقن منذ شبابه فى القيادة على والده ، الذى كان حاكماً لبعلبك ثم دمشق ، وفى الانتصار فى ميادين القتال . وكان وزيراً فى الثلاثين من عمره ثم حاكماً لمصر ، واستولى صلاح الدين على سوريا بحفنة من الرجال . وعند موت الخليفة الفاطمى الذى ترك ١٢٫٠٠٠ جارية وثروات لايحسب لها حساب ، قسم كل شىء دون أن يحتفظ لنفسه بأى شىء . وعند ما أصبح سلطاناً فى سنة ١١٧٥ أقام صلاح الدين العدالة فأنشأ المساجد والمدارس والمستشفيات ، والكتاتيب ، وعضد فن المعمار وحفر القنوات ، وشيد القناطر ، وأنشأ نطاقاً كبيراً للرى ، ونجح مع ذلك فى تخفيض الضرائب .

وعند ما استؤنفت الحرب مع الفرنجة ، راح ينصب من نفسه حامياً للإسلام ، واستولى على سائر الممالك اللاتينية تقريباً ، وهو محارب كريم النفس . وقد رأيناه يسرح الأسرى

فى بيت المقدس دون فدية على حين جرت السادة بذبحهم . وعلى هذا المنوال عفا عن الملك جى ده لوزينيان الذى لم يف بوعده فى الكف عن استئناف الحرب والذى لم يذكر له أى أثر يدل على طيبة نفسه ، ومع ذلك وبعد أربع سنوات من سلوك صلاح الدين الكريم فى بيت المقدس ، أعدم ريتشارد قلب الأسد الألفين والسبعمائة أسير فى عكا الذين عجزوا عن دفع الدية . ويقول جونفيل : عند ما كان أطفال العرب يصيحون «كانت أمهاتهم تهمس إليهم : كفوا عن الصياح ، هاهو الملك ريتشارد جاء يبحث عنكم ، فكان الأطفال يكفون عن الصياح فى الحال بسبب خوفهم الشديد الذى كان يتملكهم عند ذكر اسم ريتشارد . وكذلك عند ما كانت الجياد تجفل من بعض الأشباح كان العرب والأتراك يقولون لها : « وهل تظنين أن هذا الشبح هو الملك ريتشارد . ؟ أما صلاح الدين فلم يعرف عنه إلا الخصال المعظمة .

كانت المعاهدة التى عقدت بعد الاستيلاء على عكا على يد الصليبيين تحدد أن المسيحيين كان لهم الحرية فى الذهاب إلى الأراضى المقدسة ، وكانوا معفين من كل جزية ومكوس بهذه المناسبة . واحتفظ صلاح الدين بكلمته ، وكانت معاملته غاية فى الرقة إلى درجة أن الحجاج تتابعوا على قبر المسيح وداخلت الريبة من ذلك ريتشارد ، وطلب من السلطان استقبال هؤلاء الذين يوصى هو بهم فقط . وأجاب السلطان بأنه لا يستطيع فى الحقيقة طرد كثير من الحجيج الذين كانوا قد تركوا آباءهم وأصدقاءهم فى بلاد بعيدة من أجل مجيئهم لقضاء فريضة العبادة .

كان صلاح الدين يمقت بدرجة كبيرة أهل الجدل وعلماء ما وراء الطبيعة وعلماء الكلام المدوسى . وكان يحتقر الفلاسفة والشعراء ورجال الأدب لكنه كان يشعر بمتعة عظيمة كلما أصغى إلى أحاديث الرسول وسنته . وكان يقرأ غالباً أصول الفقه للرازى(١) . وكان يصفه المؤرخون المسلمون بالدعة والتواضع ، والتقوى ، والتحرر والصبر ، وعدم الحقد . وكانت قناعته وزهده مضرب الأمثال . إذ كان لا يملك أرضاً ولا منزلا ولا كان صاحب إقطاع .

وبعد وفاته ، لم يوجد فى خزانته غير دينار واحد وسبعة وأربعين درهماً . مع

---

(١) هو أبو بكر الرازى الجصاص صاحب كتاب أصول الفقه .   (المترجم)

ما كان تحت يده من أموال ضخمة فى مصر ، وسوريا واليمن ، والأقاليم الشرقية . لكن كل شىء كان قد استخدم فى التخفيف من آلام شعبه « الذى أهلكته ويلات الحروب والزلازل » وكانت وفاته الذى حدثت فجأة فى سنة ١١٩٣ حداداً عاماً . ولقد رثاه أحد الكتاب فى هذه العبارات « .. أفلت الشمس عند الصباح ، وذهبت روح الدنيا التى ذهب بذهابها كثير من الأرواح ، فى تلك الساعة ظلت الألباب حائرة ، وتمثلت فيها السماء مائرة ، والجبال سائرة ، وأغمد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد ، وخفت الأرض من جبلها الذى كان عنها أن تميد ، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره ثاكلا لوحيد ، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد ، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر ، وأصيب فى سواد القلب والبصر » .

ونظر العالم المسيحى إلى صلاح الدين على أنه مثل خليق بأن يحتذى . ومجده الإيطاليون بسبب ماذكره عنه دانتى من أنه ملك ليس أقل تحرراً من الاسكندر الذى ظل فى الغموض وسط أبطال القرون القديمة إذ يقول :

«رأيت صلاح الدين فى جانب واحد منه فقط»

ويصفه الألمانى فيدا دى بازوش بقوله : «هذا الملك لم يكن مشهورا إلا بين جنوده الأوفياء » . وفى نظر الأسبانيين يتناول علو شخصيته جوهر السمو الأخلاق وفقاً لمفهوم عن «جوهر الإنسان بالذات » كما كان يقال عادة فى القرن الخامس عشر . ولكى نستخدم تعبير دون جوان مانويل . بتعارضه مع تعريف الشىء فى حدذاته ، فإن «الرجل على حد تعبير أونامونو[1] « لاشىء غير أنه إنسان كامل » . وفى نظر الإنجليز الرومانتيكيين فى هذا الشأن أصبح صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد مادة لا تنفد من القصص الخيالى لشعرائهم المتجولين الذين فاخروا بالقائدين على أنهما يمثلان وحدهما الفروسية وكان الفرنسيون متأثرين بإحساس رسالة دينية ، وعلى حد تعبير جيلبير[2] دى نوجان ،

(١) كاتب أسبانى ولد فى بيلباو (١٨٦٤ — ١٩٣٦) . مؤلف كتاب « عنوان الشعور التراجيدى بالحياة » ، وكتب رسائل هجائية مقذعة . (المترجم)

(٢) راهب بندكيانى وراعى كنيسة نوتردام ده نوجان فى عام ١٠٥٣ مات نحو عام ١١٢١ ، ألف كتاباً عن الحروب الصليبية ، ويعد من أحسن الوثائق التاريخية عن هذه الحروب .

كانت الحملات الصليبية مآثر من الله اكتملت على يد الفرنسيين . لكنهم لم يخفوا اعترافهم بأن صلاح الدين «زهرة رقيقة من البشاشة» وبوصفه بأجمل صفات الشجعان . وقبل أن يصرخ بطل مسرحية[1] كورنى (Corneille) بخمسة قرون « إن لها من مالا يحصى بالنسبة إلى أنهـا ليست مسيحية » كان الفرسان الافرنج يتأسفون على أن صلاح الدين لم يكن مسيحياً . وراحت هذه الفكرة المتفق عليها تنتفى — من الآن فصاعداً — من أذهانهم حتى لأقل شعور بالنسبة لهذا الرجل النبيل الذى يتلخص كل بغضهم له فى إخلاصه لدينه .

(١) مسرحية (Palyeuete) الفصل الرابع — المنظر الثانى . (المترجم)

(٣٢)
انعكاسات باهرة

كان الإسلام لا يزال يحافظ حتى خلال هذه العصور المظلمة على مكانته الأولى فى العالم. ويمكن أن يعد السلاطين الأول السلجوقيون ووزراؤهم من بين أحسن رجال الحكم فى التاريخ. ولم تكن المعرفة السياسية والعسكرية لصلاح الدين تقل قيمة فى أى شىء عن المعرفة السياسية والعسكرية بالنسبة لريتشارد قلب الأسد، ولفردريك ده هوهنشتاوفن والقديس لويس ومعاصريه. ومهد هؤلاء السلاطين — دون شك — سبيل النجاح للعقيدة السلفية إلى درجة اضطهاد الهرطقات الإسلامية، لكنهم أبدوا تسامحاً تجاه الأديان الأخرى فى الامبراطورية، حتى إن المرء كان يرى طوائف مسيحية منحدرة من بيزنطة تدعوهم لنجدتها ضد الحكام الذين كانوا يضطهدونهم، ومن جهة أخرى أدت حكمتهم فى أمور الدين إلى تخفيف انحرافات الفلاسفة وإلى التقليل من شأن الفلسفة فترة من الزمن. وعلى النقيض، فى الميدان الفنى لم يكن عصرهم بأقل من العصور التى سبقته فى ظل تأثيرات متنوعة وبخاصة تأثيرات مسيحية، تحرر فن المعمار بطريقة أكثر إشراقاً أيضاً، فنى الشرق، كما فى مصر، طبع السلجوقيون والأيوبيون والمماليك هذا الفن بوثبة تصوفية كان يفتقر إليها. أنه لعصر غريب، عصر صاعد وهابط معاً، وحشى وناعم فى آن واحد.

امتاز الطراز السلجوقى بقوة عوضت لحسن الحظ ما كان فيه الطراز المعمارى الفارسى من رشاقة مصطنعة. وكان من نتيجة اندماج هاتين الطريقتين الفنيتين ظهور قصور ومساجد ذات طراز جديد تغلب عليه رشاقة الخطوط وقوتها. ويجدر بنا أن أن نلاحظ أنه فى الوقت نفسه كان الفن القوطى يزدهر فى فرنسا. وهنا وهناك، كانت تقوم الدلائل الفنية الكثيرة والباقية من عصر يشع فيه من الإيمان، إيمان دينى سام حقاً، لكنه إيمان خادع كذلك، طالما قاد هذه الشعوب نفسها ليجابه بعضها بعضاً متصارعين فى ميادين القتال. وهكذا كان شأن هذا المثل الأعلى الذى كان يصنع تارة محاربين لا يقهرون، وتارة أخرى مؤسسى دول يفيضون جرأة وبأساً.

ولا تخلو أية نظرة خاطفة على تطور فن المعمار من فائدة، وبمساعدة تطور الزمن

والانصراف جملة إلى أوفى إيمان راسخ كل الرسوخ لم تعدالمساجد تتخفى فى داخل فناء فهى تملك الآن واجهات براقة وتتطاول نحو السماء وتتوج بقبو . وتتكاثر أنصاف القطع المكافىء والقباب والسطوح الداخلية للقباب،وتتحد معاً فى مجموعة متناسقة رشيقة التناسب . وقد جمعت الأمثلة الأولى لظاهرة الفن المعماري فى جامع آنى عاصمة أرمينية وشيد هذا الجامع منذ بداية الاحتلال السلجوقى ، وكذلك الآثار الباقية أطلالها اليوم فى قونية ، ويمكن أيضاً أن نعجب فى هـذه المدينة الأولى بالجامع الضخم المسمى جامع علاء الدين وبالواجهة المزخرفة لمادراده سيرتجيليه » .

ولا يزال باقياً كذلك عن عصر السلجوقيين الجامع الكبير فى الموصل وجامع المستنصر فى بغداد ، ومقبرتان وبرج طغرل بك فى الري ومقبرة سنجار فى مرو ، وثلاثة محاريب همدان ، وفى قزوين، لكن تحفة هذا الفن الجديد تظل ولاشك ماثلة فى مسجد الجمعة بأصبهان . وعندما بدىء فيه سنة ١٠٨٨ ، تتابع تشييده طيلة عدة قرون فى إتقان رائع ، حتى إن بعض جزئيات زخرفته الداخلية نظر إليها على أنها أجمل الجزئيات الزخرفية فى العالم الإسلامى . ومن العصر الأيوبى ، تظل أيضاً فى سوريا القلعة الضخمة فى حلب والجامع الكبير فى هذه المدينة ، وضريح صلاح الدين فى دمشق ، قريب من المسجد الأموى . وهنا تحولت المساجد وتلاءمت مع المطالب الجديدة لطلاب العلم من الشباب ، فقد أضيف إليها فى ذلك الوقت أروقة فى كل مكان منها ردهة (صالة) المحاضرات لتدريس الفقه وأصول الدين . وكل رواق تعلوه مئذنة ، وفى الوسط ترتفع الكتلة المهيبة للقبة الكبيرة . وفى عصر صلاح الدين أيضاً كانت قلعة القاهرة حادثاً خطيراً ، وقامت أسوار المدينة (١١٨٣) التى أتمها خلفاؤه فيما بعد بالاستفادة من أحجار الأهرام الصغيرة ، لأن الأحجار نادرة فى بلد أرضها من الطمى .

وإذا كان الإنتاج الفنى وبخاصة المعمارى بلغ من الوفرة ما لم تعرفه مصر منذ ألف عام تقريباً ، فإن أصالته وتنوعه لا يزالان من السمات الملحوظة بل من السمات التى لا يمكن تصورها فى ظل نظام من الدم والحديد وعبر عصر من المعارك المستمرة . وإنما بقيت خفايا من هبة فنية راسخة كل الرسوخ فى هذا البلد المنطوى على نفسه ولحسن الحظ ظل فى مأمن من الهجرات التى لا تبقى ولا تذر ، وتذهب بكل شىء . وكان الغزو المغولى نفسه على الرغم من تخريبه الشديد للشرق مفيداً لمصر ، لأنه أكره

المتفنين والصناع على الهرب من بغداد ، والموصل ، وحلب ودمشق لكى يلجأوا إلى مناطق أكثر ملاءمة لممارسة موهبتهم وفنهم ، ومنذ ذلك الوقت انتشر لدرجة الكمال طراز المسجد — المدرسة الذى جيء به من سوريا وأصبح المثل الأعلى للقباب فى مصر التى ظلت أجمل القباب بسبب حسن تلسيقها ، وثروة زخرفتها . ويمكن أن نعجب فى فى هذه المساجد الطلاية بأسوارها المشيدة على قواعد من الأحجار ذات الألوان المتنوعة وكذلك الرسوم الزخرفية المكونة على شكل عقود من الرواسب الكلسية ، والنقوش المكونة من ملاط — مذهب . وفى كل مكان ، يتألق اللون والضوء . ولا توجد مساجد أو مقابر مملوكية دون أن تكون مزدانة بالسيفساء اللامع ، وبالقرميد ذى اللون الوضاء والأبواب الضخمة من البرنز الموشى بأسلاك من اللجين أو العسجد ، والنوافذ الفنية بزجاج ملون بألوان الطيف تختلف عليه الأضواء والظلال . وفى الوقت الذى يتعب فيه النظر من التأمل فيهرب منطلقاً نحو أفق بعيد إذا بالطراز العربى الهندسى وخطوط الكتابة الكوفية تأسر له من جديد لسبب ما فيها من رشاقة الرسم ، ورقة الخط النحى الأنيق .

ويستخلص من هذه الحضارة العجيبة حقيقة متناقضة ، مذهلة فى تناقضها . فلقد جمعت هذه الحضارة بين رقة شعب المتفننين والأدباء والفلاسفة ، وبين بربرية السلاطين المماليك وقسوتهم ممن عاصروهم فعلى الرغم من روحهم الجدبة الفجة — ظل المتفننون الملهمين والمحركين لعصر من ألمع العصور فى الحضارة العربية .

وهكذا نجد أن بيبرس أقام على التوالى المسجد والمدرسة اللذين يحملان اسمه ، وأن المنصور وابنه الناصر الذى عزل مرتين ، لكنه قاوم بعد مبايعته فى المرة الثالثة (١٢٩٣ — ١٣٤٠) — أعطيا الأمر ببناء مستشفى ، وثلاثين مسجداً ومدارس وأديرة ، ومجار للمياه وحمامات عامة . والناصر هذا هو الذى شرع فى حفر القناة الضخمة التى تربط النيل بالاسكندرية . وخصص أكثر من ١٠٠,٠٠٠ رجل لتحقيق هذا العمل العظيم الذى يؤكد فى أبدع صورة — مهما يكن التقدم — فكرة العظمة والخلود التى كانت تسيطر على روح الملوك المسلمين . وفى ذلك العصر اشتهرت القاهرة بأنها مدينة فاتنة ، وأكثر حيوية ورخاء من مدن العالم الإسلامى فى الشرق من بدء

القرن الثالث عشر . فهذا نهر النيل الوديع وقنواته يعبره عدد وفير من سفن تجارية أو من سفن النزهة . وكانت الحدائق العامة المزدحمة بالأشجار الكثيفة ، مضافاً إليها الآلاف من أشجار النخيل ذات العناقيد الحمراء أو الصفراء الذهبية وفيها مبان رشيقة ومآذن مدببة ومتطاولة ، وكانت الشوارع الدافقة بالحياة وبالحركة تعج بجمهور يجذب الأنظار تتجلى بين يديه سلال من الخضر والفواكه ، وحوانيت صغيرة فى الهواء الطلق وبين حين وآخر ينحى المار لكى يفسح الطريق لقوافل الجمال التى لا تنقطع عن السير محملة بالمنتجات الثمينة أو ببضائع قليلة القيمة . وعلى جانبى الشارع تظل المساكن موصدة تحجب ضوء الشمس ، والضوضاء ، والفضوليين . ولم يكن يرى من هذه المساكن وحياتها الداخلية الفاخرة غير حدائق مقفلة أو أفنية مظللة ونافورات مياه ذات ألوان متعددة وسطوح بيضاء ، وتسود الزخرفة التى لا مثيل لها مساكن المدينة وسقوفها ، ويبرز منظر قلعة صلاح الدين الذى لا يمكن أن ينسى على أنه منظر خيالى وكأنه رؤيا حالمة فى السماء الصافية المزينة بالنجوم وفى الليل على ضوء القمر .

العصر الوسيط الكلاسيكى

(من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر)

لقد ساعد انحلال الامبراطورية أيضاً على نهضة الآداب ، بزيادة تعدد قصور الملوك وعدد حماة الآداب والفنون ونصرائهما وكانت جميع الأسر المالكة كبيرها وصغيرها تتابع عن إخلاص إنتاج العباسيين فى الميدان الأدبى .

هذه هى المرحلة الكلاسيكية التى تشمل العصر الوسيط من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر والتى ظل الحب فى أثنائها أيضاً بجميع صوره المختلفة الموضوع الرئيسى للشعر العربى . ويعبر ابن خفاجة المعجب بنفسه بهذا الوصف المعجز للشىء المحبوب :

خالطت أطراف الأسنة أنجما وحست بهالات البدور ديارا
ولم تك إلا رشفة واعتناقة ويعجبنى أنى أعف إزارا

ومع ابن شرف ، كان القلق والخوف من الحب هما اللذان يوحيان بالشعر الحزين .

وكان ابن حزم المتوفى عام ١٠٦٤ الحبيب العاطفى الذى كان يلذ له انتظار اللقاء والقلب خافق ، وكان يلذ له توسل الحبيب وتألمه واستعطافه وبكاؤه :

برغبة لو إلى ربى دعوت بها   لكان ذنبي عند الله مغفوراً

وإذا اتفق لنا أن نذكر من هذه الأشعار ، أشعاراً أخرى كثيرة ، فإننا سوف نجد أنفسنا أمام نفس الموضوعات ونفس هذه الثروة الملهمة . وهناك مكانة خاصة بالنسبة للحب الصادق المفعم بالمرارة من الصوفى الجنيد[1] ، وبالنسبة للعاشقين الميالين إلى الحزن والذين يتعطشون إلى الحب :

إذا قلت أهدى الهجر لى حلل البلى
تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وإن قلت هذا القلب أحرقه الهوى
تقولى بنيران الهوى شرف القلب
وإن قلت ما أذنبت قلت مجيبة
حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

حقاً كان الأدب موضوعات أخرى فى ذلك العصر غير الحب . وتظرة إلى ما قبل هذا العصر نجد أن الحاجة اضطرت المؤرخ أن يؤكد وجوده بدوره بسبب ضرورة جمع الأحداث الماضية وأعمال المشهورين من الرجال .

---

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريرى المتوفى سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨ . قال الشيخ الجنيد : ما انتفعت بشىء انتفاعى بأبيات سمعتها ، قيل له : وما هى؟ قال : مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغنى من دار فأنصت لها فسمعتها تقول: (إذا قلت أهدى الهجر لى حلل البلى ... الخ المنشور فوق هذا الكلام) فصعقت وصحت فبينا أنا كذلك إذ بصاحب الدار قد خرج ، فقال ماهذا يا سيدى ؟ فقلت له ما سمعت ، فقال : أشهدك أنها هبة منى لك ، فقلت قد قبلتها وهى حرة لوجه الله تعالى ، ثم زوجتها لأحد أصحابنا بالرباط فولدت له ولداً نبيلا ، ونشأ أحسن نشوء وحج على قدميه ثلاثين حجة [عن وفيات الأعيان وأبناء الزمان لابن خلكان ج ١ ص ٣٢٤] . (المترجم)

وكان أهم مؤلف كتب فى هـذا النوع هو وفيات الأعيان لمحمد ابن خلـكان (١٢١١ — ١٢٨٢) ويحتوى هذا المؤلف على ترجمة تاريخية من ثمانمائة إلى تسعمائة من خيرة الرجال فى الإسلام[1] . وعلى الرغم من أن ابن خلـكان يلاحظ عليه الدقة فإنه حذر قارئيه بأن الله لم يرد أن يوجد كتاب بدون عيوب ، خلا القرآن . وألف معاصره البوصيرى (١٢٢١ — ١٢٩٤) تكريماً للنبى (ﷺ) القصيدة المشهورة (البردة) التى كان المرء ينشدها أيضاً فى أثناء تشييع الجنـازات : وكتب أبو الفدا الأيوبى (١٢٧٣ — ١٣٣١) حياة النبى (ﷺ) . ويروى مؤلفون آخرون حياة الفلاسفة وحياة العلماء ورجالاً آخرين ذائعى الصيت . مثل محمد الصوفى[2] الذى أهمل مثلا — أو كما يحدث أحياناً بين زملاء — أن يذكر عمر الخيام الذى كان قد عاش مع ذلك بقرن قبله .

عمر الخيـام :

يظل اسم عمر الخيام أول شاعر يتوارد على الذهن عند ما يذكر الشعر الفارسى . والحق ، أننا ننظر إليه فى بلده على أنه أحـد كبار الرياضيين فى العصر الوسيط وقد اتخذت أشعاره فى بلده على أنها لهو عالم .

وكثيراً ما كان القفطى ، وهو معاصر لمحمد الصوفى ومترجم لحياة ٤١٤ فيلسوفاً وعالماً — يحكم لعمر « بأنه لامثيل له فى الفلك وفى الفلسفة » على الرغم من أنه يلتزم

---

(١) يقول ابن خلـكان : « فمن وقف على هذا الـكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمـل بالمؤاخذة فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة بحسب ما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لـكن هذا جهد المقل وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منحنا من مشرع عطائه النمير الصافى إن شـاء الله تعالى بمنه وكرمه . (المترجم)

(٢) ألف موسوعة تشمل ترجمة ثلثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام . (المترجم)

صمتاً متزناً تجاه الموضوعات الحية ، ويتجنب تناولها دون لباقة . وقد لمع عمر الخيام فى الميدان العلمى وهوجم بعنف من أجل ميتافيزيقيته . وكشف الصوفيون عن رمز تصوفى فى شعره ، ثم أعلنوا أخيراً أنه أكبر مفكر فى عصره وقد نظر إليه فى القرن الثالث عشر على أنه فيلسوف زنديق . وقد بعثرت الأيام مؤلفاته الفلسفية ولم تستطع أن تعيد تكوينها إلا جزئياً ، وعلمه فن الجبر أن يكون مبرزاً ، وكذلك تفوق علمه فى التقويم وهو أكثر صحة من علمنا فى التقويم ، لكن أثره الدائم والمحبوب هو رباعياته ، فقد ترجمت إلى كل اللغات . والرباعية (مكونة من أربع) ، هى كما يدل عليها اسمها ، شعر من أربعة أبيات ، ولم يسجل الفرس الرباعيات بترتيب الفكرة أو الموضوعات ، لكن بترتيب الحروف الأبجدية ، ويوجد من هذه الرباعيات آلاف فى الشعر الفارسى ، وتحتفظ مكتبة بودليان فى اكسفورد بالمخطوط الفارسى لرباعيات عمر الخيام ، ويرجع تاريخ كتابه إلى سنة ١٤٦٠ . ونسبت بعض الرباعيات إلى أبى سعد ، وبعضها الآخر إلى ابن سينا ، ولا يمكن المرء أن يجزم أن كل هذه الرباعيات المنسوبة إلى الخيام هى من نظمه حقاً . وتفضح هذه الرباعات المشهورة المطبوعة بطابع التفاؤل أو التشاؤم رباعية بعد رباعية زيف هذا العالم ، وتستهجن الرياء والحقد ، وتشيد بالنبيذ (ذى اللون الوردى) . هل كان عمر فى رباعياته متصوفاً ، أو متحرراً ، أو اشتراكياً ؟ يمكن أن يكون كل أولئك على التوالى لكنه كان كذلك أبيقورياً عذباً مولعاً بأفكار مبتكرة وأحلام ملسقة ، إنه شاعر حق مافى ذلك شك .

قد كان يدرى الله كل فعالنا
من يوم صور طيننا وبرانا
لم نرتكب ذنباً بدون قضائه
فلإذن لماذا ندخل النيرانا

* * *

هلم حبيبى نترك الهم فى غد
ونغنم قصير العمر قبل فوات
إذا كان من يهوى وينكر لى لظى

ستری الجنان كراحة اليد تصغر(١)

وكانت قوة إرادة الصوفيين الشديدة الحماسة لاتستطيع أن تخدع نفسها بهذه الأشعار ، ولا يمكن أن يقصد هنا شراب مطلق أو نشوة يتمخض عنها الحب الإلهى ، بل تقصد النشوة الخمرية التى يهيئها الشارب بوفرة عصير الكرم .

ولد الخيام فى نيسابور وهى مدينة ملكية على باب الصحراء الكبيرة الملحة ، ويعنى اسم خيام « صانع خيام » ومات فى سنة ١٢١٤ وهذا ما يرويه نظامى العروضى :

« هبط عمر الخيام (سنة ٥٠٦ هجرية) مدينة بلخ ونزل فى قصر الأمير أبى سعد. وكنت فى خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول : سيكون قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه فى كل ربيع وظننته يقول مستحيلا . ولكننى كنت أعلم أنه لايلقى القول جزافاً . ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هجرية فقيل لى بأن ذاك الرجل العظيم قد مات. وكان له على حق الأستاذ ، فرأيت من واجبى أن أزور قبره وصحبت من يدلنى عليه فأخرجنى إلى مقبرة الحيرة وهناك رأيت على يسار الزائر فى سفح سور حديقة موضع دفنه ورأيت أشجار الكمثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار فمدت بالذاكرة إلى تلك القصة التى سمعتها منه فى بلخ وغشينى الحزن وغلبنى البكاء لأنى لم أكن أعرف له نداً بين الرجال وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلا منه وكرماً » .

وعاش عمر خمسة وثمانين عاماً ، وإذا اجترأنا على القول بأن هذه الألف والمائتين من الرباعيات ذات المقام الواحد لم تلعب إلا دوراً صغيراً فى حياته الطويلة ، وبخاصة هذه الحياة التى شغلت نفسها بحل المعادلات من الدرجة الثالثة وينقد مصادرات إقليدس وهما أقل نشوة — لو لم تكونا للرياضى — من عطر أشعاره .

---

(١) هنا ذكر المؤلف ثلاثة أبيات أخرى لم نعثر عليهـا فيما ترجم عن الخيام إلى اللغة العربية ، وقد رأينا فى ترجمتها نثراً قد يفسد المعنى . . . لذا لزم التنويه (المترجم)

هذا إلى أن البيت الرابع لايتفق فى رويه مع البيت الثانى نظيره المنتهى بكلمة : فوات : والأجدر أن يكون البيت الرابع هكذا :

إذا كان من يهوى ويسكر فى لظى   تبيت خواء ساحة الجنات

كما يلاحظ أن وزن الشطر الأخير من الكامل وسائر الأبيات من الطويل

الاضمحلال الأدبى :

شجع تعدد الدول فى الوقت نفسه تقدم الاتجاهات القومية فى مختلف البلاد التى كانت تشكل العالم الإسلامى . وكانت كل مملكة تريد أن تسمو ببلادها ، ومن هـذا التاريخ بدأ اتجـاه ملحوظ نحو دراسة الناس وأمورهم فى كل بلد . وعلى هذا المنوال كانت توجد منافسات سياسية ، ومنافسات أدبية بين أتراك وإيرانيين ، وبين عراقيين وسوريين ، وبين عرب الشمال وعرب الجنوب . وعلى عكس المألوف ، لم تـكن هذه المنافسات مثمرة ، ولم تنجح فى إحداث جو من تنافس العصور الخلاقة . وكان قد مضى العصر الذهبي لضروب التقدم المشرق في الآداب والعلوم؛ وكان هذا بداية الاضمحلال الذى تلاحق على مر القرون التالية .

وألف الإيرانيون قصصاً لا حصر لهـا فى الحب على نسق شعرى ذى شكل أدبى جميل . وقد نالت هـذه القصص كثيراً من النجاح . وكانت القصة الشعرية الفارسية الأكثر شعبية قد طبعت فى عام ١١٨٨ ، وهى ليلى والمجنون لنظامى . وعلى عكس عمر، كان نظامى مشهوراً بتقواه ، وباعتداله ، وبتفانيه فى الشعر ، ويعيد بطل القصة ليـلى التى يزوجها أبوها لآخر ، وتلحق به يوماً ، لـكن ذلك لـكى يموتا معاً .

هذا هو الموضوع الأبدى فى الشعر الشرقى الذى لا تستطيع أن تبدع فيه أساطير الحب بدون دموع وبدون أحزان . وفى ذلك العصر ،كان الأدب الصوفى يتغنى بالحب الإلهى . ونشأ فريد الدين العطار — أحد منشئى هذا النوع من الأدب الصوفى — فى نيسابور فى عام ١١١٩ ، وقد تضمن مؤلفه أكثر من مائتى ألف من الأبيـات الشعرية . وكتابه « منطق الطير » الذى خلد ذكره فى الأجيال التالية ، شعر رمزى من ثناياه تبحث الطير عن ملك . والطير رمز للصوفية التى تبحث عن الحقيقة .

وكان ابن الفارض صوفياً كبيراً ولد بالقاهرة فى عام ١١٨١ وعبر عن جميع الموضوعات الصوفية فى قصائد رائعة . وإن حرارة العاطفة التى تعبر عنهـا لتجعل المرء يظن أنه يقرأ أشعاراً فى الحب الحسى والرغبـات الشهوانية ، لولا ورود كلمة أو بيت من الشعر من هنـا وهناك تبعث « الروحانية » العلوية للالهام . وهذه الأشعار التى

أصبحت كلاسيكية ، ترتل أيضاً جماعية فى أثناء الجلسات الروحية للدراويش .

فى عصر سعدى الشيرازى :

لكن سعدى كان الانعكاس الأكثر وضوحاً لهذا العصر المنحل . فقد ولد فى شيراز فى سنة ١١٨٤ وتلقى دراسته فى المدرسة النظامية السنية فى بغداد ورحل كثيراً فى العالم الإسلامى ، وفى الأقطار المتاخمة . ولما حارب ضد الصليبيين أسر ، وسرح مقابل فدية ، واعتقد أن الواجب عليه اعترافاً بالجميل أن يتزوج من ابنة الذى أطلق سرحه . وكانت هذه المرأة شرسة ، فطلقها . وفى سن الخمسين ، آب إلى شيراز ، التى كان لزاماً عليه أن يقضى فيها خمسين سنة أخرى ، وتؤرخ كل مؤلفاته الفترة الثانية من حياته .

وكتب سعدى « بند نامه » أو كتاب الأحكام ، و « الديوان » وهو ديوان من الأشعار الورعة أو البذيئة و « الجلستان » أو روضة الورد ، وهى مجموعة من الملح والأشعار المختلطة ، و « البستان » الذى يعرض فلسفته المشحونة باللذة الجسدية ، وتتفوق هذه المؤلفات المتنوعة بسبب خيال إلهامها ، وبثورة استعاراتها . وكان سعدى قد اجتاز كثيراً من المحن التى عرف بهدوئه أن يتغلب عليها على الدوام . وكان شديد التأثر بالجمال فى شتى صوره وتوفر له فن التعبير عن أفكاره بصيغة محكمة ، وعبارات أخاذة وموازنات موفقة .

وليس من الممكن أن نتتبع ههنا هذه النصوص الرائعة التى تفوح فيها لذاته الجسدية الرقيقة ، كما لا يمكن مقاومة لذة الاستفادة ببعض ثمار تجربته الفنية :

يستطيع فقيران أن يناما على بساط ، ولكن ملكين لاتتسع لهما مملكة بأكملها .

لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول : أنا جاهل .

لا تتعجل وتعلم الأناة فإن الجواد العربى يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ، أما الجمل فيمشى على مهل ولكنه يسافر بالليل والنهار حتى يصل إلى آخر سفره .

إن خفة البندقية لدليل على أنها فارغة .

الخلاصة ، كان سعدى شاعراً وفيلسوفاً فى وقت واحد لكنه فيلسوف سهل العبارة وشاعر زاخر بالحكمة ، وقد مات حوالى عام ١٢٨٠ .

أما القرن التالى فقد انتشر فيه اسم حافظ الشيرازى .

حافظ الشيرازى :

كان أعظم شاعر غنائى فى إيران وربما كان كذلك فى الشرق كله ، وادعته كل من تركيا وأفغانستان والهند على أنه رمز مجدها الوطنى . وكان لا يعوزه أن ينقد — عند ما كان يقتضيه النقد — الادعاء بالعلم والمعرفة ، والنفاق فى معاصريه ؛ كما كان ينقد بعض رجال الدين — وإنه لأهل لنقد كل أولئك لما كان يفيض به من الحكمة والصفاء .

اشرب مطمئناً فإن الشيخ والحافظ والمفتى والمحتسب كلهم منافقون إذا رأيتهم عن كثب . .

لكنه من جهة أخرى يفيض بجاذبية ساحرة رقيقة عند ما يعود الربيع .

ستنثر أنفاس الصبا عبير المسك والطيب فيصبح العالم العجوز غض الإرهاب نضير الشباب . . وستهدى زهرات الأرغوان أكؤس العقيق إلى الزنابق البيض .. وتتطلع أعين النرجس إلى خدود الشقائق الحمر . . وسيمضى البلبل فى ألمه الذى احتمله بسبب البعد والهجران فتتجاوب أصداؤه فى مخيم الورد والريحان . . فلا تحقر أمرى إذا مضيت من المسجد إلى بيت الحان ، فمجلس الوعظ طويل وسيمضى بنا الزمان .

* * *

ويا قلبى إذا أجلت لهو اليوم إلى غد .
فمنذا الذى يضمن لك البقاء إلى الغداة .

(٢٣)

الأسرات الأخيرة

غارة المغول :

بعد أن بعث الأتراك السلجوقيون قوة فى العالم الإسلامى أتاحت له أن يقاوم المعركة الطويلة للصليبيين ، انهمكوا بدورهم فى الترف ، وتركوا الأمبرطورية تتفتت إلى ممالك صغيرة مشرقة حقا ، لكن كلا منها كانت تقف تجاه الأخرى بالمرصاد بيد أن قبائل السهوب الحربية فى الشرق حينما كان يستبد بهما الجوع أو تجف لديها منابع الرزق نتيجة جدب الأرض — كانت تلك القبائل فى هذه الأحوال ترحل مهاجرة تجاه الحدود حيث توجد مناطق أكثر ثروة . وسيظل هذا دائما التفسير الكاشف لهذه التيارات الكبيرة من الغزوات التى كانت تفوق جميع الأحداث الأخرى فى التاريخ .

ثم جاء جنكيز خان الفارس المغولى الخالد والمثير للرعب أيضا كأسلافه الأقدمين الهون — وإن كان أحسن إعداد وتنظيما ، وشرع يضع يده على آسيا الوسطى . ففى سنة ١٢١٦ انتصر ٦٠,٠٠٠ مغربى مسلحين بأقواس غربية ، قاذفين بالأسهم وهم على ظهور الخيل فى زحف سريع على محمد شاه الخوارزمى . واكتسح جيش آخر بخارى بقيادة جنكيزخان وعسكرت خيول آسيا فى المساجد ، وهى أمكنة لتأدية فرائض الصلاة والتبحر فى العلوم . وكان عبثا أن تستسلم سمرقند وبلخ ، إذ ذهبت المدينتان ضحية مذبحة نفذت بشدة لم تستطيعا معها أن تنهضا من كبوتهما التى لازمتهما حوالى مائة عام . ودمر ابن جنكيزخان وهو يتابع اكتساحاته ، خراسان ، كما خربت مرو . وناضلت نيسابور ببسالة ، لكنها سقطت فى سنة ١٢٢١ ، ونهبت الرى . وكان عبثا كذلك أن يحاول جلال الدين ابن محمد شاه التوجه ناحية نهر السند ليبدأ الهجوم . فقد غلب على أمره . وسقطت هراة وأصبحت أنقاضاً . وصار كل شىء خرابا يبابا ، وظلاما ، ودماراً ، وهناك حيث قامت قديما المدن المزدهرة ، أزيلت جميع المراكز الثقافية فى العالم الإسلامى الشرقى ، وهدمت آلاف المساجد من وجه الأرض ، وأتلفت دور الكتب ، وقتل السكان الذين لم يتمكنوا من الهرب ، بحد السيف أو ذبحوا

فرادى ، وكدست رؤوس الضحايا على شكل أهرام بغيضة . لقد كانت هـذه الوحشية المنسقة عن عمدتهدف إلى تحطيم كل محاولة للمقاومة .

بيد أن جلال الدين كان قد أعاد تنظيم جيش فى ديار بـكر ، لـكن فرقة من ٣٠٠,٠٠٠ رجل كانت فى الطريق من قبل من منغوليا تحت رياسة أوغلاى ، وهو ابن جنـكيز وخليفته والمشبع بالجنون التدميرى ، ونهب هـذا الغازى أذربيجان ، وشمالى ما بين النهرين وجورجيا وأرمينية . ومات أوغلاى عام ١٢٤١ وبموته أنقذ القليل الذى بقى من العالم الإسلامى . وبعد فترة قصيرة ، انتشرت موجة أخرى من الغزو سنة ١٢٥٣ . وقد رأس هذه الغزوة هولاكو حفيد جنكيز ، وتقدم من ناحية سمرقند وبلخ . وقضى على الممالك الصغيرة التى كانت قـد أقيمت على أنقاض الخلافة ، واتجه نحو بغداد . وفى يناير من سنة ١٢٥٨ هجم بآلات الحصادعلى العاصمة وفتح فيها ثغرة . وتقدم الوزير الـكبير ليناقش أى شروط للتسليم ، ولـكن هولاكو رفض أن يستقبله .

كان المستعصم آخر خلفاء العباسين عالمـا ورعا ، وواهبا نفسه للدين والعـلم . بيد أنه كان قد تنبأ لهولاكو . « إذا قتل الخليفة ، فإن العالم كله سينقلب رأسا على عقب وستكون الشمس فى حال كسوف ، وسيتوقف سقوط المطر ، وسيتوقف النبات عن النمو » . لـكن هذا المغولىالذى طمأنه علماء التنجيم ، لم يدع نفسه يتأثر بهذه النبوءة . ففى العاشر من فبراير كانت جيوشه تتوغل داخل المدينة ، حيث قدم الخليفة فى حراسة ولديه و ٣٠٠٠ من الموظفين الـكبار ، ليعرض عليه تسليما بدون قيد ولا شرط . ويقال إن ٨٠٠,٠٠٠ من السكان ذبحوا ، و ٢٤,٠٠٠ عالم دينى نفذ فيهم حـكم الإعدام ، ومات آلاف من العلماء ، والشعراء والمشتغلين بدراسة العلوم الأبرياء الذين هم دائما الضحايا — فى هذه المجزرة البشعة . ونهبت أو أتلفت كنوز مكدوسة منذ قرون . وقذف بكومات من الـكتب فى نهر دجلة ، كادت لـكثرتها تقف مجرى مياه النهر « وكانت المخطوطات المـكدوسة تشكل جسرا من شاطىء إلى الشاطىء الآخر وحرق الغزاة بقية ما شاهدوه طافيا خوفا من عدم فيضان النهر بالمـاء » . وطيلة عدة أيام ، أصبحت مياه دجلة سوداء من حبر ملايين الـكتب والمخطوطات التى كانت قد ألقيت فيه . وبعد أن أكره الخليفة وأسرته على الـكشف عن ثرواتهم ، قتلوا بعد ذلك .

ولأول مرة — منذ ٦٠٠ عام — يعيش العالم الإسلامي بلا رئيس ديني أو إمام .

وفي سنة ١٢٦٠ ، استولى هولاكو على حماة ، وحمص ، وحلب التي قتل فيها — كما يقال — ٥٠٫٠٠٠ شخص بحد السيف . ثم عاد إلى منغوليا التي مات فيها من قبل أخوه خان الأكبر . وتابع الجيش الذي كان قد تركه فتوحه وأخضع سوريا ، ولكن في عين جالوت بالقرب من الناصرة ، وجد نفسه بغتة أمام جيش مصري . وقد قدر لهذا الجيش أن ينقذ مصر بل أوروبا من التهديد المغولي بعد انتصار كان ثمنه غاليا بقيادة قطز وبيبرس . وعندما انحسر المد المغولي ، ترك وراءه بلاداً أصيبت إصابة قاتلة في بنائها واقتصادها ، وشعبا مقطع الأوصال ، لا نظام ولا قوة ولا نشاط .

وقد ألقى اللوم على هذا الانهيار الذي تحصر أسبابه المباشرة في هذه السلسلة الطويلة من الهزائم التي كانت قد ابتليت بها الجيوش الإسلامية قبل انتصار عين جالوت وفي أزمنة أخرى ، كانت هذه الجيوش تواجه جيشا أكثر بأسا ، وكانت تنتهي بدون شك بصد الموجة المدمرة . فكان على المغوليين أن يعودوا من حيث أتوا مثل الهون في معارك قطالونيا ، ومثل العرب أنفسهم في بواتييه .

«نحن الحضارات الأخرى ، نعرف أننا إلى فناء» هذه الملاحظة التي يعاد تكرارها كثيرا جداً ، والتي تحققت عن طريق التجربة ، نسيت تماما . بيد أن التاريخ يقف دائما بذكرياته المخيفة ، والجيران الذين يتضورون جوعا يقفون دائما على الأبواب ، وعلى اتم استعداد للانقاض على هذه الحضارات ، عندما تحين الفرصة الملائمة .

لم يكن السبب الرئيسي للسقوط الشنيع للحضارة الإسلامية في الهجوم المقبل من الخارج ، ولكنه يكمن في الانحلال البطيء للقوى الداخلية وتماسكها ، وفي الفوضى السياسية والأخلاقية التي أحدثها الفساد والعجز ، والخمول والخوف ، وربما أحدثها كذلك افتقار معين للتحول الطبيعي مع التطور المادي للحضارة . حقا قد اعترف خان الأكبر بالإسلام كدين للدولة بعد خمسين عاما من انهيار الأمبرطورية وكان هذا نصرا أدبيا كبيرا ، لكن الأمبرطورية الإسلامية بقيت بعد ذلك مصابة في وحدتها إلى الأعماق .

المماليك :

إن أسرة المماليك وهي آخر أسرة في العالم العربي تشكل النتيجة المنطقية للانحلال الذي كان يفت في عضد الامبرطورية الإسلامية منذ أكثر من أربعة قرون ؛ فكانت أسر مصر على مثال خلفاء بغداد تتخذ لأنفسها حرسا من المماليك الأجانب ، وبذلك انتهى الأمر إلى النتيجة نفسها فقد حكم الحرس المرتزقة الدولة أولا ، ثم عين رئيسهم السلطان ولم تعد توجد قاعدة لوراثة الملك ، فقد كان الأقوى هو الذي يحكم . لكن هؤلاء السلاطين، وهم مماليك من أجناس وقوميات مختلفة ، وأجانب عن مصر ، لم يمنحوها في أثناء توليهم الملك غير قليل من إنجاز بعض المهام .

كان أعظمهم جميعا بيبرس الذي نشأ مملوكا تركيا ، اكتملت فيه إلى أقصى حد خصائص الرياسة ، وكان بيبرس قد أحرز انتصاراته الأولى ضد المغول ، ولكنه كان بخاصة بطل المعركة الظافرة ضد الصليبيين . وكان قائدا عسكريا وسياسيا ، فأعاد تنظيم الجيش ، وعضد الأعمال العامة ، وأقام المنشآت الدينية والتعليمية ، والمستشفيات ، والمساجد . وكان سلطانا نافذ البصيرة لذا عقد معاهدات تحالف مع خان الأكبر صاحب مملكة المغول ، ومع شارل الأنجوى ملك صقلية وجاك ملك أرغون . وبايع عن حكمة في موكب حافل أحد العباسيين خليفة ، كان على قيد الحياة بعد مذبحة بغداد . ولم يكن منصب هذا الخليفة إلا منصبا شرفيا له السلطان الروحي دون السلطة الزمنية . غير أن هذا المبدأ استمر طيلة عدة قرون وكان خلفاء بيبرس أقل إشراقا منه فلم تلبث الضرائب الفادحة والأوبئة والمجاعات المتكررة ، والفوضى المستمرة ، أن خربت شيئا فشيئا مصر . ومن بداية القرن الرابع عشر أصبحت أسماء هؤلاء السلاطين غير جديرة بالذكر . وكل ما تميزوا به الجهل والوحشية . وقد حكم أحد هؤلاء السلاطين على أطبائه أن بقطع رءوسهم لعجزهم عن شفائه من أمراضه، كما كان هناك سلطان آخر كل ما شهر به هو الغباوة والجهل وعدم توقيع القرارات الرسمية ، وأكثر غرابة من ذلك هذا الذي أمر بقطع لسان كيميائي لم يستطع أن يحول أو كسيد الرصاص ذهباً .

ويجب أن نضيف أن هؤلاء الحكام المماليك كانوا بعامة رجال أعمال ، بل

تجارا غاية فى الجشع . يحكى أن أحدهم احتكر الفلفل وباعه بعد ذلك للرعية بعوائد ضخمة ولما لم ترو هذه المحاولة غلته ، أجرى هذه المحاولة نفسها مع السكر .

وكان من الطبيعى نتيجة سوء الأحوال العامة أن يشرف الاقتصاد على الخطر وتنقص المواد الغذائية ، ويصبح القحط مرضا مزمنا فى مصر التعسة ، وفى سوريا التى كانت تعتمد عليها . ويقال : إن هذين الإقليمين فقدا تحت ظل المماليك أكثر من ثلثى سكانهما . وأخيرا خربت غزوة تيمورلنك فى بداية القرن الخامس عشر سوريا التى هدم فيها كل ما بقى من مساجد ومن وآثار ، ومن مدارس ، لكيلا يقام أبداً مرة أخرى .

وهناك سبب آخر حدد شيئا فشيئا خسوف السلطان العربى ففى حوالى نهاية القرن الخامس عشر عندما عبر فاسكو ده جاما رأس الرجاء الصالح تحولت تجارة الهند والجزيرة العربية عن الموانى السورية والمصرية . ففقدت نهائيا مصدرا هاما للدخل . وكان كشف أمريكا كذلك يشير إلى انطلاق عصر جديد . واتجهت أنواع النشاط نحو الغرب ، وراح مركز الجاذبية للحضارة ينتقل فى هذا الاتجاه ، هذا إلى أن الامبراطورية العربية الشرقية تلقت ضربة قاضية بيد الأتراك . ففى سنة ١٥١٦ ، بالقرب من حلب انتصر العثمانيون — أولاد عم السلاجقة — الذين كانوا قد استولوا على القسطنطينية — على جيش المماليك ، حتى إذا احتلوا سوريا ، انتزعوا السلطنة من القاهرة ، واستولوا على المدن المقدسة . ولم يتردد السلطان التركى فى القسطنطينية أن ينسب إلى نفسه امتيازات الخليفة ، ويغتصب بعدها لقب الخلافة . وهكذا شاخت الامبراطورية العربية فى الشرق .

مملكة غرناطة :

يجدر بنا أن نعود الآن إلى الأمبرطورية فى الغرب . لقد ضعف بسرعة المحاربون المترهبون أتباع يوسف بن تاشفين بعد اتصالهم بالعادات الأندلسية . ففى الجبال الواقعة جنوبى مدينة مراكش التى نسى خلفاؤه مراقبتها ، أخذت القبائل تتوالى — جماعات — وراء مهدى كان يدعو إلى العودة إلى بساطة الحياة والإيمان . وهكذا خلفت أسرة بربرية هى أسرة الموحدين ، أسرة المرابطين فى بلاد مراكش أولا ، ثم فى أسبانيا .

ويعيد التاريخ نفسه ، إنه دائماً هو نفس التاريخ في خطوطه الكبيرة . فقد جدد هؤلاء المحاربون الفضلاء النظام ، وعاد الرخاء ، وانتشرت العلوم والفنون . وكان أن ساد من جديد الترف بنتائجه الحتمية ، وفقدت الخصائص الحربية ، وفسدت السلطة ، وضعفت ، وتفلتت ، وأقبلت قبائل أخرى لتحل محل هؤلاء . وهكذا يحدث في الغرب من الانحلال والاضمحلال مثل ما حدث في الشرق .

ولم تتح تقلبات الأمور في أسرة الموحدين ، والدول الصغيرة التي نشأت عن تلتها ، النهوض بتاريخ الحضارة العربية . وعرضت للخطر ما يخص الغرب من النتائج الباهرة التي أتت نتيجة الاتصالات التي امتدت بين المسلمين والمسيحيين . وظلت هذه العلاقات يحدوها التوفيق حتى طيلة المراحل الحربية المستمرة ، لكن حدث ذات يوم أن المسيحيين الذين كانوا منقسمين حتى ذلك الوقت اتحدوا معاً وهاجموا الجيش الإسلامي الذي كان يقوده محمد الناصر (١١٩٩ — ١٢١٤) . وكان أبو يوسف يعقوب نابهاً حقاً إذ أقدم بجرأة على التخلي عن ابن رشد في سبيل أن يشرك رجال الدين في سياسته الحربية . ولما كان الناصر مكرساً نفسه للملذات فلم يكن يهتم لا بالفلسفة ولا بالدين . وقد غلب على أمره في واقعة العقاب في سنة ١٢٣٦ ، وبلنسيه في سنة ١٢٣٨ ، وأشبيلية في سنة ١٢٤٨ ولما أضنى الكفاح العرب في كل ناحية ، تقهقروا في مأمن من سيرانيفادا في مملكة غرناطة التي ظلت تحت حكمهم قرنين ، واختفت آخر صورة مصغرة من السيادة الإسلامية الآفلة في الغرب .

كان الموحدون من المشيدين الكبار للحصون أولا ، وللقصور ثانياً ، ويمثل قصر أشبيلية ازدواج هاتين الطريقتين المعماريتين الفنيتين ، نعني بهما طريقة الحصن وطريقة الصرح ، وأنشأ الملوك المسيحيون مساكنهم على أساس هذا الازدواج في سنة ١٢٤٨ ، وكبروه . والقصر (الكازار بالاسبانية) أثر ذو طراز عربي أسباني ، أي مسيحي مغربي على شاكلة قصر سانتا ماريا لابلانكا في طليطلة ، وقصر كوربوس كريستي في بطليوس وبرج لاجيرالدا المربع المعظم الذي يبلغ طوله ٩٤ متراً ، والشبيه ببرج الحسن في الرباط وقصر الكنيسة في مراكش هو كذلك من طراز أسباني عربي ، في ثلثه الأعلى الذي يتوافق على وجه تام مع قاعدته المغربية . وتمثل شرفاته المطلة على الأروقة ونوافذه خرلزافة حلية ثمينة من العمارة ، وأخذ برج لاجيرالدا اسمه عن تمثال برنزي يمثل

الدين المسيحي ويفوقه علواً ، وعلى الرغم من ثقله فإنه يدور لأقل هبة رياح . ومن البديهي أن برج لاجيرالدا لم يكن يستطيع أن يمثل العقيدة الاسبانية التي كانت محرمة في هذا البلد الكريم .

ويبقى قصر الحمراء في غرناطة أجمل مبنى في أسبانيا الإسلامية ، وهو في الوقت نفسه أحد مبتكرات عبقرية الإنسان العجيبة ، واسمه مشتق من الصفة العربية «الأحمر[1]» وبديء في تشييده سنة ١٢٤٨ وفقاً لتخطيط فخم ، واستغرق بناؤه زمنا طويلا جداً . وكان صحنه في أول الأمر يتسع لجيش مؤلف من ٤٠,٠٠٠ جندي ، ولكن في القرون التالية تحولت هذه القلعة الشامخة إلى عدد كبير من القصور ، ومن المنازل لاقطاعيين وتمثل كذلك تحفاً رائعة من الفن . وكل ما تستطيع عبقرية الإنسان أن تتخيله من روائع الفن قد اجتمع هناك على هذه الصخرة الوعرة الانحدار ، المحفوفة بشعب عميقة في موقع ممتاز وفريد . ويشرف قصر الحمراء المعلق بين الأرض والسماء على المساحات الشاسعة المنحدرة للريف التي تخلق فيها الشمس الدافئة في أسبانيا والمياه الوفيرة لجبال سييرا المغطاة بالثلج ، أغنى المزروعات . وفي مشارفه ، يمتد منظر مدينة موشاة ، سابحة في ضوء البحر المتوسط . ويدخل في هذا القصر عن طريق واد ضيق مخصص له غارق في ظلال وارفة لاتغرب عنه يمثل نوعاً من التمهيد لدخول هذا القصر ، ثم المشهد الساحر للقصر وللحدائق التي تزخر بما فيها من جواسق وأروقة وأعمدة . وفي كل مكان منها ، تماثيل من المرمر ، وأشجار ، وأزهار وتبدو فيها شجرة النار الوردي ، وأشجار الياسمين ، أكثر تفتحاً ، وأكثر ازدهاراً من أي مكان آخر ، وأغصان أشجار الرمان ، وأشجار الليمون التي يصعب كسرها . ولا يستنشق في أي مكان آخر عطوراً أكثر فتنة من عطورها . وها هي ذي مياه سييرا البعيدة التي تجذب إلى حدائق القصر نسيما عليلا يثير الدهشة ، بينما تتوهج شمس لاتخمد في كل مكان يحيط بها . وترى هذه المياه تنفجر من كل جهة . فتتدفق على الفسيفاء ، وعلى التماثيل المرمرية ، وتندفع على شكل أعمدة صغيرة تكاد تكون

---

(١) قيل إنه نسبة إلى بني الأحمر الذين حكموا غرناطة من ١٢٣٢ إلى ١٤٩٣ ، أو من التربة الحمراء التي بني عليها القصر . (المترجم)

شفيفة أو تتناثر فى شكل قطرات لا حصر لها تتشكل بألوان متنوعة على ضوء الشمس ويشبه نص من الشعر العربى المنقوش على فاسقية بهو السباع المادة التى تلون حوض الفاسقية[1] بألوان مختلفة يشبهها بعقد اللؤلؤ فى المياه الصافية المتلألئة » .

وقد لعب علماؤهم بفن التأليف الساحر بين الحجر والماء وبين قوانين الثقل ومستوى النظر والضوء . فهذا حائط من الفسيفساء يتموج مع انكسار الضوء الذى ينعكس على الموجة مع ظلال تنساب فى اهتزاز . وفى حوض الريحان (فى قصر الحمراء) يتراقص رواقه مع أوراق الشجر التى يعكسها دون توقف . وبهو السباع الذى يربض فيه اثنا عشر سبعاً من الرخام تحرس الفاسقية يعد إحدى روائع الفن بسبب توافق أبعادها ، وتناسق أعمدتها ، ورشاقة عقودها . ويبهر المار بسبب ثروة قبابه الكاسية ، ونقوش سقوفه ، ورسومه ، وشبابيكه وزخارفه التى تتشابك بعضها فى بعض . وتعبر هذه المجموعة من القصور الفاخرة ، والشرفات ، والحدائق ، والفاسقيات عن ذروة الفن الإسلامى وأفوله فى آن واحد ، وعن نشاط مظفر يتبدد فى يسر وقوة تتطور تجاه الرشاقة ، وعظمة تتحول إلى طرافة . وهكذا ، فإن الخصائص البطولية التى كانت قد شكلت عالماً فاتحاً ، أخذت تضعف شيئاً فشيئاً تحت شطط وفرة الترف والثروة . فقد ينتهى كل ذلك إلى دعة من الحياة الرخية ، ودعوة دائمة إلى الراحة ، وإلى التبطل . وكان السكان المترفون فى هذه الجنة ذات النعم لا يستطيعون أن يصونوا فيها خصائصهم الحربية . كما أنهم جعلوا من الحكمة المتواضعة التى كان قد نقشها مؤسس هذه المملكة قدوة أملهم فى كل مكان « لا غالب إلا الله » ونجحت كياسة ملوك الأندلس ودبلوماسيتهم وقتا طويلا فى إنقاذ مملكة غرناطة ، لكن هذه الكياسة لم تستطع أن تؤجل احتلال المسيحيين المفترسين لهذه المملكة . ولم يعرف أبو[2] عبد الله آخر ملوك غرناطة — العاجز عن

---

(١) الفاسقية = ضرب من الممة ولعل ذلك تشبيه لها بالعمامة فى استدارتها . (المترجم)

(٢) سلم مفاتيح غرناطة أجمل آثار المسلمين وأروعها فى ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ ولما بكى أبو عبد الله لهول الكارثة ، وبخته أمه قائلة له : «إنك مثل النساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال » ، ثم هاجر إلى المغرب ونزل بفاس حتى مات بها ، وبقى نسله إلى سنة ١٠٣٧ يعيشون من أوقاف المسلمين المرصدة على الفقراء والمنقطعين =

المقاومة — غير التفاوض ، وسلم غرناطة فى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ . ويقال إن هذا الملك البائس كان قد طلب من الملك المسيحى أن يسد الباب الذى غادر منه قصره السحرى لكيلا يتمكن أى إنسان أن يمر به فيما بعد ، ويقال إنه عندما عبر الممر الأخير ، الذى منه تحيط النظرة بالمنظر العجيب للقصر ، انهمرت الدموع من عينيه ، وسواء أ كانت هذه القصة صدقاً أم كذباً ، فإنها قد أبقت على هذه الأسطورة الحزينة الحسرة الأخيرة لهذا المغربى .

وقد أطلق على حى من مدينة فاس « حى الأندلس » وفيه يعيش الخلفاء المنفيون من غرناطة ؛ ويحتفظ الكثير منهم كأثر باق بمفتاح منزل أبيهم . وتثير بمرارة أغنية من أحمى أغانيهم (يا أسفى) ذكرى المدينة التى لم يمح ذكراها بعد : « كم أتأسف على الماضى .. وعلى أيام الفرح والسرور ، وعلى الأمسيات اللذيذة ، يا مساكن الأندلس التى غادرناك ، لن أنساك أبداً ، وتعود ذكرى هذه الصورة نفسها على الدوام ، فيقال إنه لكى نعبر عن حزن غريق فى الأوهام دون أن نفهم دائماً مدلول هذه الكلمات :

« إنه يفكر فى غرناطة » .. [١]

= [عن تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى . تأليف الدكتور على محمد حمودة ص ٢٩٩] . (المترجم)

(١) وبذلك تجمعت الأسباب وتكاتفت الظروف على العرب لتثير فى نفوسهم نحو هذه المدينة حباً فريداً بما قد اتصفت به من صفات ، وبما قد رمزت إليه من معان . فذخر كلامهم عنها بإشارات جميلة تنطق بهذا الحب . وجمل الشعر الذى قاله شعراؤها بل الذى قاله شعراء سمعوا أخبارها ، يفيض بالحب الحار الملتهب [عن سلسلة اقرأ — ثم غربت الشمس — تأليف الدكتورة سهير القلماوى ص ٢٨] . (المترجم)

(٢٤)

غفوة العالم الاسلامى

التوسع الأوروبى:

بعد سقوط غرناطة ، اجترأ الأسبانيون حتى وصلت جرأتهم إلى درجة ملاحقة المسلمين في أفريقية . ففى بداية القرن السادس عشر ، استولوا — على التوالى — على مليلة ، والمرسى الكبير ، ووهران ، وبجاية ، ومدينة الجزائر . لكنهم مارسوا سياسة المكايد الدنيئة ، وكان لزاماً على الحاميات الأسبانية أن تحتشد فى هذه المدن كأنها جيوش محاصرة . واستنجد العرب والبربر الذين لم يسندوا العرب كما ينبغى بالأتراك . ووضع الأتراك قدمهم فى أفريقية الشمالية فى سنة ١٥١٧ . وبذا تبدأ مرحلة جديدة ، وتستمر حتى سنة ١٨٣٠ ، واستقرت حكومة عسكرية فى مدينة الجزائر ، وأصبحت إقطاعية للقسطنطينية ، وقهروا شارل كانت القادم لحصار المدينة مع ٥٠٠ سفينة و ٣٥٫٠٠٠ رجسل سنة ١٥٤٨ . ومنذ ذلك الحين أشرف الأتراك على حوض البحر المتوسط . وانتظم مشروع جبار من القرصنة وتنفذ . وبعد ماوجه هذا المشروع ضد السفن الأسبانية ، امتد حتى أصبحت جميع أساطيل أوروبا ضحايا لهذا المشروع . وقد ظل القراصنة سادة البحر المتوسط طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بل ظلوا كذلك إلى أن تم الاستيلاء على مدينة الجزائر فى سنة ١٨٣٠ .

بيد أنه من بدء سنة ١٥٣٣ ، لم تنفك فرنسا عن مراقبة إفريقية تحت صورة موانى القتال ، وتحت صورة منشآت تجارية مسموح بها . ومنذ سنة ١٥٧٧ ، عينت قنصلا فى مدينة الجزائر ، وتبعتها فى ذلك الحكومات الأخرى الأوروبية التى كانت ترغب كذلك فى حماية تجارتها . لكن ، الباى طالبهم بجزية ضخمة ، وفى سنة ١٥٧١ قهر الاسطول التركى فى لبانت ، لكن السفن الأوروبية لم تستمر كثيراً فى خضوعها لابتزاز هؤلاء القراصنة ، فعلى الرغم من الجزية المدفوعة ، صودرت شحنات السفن ، واستولى على المنشآت ، وبيع ملاحو السفن كأنهم أرقاء . وإزاء كثير من الاستفزازات وجهت انجلترا حملات تأديبية فى سنوات ١٦٢٢ ، ١٦٥٥ ، ١٦٧٢ . وفى سنة ١٦٨٢ ضربت

فرنسا مدينة الجزائر بالقنــابل بقيادة دوكين . وفى سنة ١٦٨٨ بقيــادة استريه . وطيلة القرن الثامن عشر كله دفعت جميع الدول الأوروبية ، والولايات المتحدة نفسها عند ظهورها على المسرح ، جزية إلى داى مدينة الجزائر ، لـكن القرصنة لم تخمــد أوارها ، وكان البحر المتوسـط يرغى ويزبد بهذه القرصنة . وقرر وقتئذ مؤتمر فينا أن ينهى هذه القرصنة ، ولم يحصل بعد حملة انجليزية هولندية فى عام ١٨١٦ سبقتها حملة أمريكية بعام إلا على وعود لم تغير من الموقف شيئا .

وفى سنة ١٨٣٠ ووفق على حملة فرنسية برضاء جميع القنصليات الأوروبية باستثناء انجلترا . فتوجهت لتحقق أهداف مؤتمر فينا وهى تحطيم نهــائى للقرصنة ، ووقف تام للرق ، وإلغاء الجزية التى تدفعها عبثاً الدول للقائمقامية التركية . وفى ظل العمل الحاسم لفرنسا ، أدى التفويض بسرعة ، لـكن المفاوضين نسوا بسرعة كذلك هذا التفويض . أما بربر إفريقية الذين تحرروا من الوصاية العربية التى كانت تطغى عليهم ، فلم يظهروا أى رضاء لفرنسا عن وصيتها .

تقدم الأتراك وتقهقرهم :

بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، شملت الامبراطورية التركية جميع البلاد العربية ما عدا بلاد مراكش وجزءاً من شبه جزيرة البلقان . ولم يكن السلطان رئيساً سياسياً فقط لهذه الامبراطورية الشاسعة بل كان كذلك الرئيس الدينى والخليفة لجماعة المسلمين منذ سنة ١٥١٧ . وقد انطلق إلى غزو العالم المسيحى ، واستولى على الصرب ، والبوسنة ، ومقدونيا ، والهرسك والمورة ، وأقبل على حصار فينا فى سنة ١٥٢٩ . وواجه العالم المسيحى هذه الحملات بحزم ، وفى معاهدة السلام فى كارلوفتس سنة ١٦٩٩ تنازلت تركيــا عن المجر ، والمورة ، وبودولى ، ومضيق آزوف . وفى سنة ١٧١٨ تخلصت ألبانيا ، ودلمــاسيا ، والهرســك ، من حــكم الأتراك . وفى سنة ١٧٧٥ كان دور شبه جزيرة القرم ، وبوكافين ، وفى سنة ١٨١٢ الصرب . وأخيراً فى سنة ١٨٢٧ بعد موقعة نافارين ، كان الأتراك قد فقدوا ـــ للأبد ـــ اليونان ، والصرب ، وملدافيا وفالاشيا .

منذ ذلك الحين لم تعد تركيا إلا « الرجل المريض » الذى كانت الدول الأوروبية

تترقب استخلافه وكانت جميع هذه الدول مهتمة به : روسياً عن طريق المضايق — انجلترا عن طريق الهند ، النمسا والمجرعن طريق بلاد البلقان — المانيا بسبب « حلمها فى الشرق » فرنسا عن طريق دورها كحامية للأقليات المسيحية فى الشرق .

ونتيجة لغزو مدينة الجزائر فى سنة ١٨٣٠ واحتلال بلاد تونس فى سنة ١٨٨١ أقصيت تركيا نهائياً من البحر المتوسط الغربى . وبعد احتلال انجلترا لقبرص أولا ، ثم لمصر فى عام ١٨٨٢ واحتلال إيطاليا لأقليم طرابلس وبرقة وجزر الدوديكانيز فى عام ١٩١١ ، عزلت تركيا أيضاً عن البحر المتوسط الشرقى . وعندما انتهت الحرب البلقانية فى سنة ١٩٢٢ لم تعد تنسب إلى أوروبا . وظلت الشعوب الإسلامية ما عدا القليل ، تحت سلطان القانون ، أو الحق للشعوب الأوروبية . وبدا المستقبل السياسى للعالم الإسلامى منهاراً

وقد أتاح لنا هذا المختصر الموجز أن نرى كيف تفككت الامبراطورية الإسلامية سياسيا واجتماعيا قبل العام الألف وخرجت منهوكة من طول معركة الحرب الصليبية ، ثم سقطت فى بؤس مادى وأخلاقى لاقرار له بعد أضرار المغول .

من أجل هذا استكان العالم الإسلامى إلى معارضة عامة منظمة لكل تجديد ، استمرت ٧٠٠ عام تقريباً . ونجده غير قابل للتغير فى القرن التاسع عشر لأنه دائماً شبيه نفسه ، ومشابه بشكل غريب لما كان عليه فى القرن الثالث عشر .

لقد انتهى دوره حقاً ، فبعد أن جمع أفضل ما فى جميع الحضارات، وبعد أن نشرها عبر العالم ، كانت حضارته الخاصة قد انطفأت ، وحياة شعوبه قد هبطت[1] . هذا إلى

---

(١) .. إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها من الظواهر الكبرى فى التاريخ .. لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله فى القوة والنظام ، وبسط الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفى ارتفاع مستوى الحياة ، وفى التشريع الإنسانى الرحيم ، والتسامح الدينى ، والآداب ، والبحث العلمى ، والعلوم ، والطب ، والفلسفة [عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — تأليف ول ديورانت . ترجمة محمد بدران . ص ٣٨٢] (المترجم)

أن الطبيعة ، والنباتات ، والأنعام ، والبشر ، لم يتغير شيء منها تحت سماء صحراء الجزيرة العربية التي لا يقر لها قرار .

ثم اختفى الصفوة القادة الذين كان لزاماً عليهم أن يقودوا هذه النهضة في هذا الخضم أو كانوا قد استكانوا إلى التبطل . وكانت الامبراطورية قد وجدت نفسها فوق ذلك مضطرة إلى امتصاص شعبين حديثين لكنهما بدائيان وأميان : الأتراك في الشرق والبربر في الغرب . لهذا بينما كان الغرب يتابع بدوره تطوره الجدى ، كان يبدو أن العالم الإسلامى قد فقد كل ابتداع وأخذ يغوص في أساليب الماضى ويرسف في قيوده[1] ويتعامى عن وثبات الحاضر والقابل فيظل عنهما في عزلة وسكون .

وإذا أردنا أن نبحث عن الأسباب العميقة لهذه الحال ، ولهذا الانصراف الجماعى يجدر بنا أن نلاحظ أن الإسلام لم يكن مسئولا عن ذلك ، وأنه ينبغى أن ننسب للجو واتجاهات الشرقيين السيولوجية النصيب الذى يعود إليهم في أمر الامتناع عن الكفاح ويجب أن نعترف كذلك أن بذل الجهود بالنسبة لشعوب قديمة متحضرة لم يعد له جاذبية الشيء المجهول ، وأن أساليب الحياة التى ظلت يقظة فترة طويلة جداً من الزمان في حاجة إلى راحة تجدد نشاطها . إن العرب عندما استناموا إلى مجدهم القديم، والتفوا برداء منزلتهم السابقة ، واقتنعوا بأن لهم الصدارة الروحية لم يلقوا بالا إلى أن امبراطورية العالم قد خرجت من قبضة أيديهم . وأن هذا التفسير ومثله هو التفسير الذى يقتضى أن نقدمه[2] .

بيد أن الزمان قد ولى . .

وفى القرن الماضى لم يبق شيء من هذا المجد الذى كانت عليه بغداد ، مدينة هارون الرشيد الساحرة القاسية . فتحولت القصور تراباً ، وأصبحت خليطا من الهباء . وفى تلك المدينة التى كانت ذات يوم بابل العظيمة ، تقوم مخيمات من البدو . وليس شاطىء سوريا

---

(١) كل ذلك بسبب الاستعمار . (المترجم)

(٢) نكرر القول بأن ذلك كله يرجع إلى الاستعمار الذى كانت مهمته الأولى القضاء على كل طاقات الإنتاج فى هذه البلاد ليبقى له الصدارة والابتكار فى كل شيء (المترجم)

لحير مقبرة طويلة لمدن قديمة مدفونة[1] والقلاع وحدها التى أقيمت من أكليكيا إلى البحر الميت هى التى لا تزال باقية من غير تدمير على الرغم من كل شىء كأنها علامات لسلسلة أعمال بطولية . كانت هذه القلاع تؤوى « سكاناً بائسين وفى السور الحجرى للمدن التى دمرها البشر أو الزمن ، تتلاصق مساكن من الملاط المخلوط بالقش . وهى مساكن قذرة تعلوها ثياب رثة يتصاعد منها بخار، ورائحة إنسانية وحيوانية ترتفع تحت الشمس المحرقة ، وعندئذ نفكر على الرغم منا فى أشعار عمر الخيام .

... آه ! آه .. !

أين الدفوف الرنانة ونداءات الطبول[2] .

إن المدن القليلة التى بقيت من آثار الامبراطورية الإسلامية تعيش غارقة فى حياة من الخمول لم تعد تجرب شيئاً وتجرى بلا مبالاة ومن غير إصغاء إلى ضجيج الماضى . وطيلة ٧٠٠ عام ، ظل الكيان العام والاقتصاد من غير تغيير ، وبقيت أساليب العامل تتكرر ثابتة بلا تغيير على مر العصور ، فى دمشق كما فى تونس ، كما فى فاس ، وتستمر الحرف القديمة وفقاً لنسق عريق فى القدم . ولم تعد الطبيعة نفسها تتذكر رخاءها الذى لم يكن له مثيل . ولم تعد هذه السهول التى كان يرويها نهر دجلة والفرات، والتى كانت مخازن العالم القديم ، وهذه المساحات الشاسعة من الأرض الخصبة التى عاش عليها ملايين من البشر فى رخاء ، إلا صحراء مجدبة تثير الحزن والألم . ولم يعد ممكناً أن تنبض بالحياة مرة أخرى هذه القناطر المدمرة ولا هذه القنوات التى جفت والتى أهملت لولا وجود السهوب التى اجتيحت على الدوام . وفى الشرق الأدنى كله ، لم يعد الريف إلا مساحات من الأعشاب الكثيفة التى تبعث على الحزن ، ومن الحشائش مع بعض حدائق من الفاكهة يملؤها الغبار . وعلى مسافات متباعدة ، تجد قرى صغيرة تدعم

---

(١) كانت هذه المدن القديمة المدفونة تحتوى على آثار الحضارة فى الفنون هى حضارة الشرق الأدنى ، تلك الحضارة التى اعترف بها الغربيون على أنها أعظم حضارة والتى أخذ عنها اليونانيون حضارتهم ثم نقلها الغربيون عنهم ، (المترجم)

(٢) لم نجد هذين البيتين فيما هو مترجم إلى العربية من رباعيات الخيام .
(المترجم)

أسوارها الخارجية بعضها بعضاً لتشكل متاريس ضد غزوات البدو الرحل . ويفوح من هذه القرى روائح الخراف وتضطرب الليالى فيها بسبب نباح الكلاب الضالة الحزين وهنا وهناك ، تعتصم بعض الضياع فى حذر خلف أسوار من الصبار .

كان ذلك هو منظر هذه الأمكنة الكئيبة فى بداية هذا القرن[١] .

وتزرع على الدوام — كما كانت تزرع فى العصور الموغلة فى القدم — فى مصر وفى سوريا وفى المغرب حقول بالمحراث أو بالفأس، وتنتج الأرض بشق الأنفس ما يتبلغ به البشر . ويفتت نظام التوريث الملكيات إلى مالا نهاية له ، فيملك الواحد شجرة زيتون هنا ، وشجرتين من النخيل هناك ، ولا يبقى أى إصلاح زراعى ممكناً[٢] . ويشكل عدم انتظام الجو والجفاف أمام الفلاح الذى يتخلى عنه جميع الناس والطبيعة ارتباكا مستمراً وهكذا تبرز مشكلة حفظ الحياة قائمة ملحة وفى غاية القسوة .

ومع ذلك ، فإن شعوب العالم الإسلامى ما عدا الجزيرة العربية قد وهبت لها تربة غنية وخصبة . لكن الزراعة تتطلب حب الأرض ، ويوجد فى هذه الربوع الإسلامية خصم لا يهدأ ، خصم يحافظ على استقلاله ألا وهو البدوى[٣] .

---

(١) لقد بدأ العالم الإسلامى فى بداية هذا القرن . بفضل الحركات التحررية التى عمت شعوبه ضد الاستعمار — بدأ ينفض عن كاهله ما يعانيه من الفقر والمرض والركود فأخذ يعمل بجد وعزيمة وإيمان لاستعادة مجده القديم . ونجد فى هذا العالم الإسلامى الآن نهضة مباركة قوية فى جميع المرافق الحيوية تنبىء بأن هذه البلاد من المحيط إلى الخليج ستستعيد عما قريب ما كان لها من حضارة أشرقت على العالم كله . وحسبنا أن نقول إنها بالفعل حققت الشىء الكثير من أسباب الرقى وأنها رفعت عن كاهلها ما كان يطوقها الاستعمار به من قيود . (المترجم)

(٢) لا شك فى أن فى هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

(٣) سيتناول المؤلف فى كتاب آخر مقبل من هذه المجموعة : محنة العالم الإسلامى وتاريخه فى العالم الحديث . (الناشر)

فهرس

الباب الثانى

الصفحة

الباب الثالث

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية

الصفحة

الباب الرابع

الأفول



الثمن ٤٥ قرشا

دار الطباعة الحديثة
٥ كنيسة الأرمن - أول شارع الجيش
٩٠٨٢١٨٥ - س.ت ٥٩٦٦١